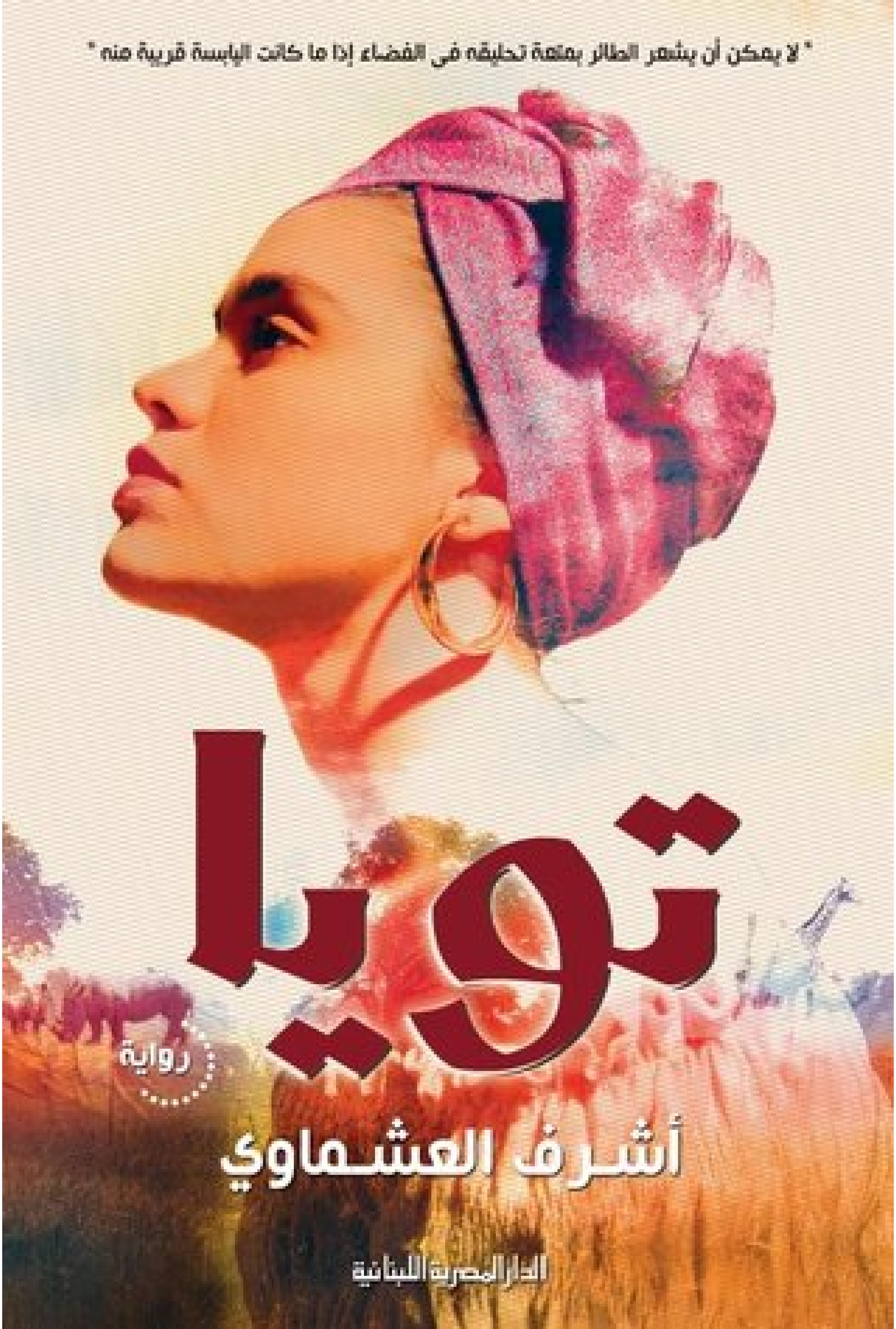


" لا يمكن أن يشعر الطائر بمتعة تحليقه في الفضاء إذا ما كانت اليابسة قريبة منه "
تويا
رواية
أشرف العشماوي
الدار المصرية اللبنانية

رواية

تويا

أشرف العشماوي

الدار المصرية اللبنانية

العشماوي ، أشرف .
تويا : رواية / أشرف العشماوي . ـ ط6. ـ
القاهرة : الدار المصرية اللبنانية ، 2013.
288 ص ؛ 21 سم
تدمك :0 978 - 977 - 427 - 745 -
1 ـ القصص العربية.
أ ـ العنوان .
رقم الإيداع : 2012 / 10095

الدار المصرية اللبنانية
16 عبد الخالق ثروت ـ القاهرة .
تليفون: 23910250 202+
فاكس: 23909618 202+ ـ ص.ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www.almasriah.com

الطبعة الأولى : رجب 1433 هـ - يونيو 2012 م
تصميم الغلاف الفنان : عمرو الكفراوي

إلى مَن يظن أنه يتخذ جميع قراراته بعقله فقط ..
تأكد أن قلبك يخطو الخطوة الأولى في أحيان كثيرة .
أشرف العشماوي

1
القاهرة 1970

ترك يوسف سلسلة المفاتيح تنساب من يده ، حتى استقرت على المنضدة الخشبية المستديرة ، ثم تهاوى بجسده المنهك على الأريكة .. رجع برأسه إلى الوراء ، ورفعها إلى أعلى وتنفس بعمق ، وكأنه يلفظ عناء يومٍ شاق.. نظر إلى حذائه ، كان متسخًا ومنبعجًا بصورة غريبة لم يسبق له أن رآها من قبل .. مطَّ شفتيه في امتعاض ، وارتسمت بعض من ملامح الغيظ والضيق على وجهه؛ فقد كان حذاءً غالي الثمن ، اشترته له أمه من لندن الصيف الماضي ، واليوم انتهت صلاحيته تمامًا .

كان قد خرج من كلية الطب بعد ظهر اليوم حيث توقفت الدراسة ؛ بسبب المشاركة في جنازة الرئيس جمال عبد الناصر .. وقف نحو نصف ساعة يتأمل حشود الجماهير الغفيرة وهي تهتف وتبكي .. بعضها كان ينتحب بلا اصطناع ، والبعض الآخر كانت ملامح الذهول تكسو وجهه بالكامل ، وكأن حزن الدهر كله قد التصق به .. لم تكن تعنيه السياسة كثيرًا ، ولم يهتم يومًا ما بها ، على عكس والده الدكتور كمال نجيب ، أستاذ الأمراض الجلدية بكلية الطب والمدير السابق لمستشفى الجذام بحلوان ، والذي كان يرى ناصر أسطورة تاريخية ، قلما يجود الزمان بمثلها ، ومن حسن طالعنا أن القدر اختار مصر لتولد الأسطورة على أرضها وتقودها لسنوات ... عاد ليمط شفتيه من أفكار والده ، التي لا تروق له على الإطلاق ، فقد كان يختنق من السياسة ويكره الحروب التي قادهم ناصر إليها .

حياة يوسف كانت عبثية ومنتظمة في آنٍ واحد ، يلهو ويسهر للصباح مع أصدقائه ، يشرب ويرقص ، وينتقل من صديقة إلى أخرى ، وكأنه فراشة تمتص رحيق الزهرة ، ثم تتركها بخفة ورشاقة .. وفي الوقت ذاته ، يولي عناية خاصة بدراسته بكلية الطب حتى أنهاها منذ بضعة أسابيع بتفوق.. وبدأ يتأهب لتطوير عيادة والده في وسط القاهرة ، أثناء فترة التكليف بمستشفى القصر العيني .. قام متكاسلًا حتى وصل إلى حافة الشرفة .. أزاح ستائرها بدفعة واحدة ، لا تخلو من عصبية ظاهرة ، وكأنه يمحو بها أفكار والده عن الاشتراكية ، ودور مصر في إفريقيا والعروبة من مخيلته .

وقف يشاهد الجماهير الغفيرة عبر النافذة .. كان يبدو متواريًا نوعًا ما ، وزجاجها السميك يحول بينه وبين سماع هدير أمواج بشرية متلاحمة ، تقطع شارع الجيزة باتجاه كوبري الجامعة .. دفع حافة النافذة بأنامله قليلًا ، فاخترقت أذنيه هتافات الحشود بحياة زعيم الأمة الذي رحل فجأة .. لم ينفعل كثيرًا ، وإن ظل مشدوهًا بما يراه ويسمعه .. عاد يغلق نافذته ويحكم غلقها ، وكأنه يتعمد أن يكون بعيدًا عن جموع المواطنين وهموم الوطن.. أصدقاؤه المقربون قليلون ، وكثير هم معارفه .. يفضل الاختلاط بالصفوة والنخبة .

والدته إنجليزية الأصل .. أثرت عليه كثيرًا في تربيته وعاداته وأفكاره ، انجذب إليها أكثر من والده في سنوات عمره الأولى ، حتى أتم دراسته الثانوية .. وقتها حدث الانفصال ، وسافرت هي إلى ليـڤربول ، مسقط رأسها ، واستقر هو في القاهرة مع والده ، وساعدته دراسة الطب في

التقرب إليه أكثر ، ولكنه لفظ أفكاره الاشتراكية دون تعجرف ، وكأنه يتجنبها أو يتحاشها على استحياء ، دون سبب معلن أو ظاهر لنفسه.. كان والده يخصص يومين أسبوعيًّا لعلاج الفقراء في عيادته ، وبقية الوقت لإدارته لمستشفى الجذام ؛ فقد كان تقريبًا شبه متفرغ لهذا العمل الخيري .. كان والده يرى أن الطب رسالة ، يجب أن تصل إلى كل فرد ، بينما آمن يوسف أن الطب مهنة ، تحقق لك كل ما تحلم به من وجاهة وثراء ومكانة اجتماعية مرموقة .

عاد يوسف ليستقر على الأريكة ، بعد أن أدار مفتاح التلفاز قبل جلوسه.. سمع صوت الباب .. التفت .. شاهد والده يدخل بعد برهة قصيرة ، مطأطأ الرأس منكسرًا حزينًا ، وكأنه شاخ سنين في ذلك اليوم .

نظر إليه والده في شجن مختلط بالوجوم ، انعكست كل تجاعيد الزمان على وجنتيه ، وهو يخرج حروفه من بين شفتين جافتين بصعوبة :

- هل شاركت ..؟

تردد يوسف قليلًا ، فلم يكذب قط على والده ، فقال :

- نعم .. ولكن لمسافة صغيرة ؛ فالزحام كان قاتلًا وأنا أختنق بسرعة و...

صمت ولم يكمل ، فقد كان الأب شاردًا لا يريد أن يسمع .

تهاوى الدكتور كمال نجيب على الجانب الآخر من الأريكة قائلًا ، وهو يتنهد في ضيق : لقد كان استفتاءً شعبيًّا على محبته في قلب شعبه ، لا في مصر فقط ولا الدول العربية ، بل في إفريقيا كلها .. خسارة لا تعوض يا يوسف !

ثم مضى الأب يتحدث دون توقف عن جمال ، كما كان يحب دائمًا أن يناديه ، فيشعر المتلقي ، وكأنه يتحدث عن صديقه الحميم .. فبات المشهد أشبه بحفل تأبين بدأ مبكرًا .

أراح يوسف ظهره إلى الأريكة أكثر ، وكأنه يغوص في ذاكرة التاريخ ، وسرح في ذكرياته مع والده ، وهو يتذكر هذا الحوار يوم أن رحل جمال عبد الناصر .. لقد مرت أربعة أعوام الآن على وفاة والده ، فلم يتحمل رحيل عبد الناصر كثيرًا ، ولم تمض أسابيع قليلة حتى لحق به .. مضى يتذكر ذكرياته مع والده ، وأحاديثه عن مرضى الجذام ، وسفرياته إلى السودان وغرب إفريقيا للمشاركة في إرساليات طبية .. قفز فجأة متجهًا إلى المكتبة .. عبث بأحد أدراجها حتى أخرج ألبومًا قديمًا ذا لون أخضر داكن ، لون أمه المفضل .. عاد إلى موقعه على الأريكة ، وبدأ يتصفحه حتى وقف طويلًا أمام صورة لوالده ووالدته مع عبد الناصر عام 1959 في السودان ..كانت والدته تبدو متأففة نوعًا ما .

ابتسم يوسف .. فقد كانت أمه تكره تلك الرحلات للجنوب ، ولا تحب كثيرًا الاختلاط بالطبقات الفقيرة والمرضى ، وورث هو عنها قدرًا لا بأس به من هذا الشعور ، ومع ذلك وجد نفسه يبقي على أيام علاج الفقراء بعيادة والده ، رغم أنه لم يوصه بذلك ... شعر وقتها أن في داخله دافعًا قويًّا لأن يفعل ذلك ففعله .. إرادة قوية وخفية ، في آنٍ واحد ، تحركه في أمور كثيرة ، فيسير وراءها ، وكأنه لا يملك من أمر نفسه شيئًا ، مع أن الذي يراه يكاد يجزم بأنه يفعلها بمنتهى الثقة والاقتناع .. مضت ذاكرته تعمل ، وكأنها آلة عرض تدور بترتيب عكسي ؛ فتتذكر أمه السيدة براون ، عندما حضرت لزيارته بعد وفاة أبيه :

- هل تعيش في هذه الفوضى منذ ثلاث سنوات يا يوسف ؟

قالتها السيدة براون بغضب .

ابتسم وهو يجلس على الأريكة ، يطالع دورية طبية إنجليزية حديثة ، قائلًا بغير تركيز :

- لا يا أمي ، ولكن أصدقائي سهروا معي أمس ، ولم أجد وقتًا لتنظيف المطبخ .. اتركي كل شيء .. لا تهتمي بهذه الأمور ..

لم يتلق ردًّا فخفض الدورية الطبية التي يقرأها قليلًا ، مصوبًا بصره نحو باب المطبخ .. سمع صوت الصنبور ، وهو يتدفق على صحون تحدث جلبة منتظمة .. متقطعة ، وهي تتراص تحته فيما يبدو .. كانت أمه عنيدة .. لم تحب مصر يومًا ما ، ولم تطق البقاء فيها كثيرًا أثناء زواجها من والده ، فما أن تنتهي شهور الشتاء ويبدأ الربيع ؛ حتى تسافر إلى ليـڤربول ولا تعود للقاهرة ، إلا مع نهاية الخريف كل عام .

- متى ستسافر إلى ليـڤربول ؟

قالتها وهي تشعل سيجارتها ، وتشرع في ارتشاف فنجان قهوة أعدته بعناية ..

- خلال أيام .. لقد أنهيت معظم أوراقي بالجامعة ، وسأغلق العيادة غدًا .

ارتسمت ملامح الارتياح على وجه والدته السيدة براون .. كانت تخطط منذ وفاة والده ؛ لإقناع يوسف بالسفر إلى ليـڤربول ، واستكمال دراسته ونيل الدكتوراه ، وكان يوسف مرحبًا ولكن بلا حماسة .. فقد كان يرغب في ترسيخ اسمه ونيل شهرة وتحقيق ثروة في مصر ، مستغلًا زبائن والده وعلاقاته الاجتماعية ؛ حتى يحقق طموحه وحلمه بإنشاء مركز طبي خاص ، يكون الأول من نوعه في الشرق الأوسط .. وأخيرًا اقتنع بأن درجة الدكتوراه ستضيف إليه خبرة وبريقًا ، سيساعده أكثر في شق طريقه لتحقيق طموحه .

ابتسم ، وهو يتذكر ، عندما كان يجلس في المكان ذاته ينظر لوالده ، الذي جلس في موقعه المفضل ، أقصى يسار الأريكة ، وهو يحدثه عن قبائل جنوب السودان وطيبة قلبهم ، وكيف يتواصل معهم .. كان يتعجب من قدرته على العيش وسطهم لشهور طويلة ، يعالجهم ويختلط بهم حتى أتقن لهجة بعضهم .. أغمض عينيه ، وصوت أبيه يرن في أذنيه ؛ مؤكدًا على جذوره الإفريقية ، وأنها أعظم أحلام عبد الناصر ، التي كادت تصبح واقعًا ملموسًا .

أخرجته والدته من شروده ، وهي تقفز على كتفيه بأسئلتها:

- إن كاترين دائمة السؤال عنك بصورة غير مسبوقة ..

تلك المرة.. قالتها وهي تتأهب لرفع فنجان قهوتها من على المنضدة ، بعد أن فرغت منه ، ورمقته بنظرة ماكرة ، وابتسامة لا تخلو من المكر ذاته ، وكأنها تشربته من عينيها الماكرتين .

يوسف ، في لامبالاة : طبيعي ، فقد غبت كثيرًا عن ليـڤربول .. لقد مضى أكثر من تسعة شهور منذ زيارتي الأخيرة .

- أنا أعتقد أنك تلك المرة لن تعود للقاهرة ... سيعجبك العمل في ليـڤربول ، وقد تنتقل إلى لندن إن أردت ، ووقتها لن تحتاج كاترين للسؤال عنك .. ستكون بصحبتك .

خرجت منه ضحكة استنكار مكتومة ، فقد كان يدرك أن أمه تدفعه دفعًا للزواج من هذه الشقراء الإنجليزية ، التي يعرفها عائليًا منذ سنوات .. لم يمانع ولم يقبل في الوقت ذاته .. وقف على الحياد مع مشاعره ناحيتها ، فظلت روتينية على قدر الحاجة ، ووقت اللزوم فقط لا غير !

عادت صورة والده تتصدر المشهد على الأريكة ، وكأنه يتناوب الظهور مع والدته .. تذكر نصيحة والده له بألا يتزوج إلا بمن يشعر أنها امتداد له .. من يحبها بالفعل .. بالقلب قبل العقل .. قفزت إلى ذهنه عبارته الشهيرة : من تحتاج إليها معنويًّا يا يوسف ، وتحتاج إليك بالقدر نفسه .

مدَّ ساقيه على الأريكة .. واستسلم لنوم عميق ، بعد أن أُجْهدت ذاكرته جراء استعادة أربع سنوات مضت !

* * *

- الحرب انتهت أخيرًا .. كم هو داهية الرئيس أنور السادات .. لقد خدع العالم كله وانتصر في النهاية .

قالها يوسف بحماس حتى كاد يصفق لنفسه ..

رمقه إسماعيل صديقه بنظرة فاحصة ، وهو يمد ساقيه على المقعد الخوص ، الذي أمامه بملعب الكروكيه بنادي الجزيرة ، ثم قال :

- منذ متى ، ويوسف نجيب يتحدث في السياسة ؟! هل نساء مصر في إجازة ، أم أن طموحك التجاري والمركز الطبي العالمي تم إلغاؤه ؟!

ضحك بقية الأصدقاء ..

ولكن يوسف لم يعبأ لسخريته ، ورد عليه ببرود :

- يا صديقي العزيز .. حتى معاملة النساء لا تخلو من السياسة .. ثم استطرد .. أنا لا أحب الشعارات والخطب مثلما فعل بنا عبد الناصر .. تارة حلم العروبة ومرة القرن الإفريقي حتى انتهت بنا الحال إلى نكسة .. أما السادات فهو رجل أفعال .. قرر وخطط وحارب وانتصر ، والآن سيبدأ الازدهار الاقتصادي .. استثمارات من دول كثيرة ستصب في مصر ، وأثناء إعدادي رسالة الدكتوراه في إنجلترا ، سأكون قد رتبت أمر المركز الطبي .. وبحثت عن تمويل ملائم له ؛ خصوصًا من الدول العربية .. أكاد أشعر بأنني أراه أمامي الآن .

قالها وهو يغمض عينيه ويبتسم في زهو ..

اعتدل إسماعيل في جلسته ، وهو يشعل سيجارته قائلًا :

- لا تعش كثيرًا في هذا الوهم .. هذا ليس حلمًا وإنما كابوس .. فالغرب لن يساعدك بلا مقابل .. بل سيغرقك في سلع استهلاكية لتحقيق مصالحه ، ولن يجعلك تكون منتجًا أبدًا .. عبد الناصر كان بعيد النظر ، عندما توغل في إفريقيا وآمن بالعروبة .. ولكنني أشك كثيرًا أن السادات سيسير على نهجه وواضح أنه سيتجه غربًا.. وإذا ما فعل ، سيذهب إليهم بلا جذور ، وتباعًا سيقلده الباقون .. فمصر رائدة في كل ما تفعله ، وإذا ماحدث سنكون جُزرًا منعزلة ، وهذا ما يريدونه بالضبط ..

أشاح له يوسف بيده في ضيق قائلًا :

- كفاك شعارات اشتراكية وقومية ، فهي لن تطعمك أو تشفيك إن مرضت ، كما أن إفريقيا تعاني فقرًا ومرضًا أكثر منا بكثير .. هؤلاء سيستنزفوننا ولن نستفيد شيئًا منهم ، اللهم إلا أن نزداد فقرًا على فقرنا .

ثم حمل عصا الكروكيه الخشبية ، وكأنها فأس ، ومضى يدندن بلحن أغنية الفدادين الخمسة الشهيرة .. بينما تعالت ضحكات بعض الأصدقاء من طريقة أدائه ، التي تحمل الكثير من السخرية .

«حضرات السادة الركاب ، لحظات ونقلع من مطار القاهرة الدولي في الرحلة رقم 582 ، المتجهة إلى لندن . نرجو ربط أحزمة المقاعد ، والتوقف عن التدخين لحين إطفاء الإشارة وإتمام الإقلاع» . لم يلق يوسف بالًا لبقية تعليمات المضيفة ، فقد مل من تكرارها ؛ فأطفأ سيجارته ، ورجع برأسه قليلًا للوراء ، وهو يتأمل الطائرات الأخرى الرابضة بجوار طائرته من النافذة .. ثم سرعان ما بدأت تبتعد عنها ؛ حتى استقرت على ممر الإقلاع ، وقفت برهة وعلا صوت محركاتها ، وكأنها تزأر كالأسد ، قبل أن ينقض على فريسته ، وسرعان ما انطلقت ثم ارتفعت ببطء ، ودارت نصف دورة لمح معها جزءًا من شريان النيل والأهرام.. ثم صحراء صفراء جرداء ... ظل يحملق فيها وهو شارد .. والسؤال الذي لا يريد أن يفارق ذهنه هو .. متى سأعود ؟!

* * *

2
ليڤربول 1974

- ضربة رائعة يا چو .

قالتها كاترين ، وهي تصفق بحماسة مصوبة عينيها الجميلتين ، اللتىن تشبهان مياه البحر الصافية وقت الظهيرة ، في أحد الخلجان ، نحوه .

التفت يوسف إليها ، وحياها بيده اليمنى ، بعد أن نقل مضرب الكريكيت إلى يسراه في خفة واستعراض ، كانت ضربته الأخيرة رائعة بحق ، بعد أن ثنى جذعه وأطاح بالكرة بقوة بكلتا يديه ، فأضاف لفريقه نقاطًا جديدة ، لم يكن في مضمار إيجبرث بمدينة ليـڤربول سوى كاترين وبعض صديقاتها ؛ فقد كان الطقس غائمًا في ذلك اليوم ، ولم يستطع يوسف ورفاقه إكمال المباراة حتى نهايتها ، بعد أن داهمتهم الأمطار بغزارة ، وكأنها تدفعهم دفعًا لترك مضمار اللعب رغمًا عنهم.

- كنت رائعًا اليوم كالمعتاد يا چو .

مط شفتيه قليلًا وهز رأسه قائلًا :

- لا أظن .. فلم أستمتع باللعب اليوم .. الطقس كان مزعجًا إلى حد كبير.. هل ترغبين في تناول بعض المشروبات ، أم تفضلين العودة للمنزل؟

- كما تشاء ..

أجابت وكأنها آلة ناطقة ..! فقد كانت تحبه بعقلها ، وتخاف أن يتركها فجأة ، ولا يعود .. وهذا الهاجس كان يسيطر على تفكيرها أحيانًا كثيرة وإذا ما تمكن منها ، يكون يومها سيئًا .. كانت تغار عليه ولكن ليس بشدة ، ولا تمانع أن يفعل أي شيء ما دام يعود إليها في النهاية .

حزم حقيبته الرياضية ، بعد أن حسم أمره بمغادرة مضمار إيجبرث ، وهب واقفًا .. وضع يده اليمنى برفق حول كتفيها كان أطول منها كثيرًا .. بشرته سمراء نوعًا ما على الأقل مقارنة ببياضها الشاهق .. يحتفظ بقوام رياضي ، بدأ في تكوينه منذ سنوات الدراسة الأولى ، ومازال يحرص عليه ، وكان يحلو له دائمًا أن يعبث بخصلات شعره الأمامية فيتخللها بأصابعه ، وكأنه ينفض عنها أتربة علقت بها من كثرة ما يهزها !

استقل سيارته الرياضية ذات البابين ، وانطلق بها محدثًا صوتًا عاليًا جراء احتكاك إطاراتها الخلفية بالطريق.. استقرت كاترين بجواره في هدوء ، وكأنها دمية مثبتة في مقعدها منذ فترة ، وقالت :

- إلى أين تذهب .. هذا ليس طريق العودة ؟!

هز يوسف رأسه ، وكأنه يدرك أن الإخفاق حليفه لا محالة :

- مازال لدينا وقت حتى ميعاد الكوكتيل في المساء .. لماذا لا نذهب في نزهة بالسيارة ، بالقرب من الميناء .

قالها وهو يبتسم ابتسامة ماكرة نوعًا ما ..

أجابت بحدة : لا ، أرجوك يا يوسف .. لقد مللت من تأملك للميناء كل يومين تقريبًا .

لاحظت أن غضبه بدا يلوح في الأفق ، فأردفت بنبرة ناعمة مصطنعة :

- أريد أن أصفف شعري ، وأستعد للحفل ، كما أنني لا أحب التنزه في جو ممطر .

رفع يوسف صوت الموسيقى المنبعث من الراديو ، وكأنه يخلق حاجزًا وهميًّا بينهما .. لم يكن يشعر ناحيتها بعاطفة حقيقية أو مشاعر جياشة .. فقط كان يستمتع بوقته معها ، منذ أن عرفها وهو صغير ، يتردد على ليـڤربول بصحبة والديه... تعود عليها وتعودت على طباعه .. يروق له جمالها وأناقتها وعائلتها الإنجليزية العريقة ، كما أن زواجه منها سيريح والدته السيدة براون ، وسيجعلها تتوقف عن إلحاحها بالبقاء في إنجلترا.

نزلت كاترين من السيارة بعد أن تبادلا قبلة باردة نوعًا ما.. ودعها بابتسامة شاردة وانصرف .

ضايقه هذا الشعور الذي انتابه نحوها بشدة تلك المرة .. ثم ضايقه أكثر أنه احتل مساحة كبيرة من تفكيره ... فعاد يرفع مؤشر صوت الراديو عقب مغادرتها ؛ فهي لم تكن تحب الموسيقى الصاخبة مثله .. انبعثت موسيقى روك لفرقة البيتلز في أغنية جديدة تحمل اسم «1974 -1975» .. أحب الأغنية ، وظل يطرق مقود السيارة بأصابعه مع ألحانها ، وسرح في ذكرياته.. منذ أن تخرج في كلية الطب بالقاهرة ، وحضر إلى إنجلترا لاستكمال دراسته ، وهو يعد الأيام للعودة .. مضى عامان ومازال هناك مثلهما.. تخصصه في الأمراض الجلدية كان نادرًا ، ومع ذلك فلم يكن يعنيه البحث العلمي ، بقدر العودة بشهادة من ليـڤربول ؛ لتحتل مكانها وسط بقية شهاداته على حائط عيادته بوسط القاهرة .

لم يكن متحمسًا لفكرة الهجرة .. فحياته ونجاحه وحلم الثراء والوجاهة الاجتماعية وأصدقاؤه وسهراته .. ذلك كله يتحقق في مصر بالصورة التي يرضاها ، وهي تربة خصبة لنمو طموحاته وتنمية رغباته .. عكس إنجلترا التي سأمها من كثرة تردده عليها كل صيف ؛ بصحبة والديه منذ أن كان صغيرًا ، ومع ذلك أقنعته والدته بالدراسة في إنجلترا فسافر معها ، وعلى مدار عامين كانت تتعجله للعودة .. وتلح عليه بالبقاء والزواج من كاترين يتصارعان يوميًّا كديوك شرسة ، لا يفوز أحدهما وإنما يخرجان بجراح متفرقة ، يظلان يلعقانها حتى موعد النزال التالي !!

السيدة براون لا تيأس .. وطموحه وحبه لذاته يطغى على تفكيره.. قفزت صورة كاترين إلى ذهنه ، فزفر زفرة طويلة أشعرته بالملل .. تعجب من رد فعله ! كانت المرة الأولى التي يشعر فيها أنه يواجه نفسه بحقيقة علاقته بكاترين.. لم يكن يحبها ، ولكنه كان يحاول أن يفعل ذلك .. وبالطبع فشل .. فلا محاولات للحب، تستطيع فقط أن تحاول إظهار مشاعرك .. لكن أن تحب شخصًا بإرادتك أمر كان يبدو له أقرب إلى العبث .... فالحب شيء قدري ، كالموت تمامًا لا فرار منه ولا اختيار فيه، يحدث رغمًا عنا ويقودنا بلا مقاومة إلى مصير لا نعلم عنه شيئًا .. أما مفترقات الطرق التي يعتقد البعض أنها موجودة ، فهي مجرد سراب .. فمهما حاولنا تغيير اتجاهنا فإن الحال تنتهي بنا إلى النقطة نفسها التي تركناها و.. ونجدنا مسلوبي الإرادة أمام إرادته فنتبعه بسعادة أينما أخذنا .. عاد يرد على نفسه : ولم لا ؟ رفيقة جميلة في إنجلترا ، وزوجة أرستقراطية بالقاهرة مع وجاهة المهنة ، كما أن والدها يسيطر على تجارة المعدات الطبية بالشرق الأوسط كله..لا بأس إذًا .. ظهرت بوادر ابتسامة الرضا على وجهه ، فلم يكن يحب أن تتحكم مشاعره في تصرفاته ، وتنعكس على ردود أفعاله .. أما فكرة قبول كاترين والزواج منها فكلها أمور ، تصب في إناء طموحه الشخصي بعناية شديدة ، وبالقدر الذي يريده تمامًا !

أطفأ أنوار السيارة ، وانتزع حقيبته برفق من على أريكتها الخلفية ، ودخل إلى منزل والدته بضاحية برنسيز ، التي تشكل بقعة بديعة مميزة بجنوب ليڤربول ، وتكتسب شهرتها من حدائق زهور الأوركيد .

- كان عليك تنظيف حذائك جيدًا قبل الدخول للمنزل يا يوسف .

ارتفع صوت السيدة براون في حدة كعادتها .. هي الوحيدة التي لا تناديه باسم چو ، وتفضل مناداته باسمه الأصلي ، فهي لا تحب الأسماء البديلة أو المختصرة .

ابتسم يوسف ، وهو يرفع يده في مواجهتها باسطًا كفه تعبيرًا عن أسفه ، عما فعله بسجاد المنزل ، وما لحق به من أوساخ وأوراق شجر مبتلة ، علقت بحذائه ذي اللونين البني والأبيض .

- لا تتأخر ، نريد أن نذهب إلى حفل الكوكتيل في موعدنا .. هناك ضيوف كثيرون يجب أن أقدمك لهم ..العلاقات الاجتماعية مهمة إذا ما كنت ستعمل طبيبًا في انجلترا .

نظر إلى سقف الحجرة ، وهو يرتقي الدرج الخشبي المؤدي لحجرته ، وزفر زفرة بطيئة ، ثم التفت إلى والدته :

- يا أماه .. إنها المرة المائة بعد الألف وأنت تقولين لي ذلك ، وتحشرين بقائي في إنجلترا حشرًا في أي جملة ، وفي كل مرة أقول لك إنني أريد أن أعيش في مصر ، ولا أحب العمل في إنجلترا .. فأنا أكره القيود الشديدة، ومصر تناسبني ؛ خصوصًا إننا الآن سنطبق سياسات اقتصادية جديدة ، ستجعلنا مجتمعًا منفتحًا كأمريكا .. الرئيس السادات قال ذلك منذ عدة أشهر بمناسبة إعادة افتتاح المجرى المائي لقناة السويس للملاحة ، وأيضًا ....

قاطعته السيدة براون بحدتها الشهيرة ، وصوتها الرفيع الحاد الأشبه بصراخ قطة ، جرح ذيلها فجأة :

- لا شأن لي بالسادات أو بسياساته.. أريدك أن تعيش هنا وتعمل هنا ، وتتزوج كاترين كما وعدتني .

نزل يوسف درجتين من على السلم الخشبي ، واقترب من أمه ، وطبع قبلة حنونًا على جبهتها قائلًا :

- لا بأس ، لا مانع لدي من الزواج من كاترين .. أما الإقامة هنا ، فأرجوك توقفي عن ذلك الإلحاح ، وكأنك تدقين مسمارًا في رأسي كل يوم .

مضت السيدة براون وتركته واقفًا في مكانه، توقفت عند منضدة قريبة من الصالون ..أخرجت سيجارة طويلة بنية اللون رفيعة جدًا من علبة فضية ، أشعلتها في هدوء ، وقالت وهي تتفرس ملامحه :

- هل ستعيش كاترين معك في مصر؟ هل قبلت ذلك ؟

- إنها لم تقل لي شيئًا عن هذا الأمر من قبل ، وأنا لم أفكر في سؤالها .. كل مرة كانت تزورنا في القاهرة مع أسرتها ، كانت تبدو لي سعيدة ، ولكنها ربما سعادة الزائر لبلد جديد أو.....

قاطعته والدته : أو ربما سعادة العاشق !

ابتسم يوسف واحمرت وجنتاه ، وعبث بخصلات شعره في ارتباك .. لم يكن متعودًا على هذه النوعية من الأحاديث مع أمه من قبل .. صمت برهة ، وقال :

- لا أعرف إن كانت وصلت إلى درجة العشق أم لا ، ولكنها تحبني .. أنا أعلم ذلك ، وإن كنت لا أعرف إذا ما كانت ستريد العيش في القاهرة أم لا .

كان يتحدث وهو زائغ النظرات .. مرتبك دون مبرر.

قاطعته السيدة براون للمرة الثانية :

- هذا يتوقف على مهارتك وقدرتك على أن تكون مؤثرًا ، لا أن تكون متأثرًا .. والذي سيحب منكما الثاني أكثر ، سيكون هو الأقوى تأثيرًا بالتأكيد ، وعلى الثاني وقتها أن يرضخ لرغباته .. هل تعدني بذلك ؟!

جحظت عينا يوسف ، واستوقفه تعبير والدته وأعجبه ، ولكنه أخافه في آنٍ واحد ، لدرجة أنه شرد تمامًا ، فلم يعد يسمع بقية كلامها ، فقد كان يراها أمامه تحرك شفتيها ولا يستطيع تبين ما تقوله .. بدت وكأنها صورة مهزوزة في خلفية مشهد ، تصدرته عبارتها الأخيرة فقط .

أشاحت السيدة براون بيدها عندما وجدته غير مهتم بحديثها ، وألقت بجسدها ، الذي لا تزال تحتفظ بقوامه المتناسق ونضارته رغم اقترابها من الستين ، على أريكة صالونها الأنيق ، الذي يغلب عليه اللون الأخضر الداكن .. اللون نفسه الذي اختارته لسيارة يوسف ، والذي صمم هو على طرازها الرياضي رغمًا عنها.. لم تكن قد يأست بعد من قدرتها على إبقائه في ليڤربول حسبما تخطط منذ سنوات ، فقد بدأت بإقناعه بدراسات عليا بإنجلترا ، ثم دفعت بكاترين في طريقه ، وأخيرًا استدرجته إلى حفلات الكوكتيل لتقدمه للمجتمع الإنجليزي لينصهر فيه ، وكانت في أحيان كثيرة تظن أنها نجحت في إقناعه ؛ لأنه كان يستجيب لما تقدمه له .

إلا أنها سرعان ما كانت تتبين أن الأمر أشبه بالسراب.. فيوسف رغم ما يظهره من لين وطيبة قلب ، فإنه شديد المراس وطموحه الشخصي يطغى على تفكيره بالكامل ، فلم يكن يرى غير نفسه ، وحلم الدرجة العلمية الرفيعة والشهرة في مهنة الطب ، أحلام الثراء والوجاهة الاجتماعية ، التي ستكتمل بزوجة جميلة من عائلة أرستقراطية وعيادة بأرقى وأهم موقع بوسط العاصمة القاهرة .. كل ذلك يشكل معظم اهتمامه ، ويشغل الحيز الأكبر من تفكيره .. وهنا أطفأت سيجارتها الثالثة في يأس ، وصعدت لغرفتها لترتدي ملابس السهرة .

دقت الساعة السابعة ..و تناغم مع دقاتها وقع حذاء يوسف الكلاسيكي الأسود ، اللامع على الدرج الخشبي ، وهو يتهادى في زهو وخيلاء.. اقتربت منه السيدة براون .. امتدت يدها اليسرى إلى عنقه ؛ حيث أصلحت من رابطة عنقه ذات اللون الأصفر الفاقع .. فقد كان يتعمد أن يزيحها قليلًا عن حنجرته إلى أسفل ؛ حتى لا تضايقه .. إلا أن والدته أحكمتها كالمعتاد، فعاد يلعب في خصلات شعره ، وكأنه يصففها ويرصها بجوار بعضها البعض ، ولكن لم تخل تصرفاته تلك المرة من عصبية ظاهرة !

وصلا إلى قصر السير روبرت ماكياث ، مضيفهم في تلك الليلة.. ترك يوسف السيارة لشخص يعتني بها ، بعد أن فتح بابها للسيدة براون ، في أدب جم ، مع انحناءة خفيفة واضعًا يده اليسرى أسفل ظهره .. لمعت قفازاته البيضاء على الأضواء الخافتة ، التي تنبعث من حديقة القصر المواجهة للمدخل الرئيسي ... ودلفا إلى مدخل البهو الرئيسي ، فتأبطت السيدة براون ذراع ابنها ، الذي خلع قبعته البيضاء ، التي يحب أن يرتديها في حفلات الكوكتيل .. وسلمها برفق لشخص آخر

، يرتدي حلة سوداء ذات ذيل طويل وأزرار ذهبية على جانبي صدره ، وعاد يصفف شعره بيده اليسرى .

بهو أنيق فسيح .. سقف عال بصورة تبدو بها بعض المبالغة ، عما هو معتاد في قصور الطبقة الراقية بليفربول ، تتدلى من الأسقف ثريات قيمة مبهرة من الكريستال .. الجميع يرتدون ملابس سهرة كاملة ، والسيدات في كامل زينتهن أيضًا .. همسات ، ضحكات ولكن بحساب .. أحاديث جانبية وترحيب بشخصيات بصورة مبالغ فيها ، وأخرى لا تخلو من دبلوماسية ظاهرة ، ولكن كالمعتاد .. كان لهذه النوعية من الحفلات نمط ثابت لا يتغير، كئوس تدور ومقبلات خفيفة على صوانٍ فضية كبيرة ، ثم عشاء خفيف على موسيقى كلاسيكية لا تتغير ، وكأن الأسطوانة ذاتها يتبادلها أصحاب الدعوة في كل مرة ... الاختلاف أحيانًا قد يكون في أوركسترا صغير يعزف بالكمان ، أو عازف بيانو يلعب مقطوعات عالمية .

بعد قليل ، بدأ يوسف نجيب يشعر بالملل في الفترة الأخيرة .. في البداية انبهر بالحفلات ، ثم بدأ يتعود عليها ، حتى انتقل إلى مرحلة مختلفة ، وهي أن يصوب تركيزه على شخص من الشخصيات المهمة ؛ حتى ينجح في التعرف عليه ، ثم يتسمر أمامه طوال الحفل ، يحمل الكأس بيسراه ويتحدث بيمناه ، موضحًا وشارحًا ، بينما يتناول بعضًا من المشهيات التي تدور كل فترة ، فلا يستطيع استكمال عشائه .. ثم يدور الحديث عن الجديد في الطب وعن إنجلترا ، وعن حزب العمال ، وقليل من الكلمات عن مصر ، فلم يكن رواد الكوكتيل الإنجليزي من المهتمين بأحوال بلده كثيرًا ، رغم أنها انتصرت في حرب شهيرة مع إسرائيل منذ عامين تقريبًا ، لا تخرج الصورة التي استقرت في أذهان غالبيتهم عن إطار شخص ملتحٍ ، يرتدي جلبابًا ويمتطي جملًا ، وتقبع الأهرامات الثلاثة وراءه في خلفية المشهد، إلَّا أن يوسف عندما كان يشعر بضحالة المعلومات عن بلده ، يستعيد ذكرياته عن حضارة مصر وتراثها وكنوز المتحف المصري .

وفي أغلب الأحوال ، كان محدثه ينقل دفة الحديث إلى هيوارد كارتر ولورد كارنافون ، واكتشاف مقبرة توت عنخ آمون بالبر الغربي ، وكأن إنجلترا صاحبة الفضل في وجود الحضارة المصرية ، وكثيرًا ما كان يوسف يتعمد إغاظة محدثه بأن حجر رشيد ، الذي يتصدر مدخل المتحف البريطاني ، ويفتخر به الإنجليز لم يكن ليخرج من مصر ، لولا حريق الأسطول الفرنسي في معركة أبي قير ، واستغلال الإنجليز لهذه الفرصة ، وممارسة ضغوط على الفرنسيين لتركه .. ولولا شامبليون عالم الآثار الفرنسي الشهير ، لما عرف الإنجليز شيئًا عن قيمة ماسرقوه أو سعوا لاكتشافه بعد ذلك .. إلا أن محاولاته كانت في الأغلب الأعم تتحطم على صخرة البرود الإنجليزي ، وكثيرًا ما سمع العبارة نفسها « وأنتم أيضًا أيها المصريون ، لم تكونوا لتعرفون شيئًا عن حضارتكم ، لولا هذا الفرنسي شامبليون» ، وعادة ما تعقبها ضحكة عالية ، وكأن محدثه قد انتصر عليه بهذه العبارة السخيفة .

اقتربت منه كاترين، كانت مضيئة بجمالها ، ولكنها بدت له تلك الليلة غير مشرقة ، وكأن جمالها أشبه بلوحة جميلة ، ولكنها ليست مبهرة .. من تلك النوعية التي تستحسنها لبعض الوقت ، ولكنها لاتترك لديك انطباعًا قويًا أو أثرًا عميقًا يدفعك لأن تعود إليها ، أوتشتاق عيناك لرؤيتها دائمًا بعد أن ترهق مخيلتك بها . طبع قبلة باردة على أناملها الممدودة إليه ، قابلتها بابتسامة ، ثم تركته للقاء بعض صديقاتها ، بعد أن أرجأ فكرة الانضمام إليهن جراء تفاهة أحاديثهن .

همست له والدته السيدة براون بأن البروفيسور جورج راندال يريد أن يتحدث إليه قائلة : لقد حدثته عنك كثيرًا ، وعندما عرف تخصصك الطبي ، تحمس له جدًّا .. إنه من أشهر الأطباء في هذا المجال في ليـڤربول ، وقد يكون أحد الذين سيناقشون رسالتك العلمية ، أو يساندك الحظ أكثر فتعمل معه ، هيا هيا ، لا تجعل هذه الفرصة تضيع يا يوسف واذهب إليه .

ابتسم لها موافقًا ومضى خلفها تسبقه بخطوة ، بينما تمسك بيده اليمنى ، وكأنها تجره نحو الاستقرار في إنجلترا ، حسبما تأمل ، بينما خضع هو لها آملًا في كسر ملل هذه الحفلات ، التي بدأ يضيق بها ، وهي تتكرر بصورة باتت شبه شهرية لا جديد فيها ، بعد أن حفظها عن ظهر قلب ، ولكن احتمال أن يناقش هذا الجورج رسالته ، يجعل من المفيد التقرب إليه فورًا ..!

استقبله البروفيسور جورج بترحاب شديد ، غير مبرر بالنسبة ليوسف ، ولكنه أذاب الثلوج المحتملة في مثل هذه النوعية من اللقاءات ؛ خصوصًا أن فارق العمر بينهما يزيد على أربعين عامًا ؛ مما شجع يوسف على الحديث أكثر عن تخصصه الطبي في الأمراض الجلدية ، وعن موضوع رسالته العلمية في تخصص نادر ، خاص بتخليق عقار من عقارات متشابهة لمواجهة ميكروب معين .

تركه جورج يسترسل في الحديث ، وأنصت له باهتمام .. كان يوسف نجيب يبدو كالطاووس ، زاهيًا بنفسه وبخبرته على مدار عامين بالقصر العيني بالقاهرة ، ومئات الحالات التي شاهدها ، وتنوعها الفريد في مستشفى واحد ؛ الأمر الذي لايتوافر لأطباء كثيرين في أوروبا بالطبع.

انعكس أثر ذلك على ملامح البروفيسور جورج ، عندما اتسعت عيناه بالدهشة أولًا ، ثم سرعان ما لمعت انبهارًا حتى استقرت محدقة في وجه يوسف ، وكأن البروفيسور جورج تحول إلى صقر حدد فريسته ، فظل يحوم حولها محدقًا بعينين مصوبتين إلى وجهه ، لا تحيد عنه أبدًا طوال حديثه ؛ مما أشعر يوسف بنوع من الارتباك قليلًا ، تغلب عليه بتجرع بعض رشفات من كأس النبيذ ، ففوجئ بأنها فارغة فازداد ارتباكه .. طلب له البروفيسور كأسًا أخرى ، ووضع يده على كتفه مصطحبًا إياه نحو الشرفة .. استسلم له يوسف في وداعة لا يدرك لها سببًا ..

بدأ يوسف يستعيد هدوءه المفتقد جراء نظرات جورج الحادة إليه ، مع كأس النبيذ الثانية ، وظل يتطلع إلى وجهه كتلميذ ، ينتظر بلهفة أن يبدي أستاذه رأيه فيه ، بعد أن أنهى تفاخره بمهنته وخبرته العملية ورسالته المرتقبة في تخصص نادر ، اقترب منه البروفيسور جورج ، في هدوء مشوب بالحذر ، وكأنه سيفشي إليه سرًّا خطيرًا ، كان يكتمه منذ فترة طويلة :

- هل تعرف شيئًا عن مرض الجذام ؟

أجاب يوسف في دهشة :

- نعم .. أعرف عنه الكثير ، رغم أنه ليس منتشرًا في مصر بصورة وبائية أو مفزعة ، ولكنني رأيت حالات كثيرة مع أبي ؛ فقد كان مديرًا لمستشفى الجذام في بلدي .. ولكنني لم أباشر أيًّا منها لفترة علاج طويلة ؛ خصوصًا وأن نسبة الشفاء من هذا المرض تكاد تكون معدومة .

اتكأ البروفيسور على إفريز الشرفة بساعديه ، وصوب نظره إلى الحديقة الممتدة أمام بصره ، وقال:

- ماذا تريد من مهنتك يا يوسف ؟

كان السؤال مفاجئًا نوعًا ما ، فظل يوسف صامتًا ؛ حتى أعاد البروفيسور السؤال مرة أخرى على مسامعه ؟

- لا أفهم مغزى سؤالك .. بالطبع أريد أن .. أن أنجح وأتفوق ..

و....... تلعثم يوسف قليلًا ..

ابتسم البروفيسور ابتسامة غير مكتملة ، سرعان ما تلاشت :

- هل تراها مهنة أم رسالة ؟

تلعثم يوسف مرة أخرى ، وعاد إليه ارتباكه بصورة أشد ، لم يدر ماذا يقول ، فهو يراها وجاهة اجتماعية ومصدرًا للمال ، ثراء وجاهًا ومكانة في مصر ، ومستقبلًا واعدًا ينتظره ليستكمل مسيرة التدليل ، التي بدأها بمساعدة والديه وهو صغير ، ولا تزال مستمرة .. ولكن هذا الحديث لن يروق للبروفيسور بالتأكيد ، ولن يستقيم في مجتمع إنجليزي تقليدي محافظ ..

استجمع يوسف رباطة جأشه وقال :

- الاثنان معًا .. هي رسالة لن تحقق أهدافها ، إلا من خلال ممارستي المهنة بصورة احترافية كاملة .

حاول أن يكون فيلسوفًا فبدا كأبله يقول كلامًا فارغًا .. أدرك أنه لم يفلح في إقناع البروفيسور جورج بما ردده ، بعد أن رمقه الأخير بنظرة استنكار أقرب إلى الاحتقار .. هكذا شعر بها يوسف ، فتصبب عرقًا رغم برودة الطقس ..!

قال البروفيسور جورج :

- اسمعني جيدًا ، عندما اكتشف آرمور هانسن النرويجي البكتريا المتسببة في مرض الجذام من نحو مائة عام ، كان روبرت كوخ قد اكتشف الميكروب المسبب لمرض الدرن قبله بتسع سنوات ، وربما تكون هناك صلة أخرى بينهما لا أعرف .. ولكن ما نعرفه حتى الآن أن المرضين ناتجان عن ميكروبين ، يشابه أحدهما الآخر لدرجة كبيرة ، والجذام الآن نعالجه بعقار دابسون منذ نحو ثلاثين عامًا ، ولكن ميكروبات المرض تكتسب حصانة ضد هذا العقار سريعًا ، وهذا ما نواجهه من تحدٍّ الآن ، وهو تخصصك وموضوع رسالتك العلمية نفسه .

ظل البروفيسور يفيض في الحديث عن المرض ومسبباته وطرق الوقاية ، وفرص العلاج لفترة طويلة ، استغرقت نحو ربع الساعة ، مرت كدهر على مسامع يوسف ، الذي بدأ يشعر بالملل يتسرب إليه رويدًا رويدًا ، فتشتت ذهنه وأفلتت منه الكثير من العبارات ومقاطع الحديث ؛ فاكتفى ببعض عبارات الاندهاش على وجهه ، وفقًا لنبرة صوت البروفيسور لتعطي لمحدثه انطباعًا كاذبًا بحسن المتابعة ، مع التمتمة بكلمات من نوعية صحيح .. تمام .. مضبوط .. أتفق معك .. فعلًا .. إلى آخر هذه الكلمات التي تسمح للمتحدث بالاسترسال ، وكأنها تحفزه أو تشجعه على الاستمرار..وفي الوقت ذاته لا ترهق ذهن المستمع بدقة المتابعة !

مضى يوسف يسأل نفسه : ماله ومال هذه المحاضرة عن مرض الجذام وأنواعه ومكتشفه .. طالما حاول والده أن يجذبه إلى هذا المجال ، ولكنه رفضه .. شعر بأن البروفيسور يستعرض معلوماته الطبية والعلمية، فقرر أن يسايره لفترة ، ثم يستأذن منه في أقرب فرصة وينصرف.. فلا

فائدة من وراء معرفته عن قرب إذا كان الأمر كذلك .. إلا أن البروفيسور عاد يسأله السؤال نفسه ، بعد أنهى حديثه الطويل :

- كيف ترى مهنتك ؟

لم يجب يوسف وظل جامدًا كتمثال ، وكأن السؤال لا يخصه ، ولكن تلك المرة لم ينتظر البروفيسور جورج إجابته ، وإنما أعقب قائلًا :

- لاترد الآن .. فكر بترو وهدوء ، وأنا واثق أنك ستقف على الإجابة الصحيحة .

ثم أخرج كارتًا صغيرًا وضعه في الجيب العلوي لسترة يوسف ، حتى غاص فيه تمامًا ثم ربت على كتفيه ، مودعًا إياه بالابتسامة الواسعة نفسها ، التي قابله بها .

انسحب يوسف ومضى نحو منتصف الردهة الرئيسية للقصر ؛ حيث وقف شاردًا قليلًا ، ولكنه حافظ على بقاء ابتسامة باهتة على وجهه ، وظل يتحدث باقتضاب مع كاترين وصديقاتها .

- هل وافق على أن تعمل معه ، أم سيكتفي بالإشراف على رسالتك فقط ؟

التفت يوسف ، فوجد والدته السيدة براون تنظر إليه بعينين ، تكاد اللهفة تقفز منهما ، فأجابها في برود مصطنع ليخفي عنها ارتباكه :

- لا.. لا.. الأمر ليس كذلك .. لقد كان يتحدث عن مرض نادر وطرق علاجه .. يبدو أنه يهتم كثيرًا بالأبحاث العلمية .. ولكنه لم يقل شيئًا عن مناقشة الرسالة ، ولم يلمح لي برغبته في أن أعمل معه .

وتعمد يوسف إخفاء سؤال جورج له عن كيفية رؤيته لمهنته .

أردفت السيدة براون :

- إن لديه مؤسسة طبية خيرية ، ومركزًا شهيرا للأبحاث العلمية... وهو ينفق معظم دخله على تلك الأبحاث ، التي يجري أغلبها في إفريقيا ، إن لم تكن كلها .. وهناك عقار مسجل باسمه لعلاج أحد الأمراض الجلدية النادرة .

رنت كلمة إفريقيا في أذنيه.. إذًا هو يريد منه المساعدة ؛ لإجراء أبحاث في مصر على المرضى .. ابتسم في دهاء غير مبرر .. وطبع قبلتين على وجنتي أمه ، قائلًا في غرور : في الأغلب سوف أعمل معه ..حدسي يقول لي ذلك .

* * *

3
القدر

طوال الليل والليالي التالية ، ظل يوسف يحلم بمشروع طبي استثماري في القاهرة .. مركز أبحاث لعلاج الأمراض الجلدية النادرة ، من خلال مستشفى خاص ، مع الاستعانة ببروفيسور إنجليزي شهير ، هو جورج راندال .. أرباح بالآلاف وشهرة مدوية ... الطريق إلى حلمه يبدو ممهدًا عبر البروفيسور ، الذي اعتبره يوسف هدية السماء إليه ، والمكافأة التي يستحقها على تحمله حضور حفلات الكوكتيل على مدار الشهور الماضية ..! أخرج يوسف الكارت الذي أعطاه إياه البروفيسور جورج .. رفعه قرب عينيه قليلًا ، وكأنه يكشف عن زيف ورقة مالية ..!! قلبه مرة أخرى بأصابعه ، ثم ابتسم الابتسامة الخبيثة ذاتها .. أدار قرص الهاتف ، ووضع السماعة على أذنه ...

جاءه صوت البروفيسور الوقور عبر الأثير مرحبًا :

- لقد تدبرت أمرك بأسرع مما توقعت يا چو .

أجابه يوسف في ثقة رجل الأعمال .. عندما تختمر الصفقة في ذهنه :

- نعم ياسيدي ، وأريد لقاءك في أقرب وقت يناسبك .

- هل تناسبك عطلة نهاية الأسبوع غدًا ؟

- نعم .

- إذًا ألقاك في مطعم جرين هاوس ، بالقرب من الميناء .. فقط اسأل عن الطاولة الخاصة بي عند حضورك .. اللقاء على العشاء في السابعة تمامًا.

أغلق يوسف السماعة في هدوء ، وهو يبتسم ابتسامة النصر ، وكأنما قد وافق البروفيسور جورج على مشروعه .. كان متعجلًا لتحقيق حلمه ، ووجد ضالته في البروفيسور .. ظلت ابتسامته متسعة ، وكأن فكيه مشدودان إلى أذنيه بلاصق شفاف ... وقرر أن يدعو كاترين على العشاء اليوم احتفالًا ببدء تحقيق أحلامه .

شرب كثيرًا في تلك الليلة ، وقال لكاترين كلامًا رومانسيًّا ، لم يستطع بالطبع تذكره في اليوم التالي ، ورقص معها حتى منتصف الليل على أنغام موسيقى كلاسيكية هادئة ، وصحبها في نزهة بالسيارة .. دارا فيها دورة كاملة حول الميناء القديم في ليـڤربول ، اختلس خلالها قبلات كثيرة طويلة من شفتيها الرفيعتين .. ولأنه كان ثملًا بعض الشيء ، فلم يعر اندهاشها من تغير حاله بعد لقاء البروفيسور التفاتًا ، ولم يتوقف عنده كثيرًا ؛ فقد كانت رأسه تدور من نشوة الخمر ، ومن قرب تحقيق أحلامه فلم يشأ أن يفسدها بأسئلة من كاترين.. فقط استمتع بعينيها الزرقاوين.. أجمل ما فيها على الإطلاق .

عندما قص عليها جانبًا من فكرته ومشروعه مع البروفيسور جورج راندال ، لم تكن كاترين على مستوى إحساسه نفسه بالحدث ، وأظهرت له لامبالاة من أعماقها ، وكأن لديها قدرة فائقة على استدعائها ، ربما لرغبتها في الاستقرار بإنجلترا .. فلم تكن تروق لها فكرة الإقامة بمصر ،

واكتفت فقط بابتسامة وتمنيات بحظ سعيد ، وكأنها مضيفة طيران تؤدي روتين عملها بابتسامة متكررة لكل راكب ، ثم تتمنى رحلة سعيدة للجميع ، حسبما تعلمت وفقًا لأصول مهنتها ..!! ومن داخلها كانت تخطط لبقائه بإنجلترا ، حتى لو كان ذلك على حساب طموحه ؛ فقد كانت تشعر أنه ملك لها ، لا يجوز له حتى أن يخطط لنفسه بعيدًا عن عقلها .

تغاضى يوسف عن ذلك كله ، وأرجأ مناقشتها في التفصيلات لحين إتمام صفقته ؛ فقد كانت مهمته سهلة ، فهي تريد المال والوجاهة الاجتماعية ، مثله تمامًا ، أما بقية التفاصيل ، مثل : البقاء في إنجلترا أو العودة إلى مصر ، فليس وقتها الآن ، ولن تشكل عبئًا مع كاترين ، ويمكن مناقشتها في وقت لاحق.. أوصلها إلى منزلها بالرومانسية نفسها ، التي بدأ بها ليلته حيث اختتم سهرته بقبلة طويلة وعناق أطول ، جعله للحظات يفكر في أن يصطحبها إلى أقرب فندق لاستكمال نشوتهما !

في النهاية ، تماسك وعدل عن الفكرة ، بعد أن طلبت منه البقاء في إنجلترا بصورة شبه دائمة ... طلب منها إرجاء الحديث لحين لقاء البروفيسور ، وودعها وعاد إلى بيت والدته ؛ ليستغرق في نوم عميق انتظارًا للقاء الغد المرتقب .

* * *

- البروفيسور جورج راندال ، توجد طاولة باسمه ؟

قبل أن يجيبه النادل ، لمح البروفيسور جورج من بعيد يلوح له .. توجه يوسف إليه.. كان جورج يجلس في أحد أركان المطعم الكلاسيكي الأشهر بليڤربول.. طاولة أعدت بعناية في ركن منزوٍ قليلًا ، بحيث يمنع المتطفلين من سماع الحوار الدائر بين من يجلسون إليها .

كان البروفيسور جورج يشرب كأسًا من النبيذ الأحمر ، يبدو أنه الثاني أو ربما الثالث منذ قدومه جراء تورد وجنتيه .. كان يجلس إلى جواره شاب أنيق ، له شارب رفيع ، يحتل مساحة كخط مستقيم أسفل أنفه ، ولكن بمسافة صغيرة ، مبرومًا عند نهاية طرفيه بعناية .. حياهما يوسف وجلس ، بعد أن طلب له البروفيسور كأسًا من النبيذ ؛ ليشاركهما الشراب ، ثم باغته جورج قائلًا :

- هات ما عندك .

عاد إلى يوسف اضطرابه ، فلم يتوقع هذا الهجوم المفاجئ .. تلعثم قليلًا ثم بدأ يشرح فكرته عن إقامة مستشفى كبير بالقاهرة ، يلحق به مركز للأبحاث في مجال الأمراض الجلدية النادرة تحت رعاية البروفيسور شخصيًّا.. ولكنه لم يجد أي استجابة أو بادرة استحسان لما يقوله على ملامح جورج أو مساعده ، والذي لم يتوقف عن الشراب والتدخين في آن واحد ، حتى عبأ المكان بسحابة دخان كثيفة ، أطبقت على يوسف حتى كاد يختنق .

مع رشفات من كأس النبيذ ، استكمل يوسف حديثه ، وبدأ يحاول إغراء البروفيسور بالمكاسب المادية ، موضحًا أنهم سيستطيعون ببعض الدعاية جذب زبائن من العرب ..رؤساء دول وملوك وأمراء وعائلات عربية ثرية ، ستكون بياناتهم محاطة بسرية كاملة مثلما الحال في أوروبا .. رجع البروفيسور جورج بظهره في مقعده متراخيًا بعض الشيء ، وقد بدا على ملامحه نوع من اللامبالاة .

تجرع يوسف كأس النبيذ الثاني دفعة واحدة ، وألقى بأخر سهم في جعبته :

- يمكننا كذلك إجراء أبحاث طبية على مرضى إفريقيا إن شئت ..

فقد رأى أن يلعب على وتر الأعمال الخيرية والأبحاث العلمية ، محاولًا خداع البروفيسور بأنه يمكن تخصيص جانب من أرباح المركز الطبي ، من عائد علاج الزبائن العرب ؛ للإنفاق على علاج المرضى بالدول الإفريقية الفقيرة ؛ إذ قال :

- فيكون لنا هدف اجتماعي ورسالة كما قلت لي بالحفل .. ما رأيك ؟!

عندما طرح يوسف سؤاله الأخير ، كان يبدو كمن يلهث جراء مجهود شاق .. شعر بأنه بذل جهدًا خرافيًّا للتحكم في أعصابه وانفعالاته ؛ حتى يبدو مقنعًا ، وينجح في إخفاء الجانب التجاري ، الذي يهدف إلى تحقيقه ، مستغلًا اسم البروفيسور راندال من وراء مشاركته .. كان يبدو كالكلب الذي ظل يعدو حتى أمسك بالكرة ، وعاد إلى صاحبه ليضعها بين قدميه لاهثًا منتظرًا مكافأته ، ولو حتى بأن يربت على ظهره برفق !

أخرج البروفيسور جورج سيجارًا طويلًا ضخمًا من جيب سترته ، تفحصه بعناية ، ثم قص طرفه السفلي ، وتذوقه بلسانه ثم أشعل عودًا من الثقاب ، ظل يحرق به الطرف الآخر ، وهو ينقل بصره بين سيجاره ووجه يوسف المفعم بالقلق ، ثم بدأ في إشعال السيجار ، ونفث فيه عدة مرات حتى اطمأن إلى إتمام الاشتعال .... كان العود قد احترق أغلبه ، فصوب البروفيسور عينيه إلى يوسف ، ثم أفلت العود ببطء من بين أصابعه حتى هوى إلى المطفأة التي تتوسط المائدة ، وقد انثنى وانكمش وتصاعد منه خيط رفيع متعرج من الدخان .

قال البروفيسور في هدوء :

- ترى هل يختلف الأمر ، إذا ما استخدمت العود ذاته في إشعال شمعة ؟!

ظهرت ملامح الحيرة على وجه يوسف.. وكأنها طفح جلدي ، أصاب وجهه بالكامل حتى غطاه تمامًا ... فلم يجب .. كان ينظر ببلاهة إلى البروفيسور ، وكأنه يشاهد ساحرًا يؤدي فقرته ببراعة وخفة .. أخرج البروفيسور عودًا آخر من الثقاب ، وأشعل به الشمعة التي استقرت داخل بوتقة زجاجية شفافة على المنضدة فتوهجت .

سحب البروفيسور نفسًا عميقًا من السيجار ، ثم أخرجه بهدوء قائلًا :

- إذا ما وافقتك على فكرتك يا يوسف ، سنكون مثل عود الثقاب الأول سنفعل شيئًا وقتيًّا لأنفسنا ، وسنجني أرباحًا ، ونحقق شهرة ، ثم نحترق في النهاية بعد فترة وجيزة ... ونختفي ، ولن يسمع بنا أحد .

رد يوسف في امتعاض ، فلم يكن متعودًا على أن يعارض أحد آراءه ، ويحطمها من أول جولة :

- العود الثاني مآله إلى الزوال أيضًا يا بروفيسور .. فالشمعة لن تظل مضيئة إلى الأبد .

أجابه البروفيسور :

- ولكنها ستضيء فترة طويلة للآخرين يا يوسف .. وسيتذكرون من أضاءها لهم .. وستترك خلفها أثرًا لن يمحوه الزمن أبدًا .

قالها البروفيسور ، وهو ينظر إلى عيني يوسف بحدة ، فلمس فيهما طلبًا بالاستزادة ، كمن لم يستوعب الفكرة كلها بعد .. فاسترسل في الحديث :

- اسمعني جيدًا يا يوسف .. لقد سألتك في المرة الماضية كيف ترى وظيفتك كطبيب ، هل هي مهنة أم رسالة ؟ وأنت لم تجب حتى الآن عن سؤالي .. إذا كنت تراها مهنة وتجارة ، فسيكون هذا العشاء هو آخر لقاءاتنا المرتبة ، وسنترك الأمر بعد ذلك للمصادفة.. أما إذا كنت ترغب في أن تجعلها رسالة ، فاعتبر اليوم ميلادًا جديدًا لك معي .

أمسك البروفيسور بقنينة النبيذ المخروطية ، وبدأ يصب لنفسه كأسًا رابعة من شرابه المفضل .. بينما أشعل يوسف لنفسه سيجارة ، اختلسها من علبة مساعد البروفيسور ، بغير استئذان ، دون أن تنزل عيناه من على وجه البروفيسور ، وبدا عليه الاهتمام أكثر ، وبدأ يركز بكل حواسه مع الحديث .. حتى مساعد البروفيسور جورج ، توقف عن الشراب ، واعتدل في جلسته منتبهًا .

استرسل البروفيسور جورج قائلًا :

- لقد أخبرتك أنه منذ ثلاثين عامًا ، ونحن نعالج مرض الجذام بعقار دابسون ، وهو ينتشر الآن بإفريقيا بصورة خطيرة تقلقني جدًّا خصوصًا في كينيا ، وأنا أرغب في إجراء المزيد من الأبحاث ؛ للوصول إلى عقار جديد ، لايستطيع الميكروب اللعين أن يكتسب حصانة ضده بسهولة ، أو في وقت قصير .. وإذا ما نجحنا ، سنستطيع تخليص العالم من هذا المرض ، وهي رسالة أريد أن أتمها قبل رحيلي.. كل ما أريده منك أن تخصص لي من وقتك بضعة شهور ، لن تزيد عن تسعة في جميع الأحوال، تذهب فيها إلى إرسالية طبية إلى إحدى دول إفريقيا ؛ لمشاهدة الحالات على الطبيعة ، واستكمال الأبحاث الطبية ، التي بدأها فريقي العلمي في المعامل .. فتخصصك نادر ، وأنت كنت متفوقًا في دراستك طوال العامين الماضيين في ليـڤربول ، وإذا ما أسديت لي هذه الخدمة ، أعدك بأن أحتسب لك مدة تلك الإرسالية ضمن رسالتك العلمية ، باعتباره الجانب العملي فيها ، وسأساعدك في إنهاء الدكتوراه فور عودتك .

ولما لم يكن يوسف قد انفعل بعد بهذا العرض ..ابتسم له البروفيسور ابتسامة خبيثة ، صادرة عن ثعلب عجوز ، وكأنه يلقنه درسًا في المكر والدهاء قائلًا :

- وأعدك أيضًا أنني سوف أفكر بجدية في عرضك ، الذي قدمته لي اليوم ، بشأن مستشفاك في مصر.. مارأيك ؟

لمعت عينا يوسف ، ولكن أسقط في يده تمامًا .. شعر بأنه في مكان آخر .. كأنه نبات انتزع من حديقة ؛ ليزرع في أرض رملية .. فأوشك على الذبول والجفاف.. ماله ومال إفريقيا ومرض الجذام .. الصورة سوداء بالنسبة له ، وهذا المرض مخيف وقاتل ومرضاه فقراء في الأغلب الأعم من الحالات ، إن لم تكن كلها.. وإفريقيا التي يعنيها البروفيسور ، ليست مصر أو حتى بقية الدول العربية ، حتى ولو لم يزرها .. إنما هي بلاد أخرى تمامًا .. غابات وأحراش ورجال عرايا وأطفال ، تكاد عظامهم تفتك بالقليل المتبقي من الجلود الملتصقة بها حتى تخترقها ..! فقر ومرض وعادات غريبة .. بدا الأمر ، بالنسبة له ، أشبه بكابوس كئيب في ليلة مظلمة باردة .

لم يعرف كيف تناول طعامه ، ولا ماذا اختار من أصناف في تلك الليلة .. بل لم يكن قادرًا حتى على تذكر بقية الحديث ، الذي دار أثناء الطعام... حساباته كانت على أساس إنه عشاء عمل ، فانتهى الأمر إلى ما يشبه العشاء الأخير !

ظل على حالة الشرود حتى استلقى على فراشه ، وخيوط الصباح تشق السماء برفق .. بعد أن حمد ربه أن والدته كانت قد خلدت إلى النوم ، وإلا لظلت تستجوبه حتى مطلع الفجر ... حاول كثيرًا أن ينام ، ولكنه فشل ، فاستسلم للأرق ، بعد أن أبت جفونه الاستجابة لنداء عقله المرهق بأن تستريح !!

على مدار شهر كامل ، لم يكن هناك ما يشغل يوسف سوى البحث والقراءة عن مرض الجذام .. لم تكن معلوماته كبيرة عن هذا المرض.. كان يعلم من والده أن في مصر مستعمرة للجذام ، أنشئت منذ نحو نصف قرن أو أقل قليلًا.. تحديدًا في عام 1933 ، بالقرب من محافظة القليوبية ، وعندما كان في إنجلترا في السنة الأولى ، درس عن أنواع الجذام الثلاثة بشيء من التفصيل نوعًا ما ، وكيف يتطور المرض من مجرد بقع ، تخالف لون الجلد الأصلي إلى فقدان الإحساس بالمنطقة المصابة ، حتى لو جرحت جرحًا شديدًا .. وصولًا إلى سقوط بعض الأطراف التالفة بعد تآكلها ، وبالتالي تحدث التشوهات المعروفة التي يخاف الناس من شكلها ؛ فيصبح المريض منبوذًا فضلًا عن الجانب النفسي ، المترتب على عزل المرضى بهذا المرض اللعين ، والذي بات أشبه بعدو هادئ ، يهاجم ويصيب في مقتل في غفلة ، دون أن نشعر به .. ولأنه ينتقل بالعدوى ، فيتم العزل في أماكن نائية ، أطلق عليها اسم مستعمرات ؛ فزاد المسمى من فداحة الشعور بالاكتئاب .

بعد نحو شهرين ، علم من قراءاته أن العلاج الحالي لا يفيد إلا في الحالات البسيطة ، ولكنه لايوقف تطور المرض ، الذي ينتشر في المناطق الاستوائية ؛ خصوصًا قلب إفريقيا ... أدرك لأول مرة مدى نبل البروفيسور جورج وغبائه الشخصي ، عندما حاول إغراءه بمكاسب مادية من وراء مشروعه الاستثماري ، بعد أن شاهد فيلمًا تسجيليًّا عن المرض وتطوره ، أنتجته منظمة الصحة العالمية التابعة للأمم المتحدة عن دور مؤسسة جورج راندال الطبية الخيرية في هذا المضمار .. ومع ذلك ظل الجانب المادي بداخله يسيطر على عقله ، ويتغلب على مشاعره الإنسانية البحتة .

كان يقنع نفسه بأنه لم يتعب ويدرس ويتعلم ، ويأتي إلى هنا ويحلم ؛ حتى يذهب إلى إفريقيا لمعالجة مرضى بمرض نادر ، لن يدفعوا له مليمًا مقابل تشخيصه لمرضهم ، ووصفه الدواء ومباشرته العلاج!

عادت عبارة البروفيسور ترن في أذنيه مهنة أم رسالة؟ ابتسم في استنكار قائلًا لنفسه إذا ما كانت مهنة ، فهل أكون على خطأ ؟! هل يجب أن يكون جميع الأطباء أصحاب رسالة ؟ ما هذا الهراء ..! إن هذا الرجل يلعب بمشاعري ، ويريد أن يستغلني من أجل إتمام أبحاثه ، فليكن .. وسأحصل أنا في المقابل على درجة الدكتوراه ، في وقت أقل ، واستغلال اسم مؤسسته في القاهرة .. صفقة لا بأس بها .. عادت ابتسامته إلى وضع الرضا بدلًا من الاستنكار ، واستقل سيارته الرياضية ، بعد أن كشف سقفها مستمتعًا بنسمة هواء عليل ، في شهر أكتوبر بالقرب من ميناء ليـڤربول .

* * *

- هل تعتقدين أن تغير أحواله في الأسابيع الماضية دليل على اقتناعه بالبقاء في ليـڤربول؟

أجابت كاترين عن سؤال السيدة براون ، وهي تقلم أظافرها بمبرد ذهبي صغير بأحد حوانيت التجميل ، بوسط ليـڤربول :

- نعم أعتقد أن البروفيسور أقنعه بأنه لا فائدة من البقاء في مصر والعمل فيها .. هنا سيجني الأموال أيضًا ، ويحقق الشهرة التي يصبو إليها ، وسيعتمد عليه البروفيسور بشكل كبير ورئيسي ، وقد يصبح نائبًا له في إدارة المؤسسة الطبية التي يديرها .. أنا شخصيًّا لا يوجد عندي أدنى استعداد للعيش في بلد مثل مصر .. أريد أن أبقى هنا أو في لندن .. وأعتقد أنني وأنت والبروفيسور قادرون على إقناع يوسف بذلك.. وفي النهاية سيرضخ ..لابد أن يرضخ ..

رددتها بنبرة لا تخلو من تحدٍّ وكأنه أمامها !

قالت السيدة براون ، وملامح الشك تكاد تقفز من عينيها :

- المشكلة أن يوسف عنيد طوال عمره ، طموحه وأحلامه لاتجعله يرى إلَّا نفسه ، ولا أعتقد أنه سيقتنع بسهولة ، بل سيقاتل حتى النهاية ، حتى ولو تظاهر بالقبول أو الخضوع في البداية .. لابد أنها مناورة منه ، ثم يفاجئنا بموقف مغاير تمامًا لما نتوقعه كالمعتاد .. هل تحدثتِ معه في أية تفصيلات ؟

- لم يتحدث معي في تفصيلات كثيرة ، ولكنني قابلت مساعد راندال منذ عدة أيام ، وطمأنني على چو ، وعلمت منه أنه مشغول للغاية ، ويقضي يوميًّا أكثر من عشر ساعات أو يزيد بمؤسسة جورج راندال في القراءة والاطلاع ؛ لاستكمال أبحاث رسالته العلمية قبل سفره إلى كينيا..طالما يعمل هنا فلا داعي للقلق .. المهم أن يبقى .

وكأن كاترين قد صبت ماءً باردًا مثلَّجًا ، دون أن تدري على رأس السيدة براون في عز الشتاء ، فانتفضت وهي في حالة ذهول مشوب بغضب ، بدأ يستعر في عينيها ويستولي على قسمات وجهها ، مرددة في دهشة بالغة :

- كينيا .. كينيا ما هذا الذي تقولينه ؟!

أخبرتها كاترين باقتضاب في حدود معلوماتها عن أمر الإرسالية ، التي لن تستغرق إلَّا بضعة شهور إلى كينيا ، كجانب عملي من الرسالة العلمية عن مرض الجذام ، فلم تكن تهتم بهذا الجانب من حياته .

تهاوت السيدة براون مرة أخرى على مقعدها ، وكأنها بناء ينهار فجأة ، وشعرت بأنها باتت فاقدة النطق .. فظلت محملقة في وجه كاترين في ذهول ثم تمتمت : كان الشك يساورني وقلقي يزيد ، والآن فهمت لماذا كان البروفيسور لا يقدم لي جوابًا شافيًا عما دار بينه وبين يوسف من حديث .

* * *

4
الخطوة الأولى

ارتج يوسف في مقعده بمكتبة مؤسسة جورج راندال الطبية الخيرية ، عندما ربت البروفيسور على كتفه ؛ فقد كان مستغرقًا تمامًا في القراءة ، وبسبب قلة ساعات نومه فقد كان يجزع من أي حركة مفاجئة .. التفت إلى البروفيسور بعينين حمراوين ، لم تذوقا طعم النوم منذ أيام بصورة كافية ، وقال بصوت مجهد : هناك ملايين مصابون بهذا المرض في إفريقيا ، ويعيشون في تعاسة وآلام رهيبة ... حتى منظمة الصحة العالمية باتت عاجزة عن إيجاد عقار شافٍ تمامًا لهذا المرض.. أنا لا أرغب في الاستمرار في هذا البحث ، وأريد العودة إلى استكمال بحثي الآخر ، أشعر أنني سأكون كمن يحرث في بحر !

- اتبعني إلى المعمل .

قالها جورج وهو يسير في هدوء ، دون أن يكترث بما قاله يوسف .. مضى يوسف خلفه كمن يسير وهو نائم.. ذهنه وأفكاره ووجدانه أصبحت أسيرة التوصل لحجة ، تعينه على الخروج من هذه الورطة ؛ فهو يستطيع استكمال رسالته بعيدًا عن البروفيسور ، ولكن في الوقت نفسه ، كان طمعه يدفعه للبقاء بجواره ؛ ليستفيد منه في مشروعه الاستثماري بالقاهرة .. عند عودته ، شعر بأن الله قد وضع جورج راندال في طريقه تلك الليلة التي التقاه فيها لأول مرة ؛ ليكون نقطة تحول فارقة في مسار حياته إلى تحقيق حلمه ، والآن بات سبب تعاسته وإحباطه .

وقف جورج راندال في وسط معمله ، وحوله فريق البحث العلمي للمؤسسة .. بينما وقف يوسف على مقربة منهم ، وكأنه تلميذ جديد في فصل دراسي ، أتى بعد بدء الدراسة ؛ فظلت هناك مسافة بينه وبين زملائه .. قدمه البروفيسور لأعضاء الفريق بأنه الأمل الجديد .. كانت العبارة لها وقع رائع على أذن يوسف ومعنوياته ؛ مما زاده ثقة في نفسه ، ووجد قدميه تقتربان أكثر من الحلقة المحيطة بالبروفيسور ، الذي قدمهم له واحدًا تلو الآخر .

وعندما انتهى استدار حيث يوجد جهاز مونيتور صغير على منضدة خشبية ، طلب من أحد مساعديه إطفاء نور المعمل وأدار المونيتور ؛ حيث شاهدوا جميعًا لقطات لمرضى الجذام في نيروبي .. كينيا ... أطفال صغار وسيدات وعجائز ، ينتشر المرض في أنحاء متفرقة من أجسادهم ، ثم انتقلت الصور إلى إحصائيات مفزعة عن مدى توغل الجذام في عمق القارة السمراء .. استمرت اللقطات تعرض بعد ذلك محاولات التوصل لعقار ناجع دون جدوى ... لا شيء سوى الإخفاق .

عندما أضاء البروفيسور نور حجرة المعمل مرة أخرى ، كانت عينا يوسف قد انتقلت عفويًّا نحو نهدي إحدى مساعدات البروفيسور ، واللذين كانا يطلان على استحياء من بين طيات معطف أبيض أنيق ، محاولًا الخروج من حالة الإحباط ، التي صاحبته منذ بداية الفيلم التسجيلي واللقطات المصورة عن المرض في أحراش كينيا.

ربت البروفيسور على كتفه برفق ، فشعر بخجل وابتسم في بلاهة ... بدأ البروفيسور يشرح له فكرته بأن دواء دابسون كان يستطيع إيقاف مرض الجذام .. لكن فترة العلاج تستغرق سنوات

طويلة أحيانًا تمتد لعمر المريض نفسه ؛ فكان من الصعب ، بل أحيانًا من المستحيل ، على المريض متابعة العلاج .. ومنذ عشر سنوات ، وتحديدًا في منتصف الستينيات ، بدأ ميكروب المرض يقاوم عقار دابسون .. والتحدي الآن أن نتوصل إلى معالجة متعددة للدواء ؛ للقضاء على فترة تحور الميكروب لنضمن شفاء المريض في فترة وجيزة ، وبدأ يشرح تفصيلات التجارب التي تمت في العامين الأخيرين ، والتي قام بها بمعاونة فريقه .. كان يوسف يحاول أن يركز بكل حواسه ؛ حتى لا يخسر تعاطف وحماسة البروفيسور له ، وهو يستمع لمحاولاته الجادة في التوصل للعقار الجديد .. ولكن الأمر لم يكن سهلًا ، ويحتاج لتجارب عديدة ، والمنطقة الأكثر إصابة في نيروبي لايتعامل سكانها مع الأجانب بود أو تعاون ؛ جراء استعمار إنجليزي ، أنهكهم لسنوات طويلة حتى نالوا استقلالهم منذ نحو عشر سنوات .

وضع البروفيسور يديه على منضدة طويلة أمامه ، وأحنى ظهره قليلًا ، فبدا كزعيم ثوري يتفق مع رجاله على عملية من عمليات مقاومة الاحتلال ، ثم قال :

- لابد وأن نطمئنهم، نعيش معهم، نعمل على شفائهم.. نشعرهم بالأمل .. نعيد إلى وجوههم السمراء البسمة التي افتقدوها كثيرًا .. يجب أن نغير نظرتهم إلينا ، ونصلح ما أفسدته السياسة الاستعمارية، لن ننجح في الاقتراب منهم ، إلَّا من خلال عمل إنسانى.. وهم لن يشعروا بنا ، إلَّا من خلال العمل الإنساني ذاته ...

ثم اعتدل في وقفته ملقيًا السؤال ، الذي كان له وقع القنبلة على أذني يوسف :

- متى تستطيع أن تسافر يا يوسف ؟!!

عندما خرج يوسف من المؤسسة في ذلك اليوم ، لم يستطع التفكير في أي شيء بعد سؤال جورج راندال ، الذي اختتم به حديثه .. ورغم أنه كان سؤالًا متوقعا ، وأن الأمور ستسير في هذا الاتجاه .. فإنه مع ذلك أحس بأن تفكيره قد شلَّ تمامًا ، وبدأ يشعر أنه في مفترق طرق ، وعليه أن يختار بين أن يستمر في دراسته في ليڤربول ثم يعود إلى مصر ، أو أن يخطو أولى خطواته نحو عالم مجهول على الأقل بالنسبة له مؤجلًا طموحاته لفترة ، وكأنها فترة بينية ... إذ ربما ينجح في الاستفادة من قربه من البروفيسور راندال !

-هل تعتقد أنه يصلح لهذه المهمة ؟! يبدو لي مجرد شخص عابث ومادي نوعًا ما ، وإن كان شديد الذكاء ، ولديه قدرة على الاستيعاب والتحصيل في وقت قصير للغاية !

تأمل البروفيسور وجه مساعده برهة ، ثم قال :

- أتمنى ذلك .. فهذا الفتى عنيد ويكره القيود ، حسبما أخبرتني والدته ، ولكن فيه شيئًا غامضًا ، لديه لمعة في عينيه تشعر معها بأنه يريد أن يحقق ذاته في أمر ما .. لكنه لا يعرفه حتى الآن ..! لديه بركان خفي يموج بداخله ويستعد للفوران ، ولكنه لم يكتمل بعد ..دائمًا ما يخفت بركانه قبل لحظة الفوران ، وكأن أوانه لم يحن ! كما أن تخصصه النادر في الأمراض الجلدية وتفوقه ونبوغه في دراسته في مصر ، ثم هنا ، وقدرته على التحصيل وذكاءه المتقد ، حسبما لاحظت أنت ، يوحيان لي بأنني أحسنت اختياره .. وأبحاثه عن تطوير الميكروب تقارب أبحاثنا على الأقل .. سوف تلقى محاولتنا قدرًا من النجاح ، وإن كان تحقيقه بالكامل يبدو مستحيلًا ، ولكننا

على الأقل سوف ننال شرف المحاولة .. دعنا ننتظر ونترقب النتائج .... أنت لاتدري أبدًا ما قد يحدث غدًا !

* * *

طالما راودت يوسف فكرة أن يسير مع حبيبته بالقرب من ميناء ليـڤربول ، فمنذ أن كان شابًّا ويأتي بصحبة والديه إلى إنجلترا ، وهو يعشق التجول قرب الميناء ومشاهدة السفن ، ولم يدر بخلده أبدًا إن إحداها قد تنقله إلى مستقبل مجهول يومًا ما !

جلس على ضفاف نهر ميرسي ، يتأمل برجي قصر ليـ□ي الملكي المتشابهين تمامًا ، ويتوج كل منهما بتمثال لطائر خرافي ضخم ، يبدو وكأنه آتٍ من إحدى الأساطير القديمة .

- إنك لم تتحدث منذ أن حضرنا إلى هنا ياچو ؟

نظر في وجه كاترين محملقًا بشدة .. شعر بأنه لايراها مع أنهما يجلسان متلاصقين .. لم يشعر بدفء جسدها ، حتى بعد أن مالت به قليلًا لتستقر بين ذراعيه، طوقها ببطء وكأنه لايرغب في ذلك ، فبدا كموظف يؤدي روتينًا ، لا فنانًا يبدع ويجود.. لم يقو على أن يحتويها تلك المرة .. بعد برهة أعادها لوضعها السابق برفق .

نظرت إليه بعينين يطل منهما الاستفسار عن سبب لفظها .. تعلل بأن لديه حساسية من عطرها.. أجابته بأنها لم تغيره ..عاد يتحجج بأنها ربما سكبت الكثير منه اليوم.. قفز إلى ذهنه السؤال مرة أخرى ، هل يحبها أم أنه يريدها لاستكمال طموحه ؟! لم يجد إجابة ؛ فهو لم يكن يفكر في ذلك على الإطلاق من قبل... ثم ما قيمة هذا الأمر بالنسبة لطموحه .. فلن يتغير شيء ، ولن يوقفه شيء عن استكمال مسيرته التي يخطط لها .

ظل يتأملها في شرود ثم اقترب منها لتقبيلها ؛ لعله يخرج نفسه من تلك الحالة الغريبة التي انتابته ، إلا أن كاترين لم يكن لديها صبر على كتمان أحاسيسها المتقلبة ؛ فدارت نصف دورة بجذعها ، حتى تدلت قدماها من ناحية الطريق الملاصق لسور الميناء الرخامي ، ثم قفزت برشاقة قائلة بلهجة لا تخلو من عصبية ظاهرة :

- لقد سئمت منظر السفن والميناء ، فلنذهب إلى مكان آخر .

تحرك يوسف ببطء بدا متثاقلًا .. أمسك بيدها الرقيقة الصغيرة ؛ فشعر بدفء ملمسها ، عندما ضغطت على يديه برفق وظلت برهة هكذا ، وكأنها تنبهه لمشاعرها وأنها تريده بجوارها ، أو ربما تبعث إليه برسالة بأنها ستفتقده إذا ما سافر إلى كينيا.. أعادت إليه تلك اللمسة بعضًا من توازنه ، وإن كانت لم تملأ وجدانه بالقدر الذي يرضيه ، فهو دائمًا ينتظر منها المزيد ، ويشعر بأن لديه مشاعر مكبوتة لا تخرج ، وأحيانا يشعر أنه لا يستطيع إظهارها لكاترين ، ولا يعرف لذلك سببًا.. وإن كان هذا الشعور يبدو كوميض ، سرعان ما يختفي من ذهنه فلا يتوقف عنده أبدًا.

قبلة طويلة.. وعيون متحجرة ووجه جامد ، لا يعكس إلَّا مشاعر من طرف واحد .. هي كاترين ، بعد أن أخبرها بأنه سيرحل غدًا إلى نيروبي ... وفي المقابل ، ذهن شارد من يوسف فيما ينتظره من مجهول ، فقد كان يشعر بأنه كمن يقفز من عل في ظلام حالك .. قرر بعد تفكير شبه مضطرب أن يخوض التجربة، وأقنع نفسه في النهاية بأنه لن يضيره شيء .. غيابه تسعة أشهر سوف يمر بسرعة ، وسوف يحتسب أيضًا من فترة دراسته ، وإن لم يرق له الأمر .. لن يخسر

شيئًا لأنه سيعود إلى ليڤربول ، وسيكفيه وقتها شرف المحاولة .. ولن يفكر مرة ثانية أن المهنة رسالة .

قال لنفسه : أنا لست رسولًا لإنقاذ الإنسانية المعذبة .. سأحاول ، وبشرف ، وإن فشلت فهذا قدري .. سوف أعود لطموحي وتحقيق أحلامي الشخصية ، ووقتها سأكون قد عرفت أنني الشخص غير المناسب لهذه المهمة .

مضى بسيارته تاركًا كاترين أمام مدخل بيتها ، ثم نظر إلى مرآة السيارة الجانبية اليسرى .. كانت لا تزال تلوح بيدها اليمنى ، وكأنها آلة أصابها العطب .. ظل يتابعها حتى اختفت تمامًا .

* * *

- أنت خدعتني .. هذا لم يكن اتفاقنا .. لقد طلبت منك أن تقنعه بالبقاء في إنجلترا ... أن يعمل هنا ، لا أن يبعد عني إلى بلد لا أعلم عنه شيئًا ، بل لا أعرف حتى كيف أتصل به.. وأين؟! في مجاهل إفريقيا .. هل جننت يا جورج ؟ هل هذا ما طلبته منك منذ شهور ، عندما رتبت لقاءك به في الحفل ، وطلبت منك مساعدته في رسالته العلمية ؟! أنا لا أريد تكرار تجربة أبيه ، عندما أمضى ثلاث سنوات في جنوب السودان !!

ظل البروفيسور جورج يمضغ طعامه ببطء ، دون أن يعلق على حديثها .. تركها تنفث عما في نفسها من غضب ، ولكن السيدة براون استمرت تصرخ في وجهه وتوبخه حتى انتهى تمامًا من تنظيف يديه بمنديل أبيض كبير ، ودفعه إلى الطاولة بعنف قائلًا :

- لم أخدعك ولم أعدك بشيء ثم أخلفت وعدي .. بل بالعكس لقد أسديت لك خدمة لن تنسيها، لقد ساعدته في أن يثور على نفسه ، وأن يحاول إخراج أحسن ما فيه .. أن يتمرد على طموحه الشخصي ، وعلى أنانيته وحبه لذاته ... أن يفهم قيمة ورقي مهنته ... أن تكون له رسالة وهدف سامٍ في الحياة .

ثم هب واقفًا بسرعة وتركها وانصرف .

ظلت السيدة براون فاغرة فاها من الدهشة ، بينما لم تغب ملامح الغضب عن عينيها ، حتى غاب البروفيسور جورج عن نظرها وراء الأشجار الضخمة ، التي تحيط بحديقة منزلها .

* * *

- لا يا يوسف .. هذا ليس مكانك ولا طموحك .. أنت تمر بنزوة .. تحدٍّ غير حقيقي ، أوهمت نفسك به.. ورسخه جورج بداخلك أكثر .. إن جورج يبحث عن شهرته .. عن مجده ... عن الارتقاء بمؤسسته ، وفي سبيل ذلك سيستغلك لحساب تحقيق مجده .. أما أنت فلن يتذكرك أحد، ستفقد كل شيء من أجل أناس لا تعرفهم ، وقد لا تراهم مرة ثانية طوال حياتك .. وربما لن تنجح في شفائهم.. أنا أعلم جيدًا يا بني بما يدور برأس هذا العجوز الإنجليزي .

يوسف : نعم أنا أعلم ذلك ، ولكنني لا أستطيع التراجع الآن، لقد حسبتها جيدًا ، لا تقلقي يا أمي .. وإذا كان هو سيستفيد من وجودي هناك ، فأنا أيضًا سأستفيد حصولي على الدرجة العلمية ، التي حلمت بها في وقت قياسي ومشاركة استثمارية ستدر عليَّ أرباحًا خيالية. إن وضع اسمه وحده على أي مؤسسة طبية كافٍ لضمان زبائن بالمئات ، دون أدنى مجهود.

لم تقتنع، كان يساورها إحساس بأن هناك أمرًا ما لا تعرفه ، يجعل صدرها يضيق، شعور أشبه بمن ستفقد ولدها الوحيد ولكنها لا تعرف لماذا ، أو من أين يأتيها هذا الهاجس الغريب ؟ أشاحت السيدة براون بيدها غاضبة ، وتركته ودفعت باب حجرتها بشدة ، بينما انهمك هو في إعداد حقيبة سفره الضخمة ، التي تتسع لثلاثة رجال متراصين إلى جوار بعضهم ، في وقت واحد ، إذا ما كانوا ممددين فيها ، استعدادًا للسفر غدًا إلى نيروبي ، حسبما أخبره جورج راندال .

كان يوسف واقفًا بالقرب من مقدمة السفينة ، التي استقلها من ميناء ليـڤربول ، ورذاذ الماء ونسمات الهواء يلفحان وجهه فيشعر بالانتعاش .. بينما الحوار الذي دار بينه وبين السيدة براون لايغيب بتفاصيله عن ذاكرته ، حتى مشهد وداعه مع كاترين على رصيف الميناء اليوم ، ووعده لها بالعودة بعد ثلاثة أشهر فقط لإعلان خطبتهما .

أوشك أن يشعر باستقرار نفسي ، كاد أن يدركه ويتلمس تفاصيله ، بعد أن ابتعد عنه كثيرًا منذ التقى بجورج راندال ، فتحول إحساسه بالتحليق وقتها إلى سراب .. أصبح كمن كان يطبق بيديه على قطرات ماء ، سرعان ما تسربت من بين أصابعه .. لا يمكن أن يشعر الطائر بمتعة تحليقه في الفضاء ، إذا ما كانت اليابسة قريبة منه .... فترت حماسته قليلًا مثلما اشتعلت من قبل سريعًا ... الآن أصبح مستقرًا نفسيًّا نوعًا ما، شهور بسيطة ستمر ، وسيعود بحال أفضل ؛ ليحقق أفضل أحلامه وطموحاته ، وهو سيكون في موقف مفاوض قوي ، بعد أن يقدم مساعدة لجورج راندال لم يجدها لدى غيره .

أغمض عينيه مرتاحًا لهذا التفسير ، الذي انتهى إليه ، واستسلم لصعود وهبوط مقدمة السفينة برفق على سطح البحر ، وهي تشق صفحته ، بلا هوادة ، بعد أن أطلقت لسرعتها العنان عقب عبورها المياه الإقليمية لإنجلترا ، متجهة لميناء مومباسا في كينيا... رحلة يقوم بها إلى المجهول لأول مرة في حياته ، التي اعتاد دائمًا أن يخطط لها بكل دقة ، وكأنه كان يقرأها من كتاب مفتوح ، ولكنه الآن لا يعلم إذا كان سيشاهد ليـڤربول مرة أخرى أم لا .... التفت خلفه عندما قفزت تلك العبارة إلى ذهنه ، فلم ير إلَّا بحرًا بلا نهاية .

* * *

5
السفينـة

كانت جلسة يوسف المفضلة على سطح السفينة ، بالقرب من الحانة ، يتناول مشروبه المفضل فودكا مخلوطة بالمارتيني ، تطفو فوقها ثلاثة مكعبات صغيرة لامعة من الثلج بهدوء وتذوب ببطء .. دقات قلبه ترتفع مع صعود وهبوط السفينة ، وهي تتهادى على مياه المحيط العميقة الداكنة .. كان يريد لرحلته أن تنتهي ، وكأنه يتعجل نهايتها .. وباتت دقات قلبه مسموعة ترن في أذنيه وتهز وجدانه ، كأنها دقات ساعة الملل ؛ حتى يحين موعد العودة إلى ليـڤربول ، رغم أن الرحلة لم تبدأ بعد !!

كانت هي المرة الأولى بالنسبة ليوسف التي يسافر فيها بالباخرة ...اعتاد الطائرة في رحلاته .. ورغم أن البروفيسور جورج قد أخبره أنه يمكنه السفر بالطائرة إلى نيروبي من لندن ، فإنه فضل قضاء أيام طويلة على متن سفينة ، وكأنه يهرب من مستقبل مجهول ينتظره .. يحاول تأجيل قدره قدر الممكن ..! رأى في السفينة وسيلة لإنقاص المدة ؛ حتى ولو كانت أيامًا لا تذكر ، إذا ما قورنت بشهور سوف يقضيها هناك .. ومع ذلك أقدم على تلك الخطوة دون تفكير !

لم تكن الرحلة مثيرة ، ولم يكن يتوقعها كذلك ..شروده كاد يقضي على ما تبقى له من إحساس يتمتع به في كل لحظة في حياته مثلما يفعل دومًا .. أصبح كسولًا ينتقل من قمرته إلى غرفة الطعام ، ومنها إلى السطح لتناول مشروبه ، وقراءة بعض الكتب لقتل الوقت ، وأحيانا يذهب إلى حوض السباحة البيضاوي بالطابق الأرضي .

سمع صوت جرس يدق على مرات متتابعة تفصل بينها ثوان معدودة ، وهو مستلقٍ على أريكة خشبية ، مستمتعًا بأشعة الشمس الدافئة مرتديًا ملابس خفيفة .. سروالًا قطنيًّا قصيرًا أزرق اللون ، وقميصًا من الكتان الأبيض ، وقبعته البيضاء التي يفضلها ويعتني باقتنائها أكثر من أي قبعة أخرى ، بعد أن ورثها عن والده ، وكان يضع نظارة شمسية ضخمة تغطي وجهه .. التفت خلفه ، فوجد شخصًا يرتدي زي البحارة الأزرق والأبيض التقليدي الشهير ، يهز جرسًا ذهبيًّا متوسط الحجم ، وبيده الأخرى عصا خشبية طويلة داكنة اللون ، مثبتًا في نهايتها لوحة بيضاء ، عليها الأحرف الأولى من اسمه ثم لقبه .. ى.ك. نجيب.. رفع يده عاليًا .. أتى إليه البحار ، بعد أن أخفى الجرس الذهبي خلف ظهره ، وخفَّض اللوحة إلى مستوى أدنى من ركبتيه تأدبًا .. وانحنى في أدب جم ، وسلمه مظروفًا مغلقًا ، ثم اختفى من أمامه .

تفحص يوسف المظروف ، ثم فتحه ببطء ؛ فلم تكن لديه قدرة حتى على التوقع أو التخمين ، وقرأ عبارة من سطر واحد «يسعدني أن تكون ضيف الشرف الليلة على مائدتي .. قبطان أعالي البحار ... آندي روك» .

في المساء ، وقف أمام المرآة في قمرته يتابع اللمسات الأخيرة لردائه، يضبط وضعية المنباخ الأسود حول عنقه ، ويتأكد من استقامته أفقيًّا ككفتي ميزان مضبوطتين تمامًا .. يشد سترته السوداء إلى أسفل.. يلتفت نصف التفاتة ليرى خلفيتها ، ثم يضع أصابعه في فروة رأسه وكأنه

يصففه مثلما اعتاد أن يفعل ... وضع قليلًا من العطر الذي أهدته إليه كاترين ... ابتسم وهو ممسك بزجاجة العطر .. كم يفتقد عينيها الجميلتين الآن..ثم تمتم في برود : فقط عينيها .

أغلق باب قمرته وتوجه إلى الصالة الرئيسية، كان جميع ركاب السفينة موجودين تقريبًا في هذا الحفل .. اقترب من رجل وامرأة ، غاية في الأناقة والوسامة والرشاقة أيضًا ، وأخبرهما باسمه ؛ فوجد ترحيبًا من المرأة وابتسامة واسعة أضفت إليها إشراقة .. جعلته يتمنى لو كانت هي من ستمضي معه السهرة ، بدلًا من قبطان السفينة وضيوفه .. سار خلفها وهو يتأمل تفاصيل جسدها المتناسق ، وبالطبع كانت عيناه تصعدان ، ثم سرعان ما تهبطان ثانية لتأمل المساحة الأكبر من ساقيها ، من خلال فتحة طويلة في تنورتها السوداء الملتصقة بهما ، وكأنها جزء من جسدها !!

مائدة مستديرة تتسع لتسعة أشخاص تتوسط الجانب الأيسر من القاعة، بالقرب من مسرح صغير ، ينتظر وصول فرقة موسيقية من ثلاثة أو أربعة أفراد ، إذا ما كان بينهم مطرب من خلال آلات ، رصت بعناية ، ووضع أمام اثنتين منها نوتة موسيقية كبيرة الحجم نوعًا ما .

- اسمي آندي روك قبطان أعالي البحار وقائد السفينة، تشرفنا يادكتور نجيب .

ابتسم يوسف مصافحًا القبطان :

-اسمي يوسف .. يوسف نجيب ، يسعدني لقاؤك .

كانت جلسته بجانب القبطان ، الذي بادر على الفور بتقديمه إلى الحضور .. امراة بدينة جدًّا ترتدي قبعة حمراء فاقعة ، ولها صدر ضخم يبرز من فستانها الأسود ، وكأنه يريد الفرار .. هي السيدة روز.. وبجوارها زوجها السيد دانيال طبيب أسنان ، يعمل في نيروبي ، وعائد بعد إجازة سنوية في ليڤربول .

السيد سكورت في منتصف الأربعينيات من عمره .. بدين .. متورد الوجه .. يعمل مديرًا لفندق ماي فيركورت بنيروبي .. ابتسم سكورت ابتسامة ترحيب واسعة ليوسف ، رافعًا قبعته قليلًا ، مصافحًا إياه بحرارة ، وكأنه يعرفه منذ زمن بعيد.. مما جعل يوسف يشعر بألفة سريعة تجاهه ، ويسعد جدًّا بأنه يجلس إلى جواره .

نيفيل براندو .. رجل أعمال .قالها نيفيل باقتضاب ، وهو يقدم نفسه قبل أن يقوم القبطان بذلك.. كان رجلًا في الستين من عمره أو يزيد قليلًا .. نحيف الجسم طويل القامة.. ترك الزمن على وجهه علامات كثيرة .. تجاعيد وهالات سوداء تحت عينيه ، وندبة أسفل عينه اليسرى تكاد تقترب من وجنته إلا قليلًا، عيناه غائرتان ، وكأنهما محفورتان داخل وجهه وأنفه مدبب .. يرتدي خاتمًا ضخمًا به حجر من الزمرد ، يحركه بصورة لاتخطؤها العين ، وكأنه يتعمد أن يقع بصر محدثه عليه .. حياه يوسف باقتضاب مماثل ، مستدعيًا كل ماورثه من برود إنجليزي أصيل عن والدته .

قدم القبطان الثلاثة الآخرين في عجالة ، وكأنهم نجوم الصف الثاني .. فلم يلقوا الاهتمام نفسه ، سواء من يوسف أو من القبطان نفسه ، الذي قال : راؤول مطربنا الليلة مكسيكي ، يعيش في نيروبي ، ويقدم فقرة يومية .. موسيقى ورقص بفندق ماي فيركورت ، وخطيبته ريتا راقصة باليه سابقة وراقصة ملهى ليلي حاليًا .. كانت رغم بدانتها الظاهرة عقب اعتزالها رقص الباليه ذات أنوثة واضحة .. إلا أنها لم تلفت انتباهه كثيرًا .

الأخير كان رود فيليب ماك ، سكرتير ثان بالسفارة الإنجليزية بنيروبي ، متوجهًا لتسلم عمله الجديد في نيروبي . رحب الدبلوماسي الشاب بيوسف بعبارات مجاملة رقيقة ، بلا روح كعادة موظفي الخارجية ، ولم يفته بالطبع وضع ابتسامة زائفة على شفتيه ، أشبه بابتسامة نجوم السينما حين يصادفون من يرغبون في التقاط الصور معهم ، والتي سرعان ما تتلاشى وكأنها لم تكن .

قدمه القبطان باعتباره طبيبًا إنجليزيًّا يقوم بأبحاث علمية عن مرض الجذام في إفريقيا ، ويعمل لصالح مؤسسة جورج راندال الخيرية، كان التقديم رائعًا بالطبع ، انتزع به نظرات الإعجاب ، وبعض أصوات مكتومة من الصدور تنفرج لها الشفاه أحيانا .. ولكنها لا تعني سوى استحسان ما يقوم به هذا الطبيب الشاب من عمل.

رشف يوسف بعضًا من كأس النبيذ ، الذي قدمه له القبطان ، بعد أن تبادل الأنخاب مع الحاضرين ، ثم قال في صوتٍ رخيم :

- في الحقيقة أود أن أصحح معلومة صغيرة لمضيفي الليلة : أنا مصري أيضًا .

عادت نظرات الإعجاب للظهور مرةً أخرى من السيدة البدينة وزوجها دانيال ، واقترح سكورت على الفور أن يشربوا نخبًا آخر تحيةً لمصر ، وصفقت ريتا كفتاة مراهقة ، معلنةً أنها زارت مصر منذ ثلاثة أعوام حيث قدمت حفلًا في دار الأوبرا ، وكان ذلك آخر عهدها برقص الباليه .. بينما ظل السيد نيفيل يتأمل يوسف بنظراته الثاقبة ، وكأنه يفحص عبدًا في سوق النخاسة ، فبدا فظًّا مقززًا وهو يعبث بشاربه الأبيض ، في هدوء ، مبرزًا خاتمه الضخم الذي يحتل مساحة كبيرة من خنصره .. لم يستطع يوسف أن يمنع نفسه من تخيله كرجل من رجال عصابات فترة الأربعينيات في الأفلام الأمريكية ، منذ الدقيقة الأولى ، التي وقعت فيها عيناه عليه.

بدت الدهشة على وجه القبطان ، وهو يقول:

- لم أكن أعرف أنك مصري .. لقد أوصاني البروفيسور جورج أن أهتم بك ، وأخبرني بمهمتك النبيلة ، وكنت أظن أنك إنجليزيّ ، كما أن لهجتك تبدو كذلك أيضًا !

- أنا أمتلك أسهمًا بنسبة 50 % في إنجلترا !!

سادت فترة صمت قصيرة مغلفة بالدهشة عقب عبارة يوسف ، والذي تركهم لاندهاشهم ؛ حتى يرتشف قليلًا من النبيذ الذي استحسن مذاقه .. ثم وضع كأسه ببرود مستمتعًا باندهاشهم ، الذي كاد يستغرقهم قائلًا :

- إن أمي إنجليزية من ليڤربول ..أنا مصري الميلاد والأب ، وأحمل الجنسية الإنجليزية عن والدتي السيدة براون .

تعالت الضحكات .. وبالطبع اقترح سكورت نخبًا ثالثًا لصالح السيدة براون .

انسجم سكورت مع يوسف كثيرًا، كانا يبدوان بالفعل كصديقين قديمين ، رغم أن سكورت قارب الخمسين من عمره .. فإنه كان يحمل بين ضلوعه قلب شاب مقبل على الدنيا بنهم، يشرب كثيرًا ويرقص ويغني أحيانًا ، وعندما أدت ريتا وراؤول فقرتهما الغنائية .. لم يترك الميكروفون إلا قسرًا ، وطوال الليلة لم يكف عن إلقاء النكات ، فإذا ما كانت خارجة بعض الشيء ، اكتفى بإلقائها على مسامع يوسف وحده .

لم يعكر صفو يوسف تلك الليلة سوى نظرات السيد نيفيل ، والذي كان يبدو وكأنه يراقبه ، ويعد عليه أنفاسه وحركاته بنظرات حادة ، وبعينين انتزعت منهما الرحمة والشفقة ، وكأنه قاتل مأجور بلا مشاعر ولا أحاسيس .

كانت سهرة رائعة بحق .. ضحك فيها يوسف كثيرًا ، وشعر أنه نسي ليـڤربول وكاترين وكينيا والبروفيسور جورج والسيدة براون !

كان يشعر ، وكأنه خارج إطار الصورة الحقيقية لحياته .. كأنه يحلم بأناس لا يعرفهم ، ولم يلتق بهم من قبل ، أمضى بضع ساعات نسي فيها كل همومه ، كانت أشبه بمسكن قوي لآلام عميقة بداخله ، ونجحت في إخمادها ولو إلى حين .. ترك نفسه ليستولي عليها هذا الإحساس بالكامل ؛ فقد كان في أمس الحاجة إلى الخروج من المزاج المنحرف ، الذي بات رفيقه ، منذ أن وطأت قدماه السفينة ، وكأنه ذاهب للقاء حتفه !

في طريق عودته إلى القمرة بعد انتهاء الحفل الصاخب، مال سكورت على أذنه قائلًا :

- هل أخبرت ريتا أن قمرتك تحمل رقم 33 كما اتفقنا ؟! أجابه يوسف ، وهو شبه ثمل جراء إفراطه في شرب النبيذ :

- نعم ولكن لماذا طلبت مني ذلك ؟! فأنا أقيم في رقم 44!!

أغمض سكورت إحدى عينيه ليبدو ماكرًا ، ثم أعاد قبعته للوراء قليلًا ، فظهرت أولى بوادر صلعته الواسعة قائلًا :

- إنها قمرتي أنا .

رد يوسف بنصف ابتسامة : وماذا عن دانيال ؟ !

كانا قد وصلا إلى قمرة سكورت الذي أدار مفتاحه في بابها ، مستعينًا بكلتا يديه قائلًا ، وهو يضحك ملء شدقيه :

- هذا الوغد خنزير ، لايهتم إطلاقًا بهذا الأمر .. لابد أنه الآن في أحضان أحد البحارة !!

ثم أغلق باب قمرته في وجه يوسف بعنف ، الذي ظل يبتسم في أسى ، وكأنما صوت ارتطام باب القمرة قد أعاده لواقعه من جديد !

* * *

- إني أفتقد يوسف كثيرًا ؛ خصوصًا عندما آتي إلى مضمار إيجبرت ، وأرى فريقه بلا طعم ، منذ أن سافر إلى كينيا.

كانت كاترين تتأمل الملعب ، وأفراد الفريق يؤدون تدريباتهم على لعبة الكريكيت .. كان يوسف قائدًا لهذا الفريق ، منذ حضوره إلى ليـڤربول ؛ لما أبداه من مهارة واضحة في تلك اللعبة ، التي قد تبدو معقدة لشعوب كثيرة ، لم تتأثر بالاحتلال الإنجليزي في كل شيء مثل مصر .

السيدة براون :

- أتمنى أن ينتهي هذا الكابوس سريعًا .. على الأقل مضى أسبوع الآن ، وبعد أقل من ثلاثة أشهر .. سنحتفل بخطبتكما ، ثم تمر مثلها على أكثر تقدير وتتزوجان .. ويستقر يوسف هنا في ليـڤربول أو في لندن على أسوأ تقدير .

نطقت العبارة الأخيرة بصوت منخفض قليلًا ، وكأنها تريد أن تتراجع عنها.

كاترين في برود :

- وإن صمم على العودة إلى مصر لتحقيق مشروعه اللعين ؟!

السيدة براون ، وقد عادت إليها حماستها مرة أخرى :

- سنحاول أن نثنيه بكل قوتنا .. هذا دورك يا كاترين يجب أن تكوني مؤثرة في يوسف ، لا متأثرة به هكذا .. يجب أن تقنعيه بالبقاء قدر ما تستطيعين، وسننجح إذا ما أردنا وصممنا على ما نريد .. ثقي فيَّ يا كاترين ، وثقي في نفسك أكثر من ذلك .

كاترين :

- لا أثق في نفسي أو في قدرتي على ذلك ..ولكنني سأحاول بكل قوة ، ومع ذلك أشعر بهاجس غريب ، أنه سيعود إلى مصر حتى دون أن يكمل دراسته ..! ففكرة مشروعه الاستثماري ، تشغل حيزًا كبيرًا من تفكيره ، وهي في الحقيقة مغرية جدًّا .. أنا شخصيًّا بدأت أفكر أنه لا مانع لدي من الإقامة المؤقتة بمصر ، إذا ما كان سينفذ هذا المشروع بمشاركة أبي .. لا تتخيلين كم سنربح ؟! ملايين الجنيهات بالتأكيد !

بدت ملامح الاستنكار والغضب تظهر بوضوح على وجه السيدة براون :

- ما هذا الهراء الذي تقولينه .. يجب أن تكوني أقوى من ذلك .. اسمعيني جيدًا .. إن يوسف طفل كبير ، يسير دائمًا وراء نزواته وطموحاته الشخصية، ونحن دللناه كثيرًا منذ صغره .. ولكن نقطة ضعفه هي نفسه ؛ فهو يحب يوسف أكثر من أي شخص آخر ، فإذا ما وفرتِ له مناخًا مناسبًا هنا ، فلن يذهب إلى مصر أو إلى غيرها .. انطلقي من هذه النقطة .

ثم ابتسمت ابتسامة من يدبر أمرًا ، ويعرف مدى وقعه على محدثه قائلة :

- هيا نرسل له تلغرافًا من مؤسسة جورج راندال، لقد أخبرني البروفيسور أن بإمكاننا القيام بذلك ، وستصله برقيتك ، وهو على متن السفينة ؛ فيشعر بمدى اشتياقك إليه ولوعتك في غيابه ..

هبت كاترين وقد تهلل وجهها بالأمل ، وعادت إليها نضارتها ، التي غابت عنها منذ أسبوع مضى .

* * *

6
الانطباعات الأولى تدوم أحيانًا

انضم راؤول وريتا إلى سكورت ويوسف حول حوض السباحة البيضاوي .. يوم مشمس جديد على متن السفينة ، التي تتهادى فوق مياه المحيط الهندي العميقة .. بينما انشغل سكورت بملاطفة ريتا ، غير عابئ بوجود راؤول على الإطلاق .. كان الأخير يتحدث مع يوسف في حوار ، لا يخلو من الجدية عن الحضارة المصرية ، وآلة الهارب الشهيرة عند الفراعنة ، والتي نقشت أشكالها المختلفة على جدران المعابد.

كان راؤول مثقفًا حلو الحديث، لطيف المعشر ، مما جعل يوسف لا يتردد هو الآخر في أن يفتح معه أكثر من موضوع، فحدثه عن مشروعه الاستثماري ، الذي ينوي القيام به عقب إنهائه لدراسته في ليـڤربول ، بمشاركة جورج راندال والأرباح المتوقعة من هذا المشروع ، والدوي الذي يمكن أن يحدثه في الأوساط الطبية ، ثم عرج بالحديث عن الكيفية التي وضعها لإدارة مؤسسة طبية كبرى بهذا الحجم .

اعتدل راؤول في جلسته ، التي كانت مسترخية نوعًا ما على الأريكة الخشبية القريبة من حوض السباحة ، وقال رافعًا أحد حاجبيه في استغراب :

- لا أظن أن البروفيسور راندال سوف يقبل بسهولة وضع اسمه على مشروع تجاري بحت ، مثل هذا الذي تتحدث عنه، أنا أعرف الكثيرين ممن عملوا معه ، وقرأت أكثر عن مؤسسته ، ولمست عن قرب جهوده المبذولة في نيروبي .. إنه يتمتع بأسلوب تفكير مختلف تمامًا عن طريقتك.. اسمح لي أن أقول لك إنك تفكر بعقلية تجارية بحتة ، بينما البروفيسور له عقلية مختلفة تمامًا .. إنه كمن يسير في الاتجاه المعاكس لاتجاهك ، قد تلتقيان لبرهة قصيرة ، ولكن سرعان ما سيمضي كل منكما في طريقه .

لم يرق الحديث ليوسف على الإطلاق .. ولكن بسبب عناده، أصر على سلامة وجهة نظره ، من خلال عبارات كثيرة ، مثل أن من حقه أن يحقق طموحاته ، سواءً كانت مادية أومهنية فلم لا يكون ذلك بالتوازي ، وأنه من غير المعقول أن يبذل كل هذا المجهود في تلقي التعليم بمصر والسفر إلى إنجلترا لإتمام التعليم العالي ؛ لتكون حياته في النهاية فقط من أجل الأعمال الخيرية .

رد راؤول بهدوء ، وقد عاد لاسترخائه :

- أنا لم أقل إنك مخطئ .. أردت فقط أن أنبهك إلى أنك قد اخترت الشخص الخطأ ، أو إن شئت الدقة أنت تراهن على حصان لا يناسب طموحاتك.

يوسف : ولكن البروفيسور وعدني بالتفكير في هذا الأمر.

راؤول :

- التفكير شيء والتنفيذ شيء آخر .. والمقدمات تؤدي دائمًا إلى النتائج ، وسوف يتوقف الأمر على الطريقة ، التي سيرى بها البروفيسور هذا الموضوع ، فوجهة نظره هي التي ستتحكم في النتائج ؛ أي إن مبادئه وأفكاره ستحكمه بالتأكيد ، وبالتالي يجب أن تكون النتائج هي رد فعله

المباشر على ضوء معتقداته .. ومن يؤمن بقيمة العمل الخيري لا يوجد للأرباح والمكاسب مكان في ذهنه.. على أي حال أنت لن تخسر شيئًا من ذهابك إلى نيروبي ، بل بالعكس ستستفيد كثيرًا من هذه التجربة ... ثم إنك لم تحدثني عن إرساليتك الطبية، أعتقد أنها جديرة بالاهتمام ، فهي عمل إنساني رائع .

دهش يوسف ، ولكنه شعر ببعض الخجل واحمر وجهه ، وقال :

- أستفيد؟! أنا أريد أن أعود الآن إلى إنجلترا .. ولكن الصواب لم يجانبك تمامًا ، فبلا شك هذه الإرسالية عمل إنساني .. ولكن بالنسبة لي تعتبر أمرًا ثانويًّا لن يتعدى بضعة أسابيع، أتم فيها الجانب العملي من رسالتي ، ثم سرعان ما سأعود إلى ليـڤربول ، وهذا هو الاتفاق الذي تم بيني وبين البروفيسور راندال .

أردف راؤول كأنه لم يسمع بقية إجابة يوسف ، وهو يتأمل حوض السباحة :

- نعم ستستفيد يا يوسف .. ستتعرف عن قرب على الجانب الآخر من هذا العالم الذي نعيش فيه .. سترى الناس وهم يعيشون على سجيتهم تمامًا ، لم تلوثهم المدنية الحديثة بعد ؛ فهم لا يزالون على فطرتهم التي خلقوا عليها ، ولولا نيفيل ومن على شاكلته ، لكانت الأمور أفضل كثيرًا في تلك البقعة الساحرة من نيروبي.

ما كادت الدهشة تزول من وجه يوسف ، حتى عادت مسرعة تطل من عينيه عقب ذكر نيفيل ؛ فقال يوسف في ضيق :

- وماذا يفعل نيفيل هناك تحديدًا ؟!

قبل أن يجيب راؤول ، تعالت أصوات استغاثة مصدرها الطابق الثاني ، تنبئ عن وقوع حادث .. وقع أقدام تهرول مسرعة فتدق أخشاب أرضية السفينة ، وتحدث صوتًا يزيد من الإحساس بفداحة الموقف ، وتشيع جوًّا من الارتباك .. تعالت نداءات بعيدة تستدعي طبيب السفينة .. ودون أن يشعر، هبَّ يوسف كمن لدغته عقرب .. كان حافيًا يرتدي سرواله القصير وعاري الصدر تماما .. وفي دقائق وصل إلى حيث التجمع المرتقب ، بعد أن اعتلى سلمًا معدنيًّا صغيرا معدًّا للطوارئ .

كانت مجموعة من بحارة السفينة يلتفون حول زميل لهم ، مسجى على الأرض ، يتلوى ويتقيأ ما في جوفه بشدة وصعوبة .. بينما عضلات وجهه تتقلص كأن رأسه على وشك الانفجار .. تركه يوسف ينتهي من لفظ كل ما في معدته من طعام وشراب ، ثم قام بفحصه برفق ودقة ومهارة طبيب متمرس .. اشتم رائحة فمه التي يفوح منها الكحول بشدة ، وجذب جفونه إلى أعلى قليلًا ، ثم وضع يده على صدره ، وسأله إذا كان يشعر بألم فيه فهز البحار رأسه بالنفي، فقام بتفحص شفتيه وأصابعه ، وضغط على منطقة ما في بطنه ، ثم طلب من الجميع ألا يحركوه وألَّا يعطوه أية سوائل .

هرول يوسف إلى قمرته وأخرج حقيبته الجلدية .. عبث في محتوياتها بحثًا عن شيء محدد ، وحين عثر على علبة دواء صغيرة ، التقطها بخفة وعاد إلى مريضه، الذي كان قد أصابه إعياء شديد ، وبدا شبه غائب عن الوعي .

طلب يوسف من المتجمهرين الابتعاد عن البحار قليلًا ؛ ليتمكن من التنفس برحابة ، فقد كانوا قلقين على زميلهم ، بعد أن ظنوا أنه أصيب بأزمة قلبية من كثرة ما وضع يده على صدره وهو

يتقيأ ، ولكن يوسف طمأنهم قائلًا :

- لقد أفرط هذا الرجل في الطعام ، كما يبدو أنه تجرع الكثير من الكحول ولفحته شمس الظهيرة .

كان يوسف يتحدث ، وهو يعاون البحار على اتخاذ وضع الجلوس بزاوية قائمة ؛ ليتجرع بعض الماء حتى يتمكن من ابتلاع حبوب الدواء التي ناوله إياها ... برهة قصيرة والأنفاس محتبسة ، بدأت بعدها ملامح الراحة تظهر على وجه المريض ، ويزول احتقانه ، ومن ثم تسربت السكينة والاطمئنان إلى زملائه .. ورويدًا رويدًا بدأت البسمة تأخذ طريقها إلى وجوههم ، حتى اعتلتها بثبات ، بينما كان يوسف لا يزال جاثمًا على ركبتيه بجوار البحار ، وحين التقت عيناه مع عيني سكورت الواقف أمامه مباشرة، أشار له الأخير في مكر إشارة لها معنى ؛ لينظر إلى راؤول الرابض بجوار البحار المريض في مواجهة يوسف تمامًا .

نظر يوسف إلى راؤول فوجده جزعًا يربت براحة يده على رأس البحار في حنو ورقة متناهية تعكسها ملامح وجهه..! غمز له سكورت مرة أخرى بعينه ، ثم أعقب ضاحكا :

- الأمر يستحق أن نشرب نخب النجاة .. أليس كذلك يا راؤول؟

و هنا انفجر يوسف ضاحكًا، بينما شعر راؤول ببعض الحرج واعتدل في جلسته ، وهو يتمتم بعبارات يشكر بها يوسف على نجاة البحار .. وحين تعالت ضحكات البحارة وصياحهم ، بعد تعافي زميلهم تدريجيًّا ، اختلطت بصوت ضحكات يوسف وسكورت على ردود أفعال راؤول الملتاع حتى غطت عليها .

* * *

استند يوسف بمرفقيه على الحافة ، التي يقف خلفها الساقي مباشرة داخل الحانة ، معتدلًا في جلسته قائلًا لنديمه سكورت :

- تبدو سعيدًا بعد عشر سنوات من العمل في نيروبي .

ضحك سكورت ضحكته العالية قائلًا :

- أنا مثل زهرة البنفسج ، يجب أن أبدو كذلك ، حتى لو لم أكن سعيدًا .

اتسعت عينا يوسف ، وهو يتأمل هذا الكائن الصاخب الذي لا يكف عن الضحك وإلقاء النكات .. وقد تحول فجأة إلى شخص بدت ملامح الشجن ، التي قفزت فجأة على وجهه ، وكأنها لصيقة به منذ سنوات بعيدة ، كخيوط عنكبوت في حجرة مهملة ، لم يطرقها أحد منذ زمن طويل !

تابع سكورت في شجن :

- أنا المدير المقيم لفندق ماي فير كورت .. الذي يبعد عدة دقائق فقط عن وسط المدينة ، والقريب من ضاحية تزخر بحياة برية ممتعة في آن واحد .. أنا أعيش في المنطقة ، التي تفصل بين المدنية المتطورة والطبيعة البدائية البكر .. مهنتي تحتم عليّ الابتسام الدائم في مواجهة المشكلات ، مقابلة الزبائن والترحيب بهم والاستماع إليهم ، دون أن تفارقني الابتسامة مهما كانت الظروف ... أنا كترس في آلة تدور بلا توقف ، أي كسل أو تراخٍ أو قصور لا يعني إلا أن أفقد راتبي الضخم ، الذي ضحيت من أجله بعملي في لندن ووجوديً في وطني إنجلترا .. لقد كنت مترددًا أمام فرصة الذهاب إلى كينيا في البداية ..ولكن حاجتي إلى المال لعلاج أمي المريضة ، بمرض

نادر ، جعلتني مجبرًا على القبول والاستمرار .. أزورها كل ثلاثة أشهر وأمضي معها أسبوعًا ، ثم أعود مرة أخرى لأواصل الدوران في آلة العمل والحياة.. فيدور الترس مرة أخرى ؛ ليعمل ويدر الأموال.. نصف أموالي أنفقها على علاج أمي ، أما بقيتها فأدخرها لأنه حين يحين دوري ويتحطم الترس ، لن أجد من يهتم بي ، مثلما أفعل مع أمي الآن ، فلم أكن يومًا رب عائلة وليس لي زوجة ولا أولاد .

وحين نطق هذه الجملة الأخيرة دمعت عيناه ، ولكنه لم يسمح لدموعه أن تنهمر ؛ فبدت متحجرة في مقلتيه ، وبسرعة سكب كل محتوى كوبه من الشراب في جوفه دفعةً واحدة ، وكأنه يقاوم الشجن والحزن .. وسرعان ماعاد لطبيعته مرحًا مهرجًا ، وإن كانت مسحة من الحزن على وجهه ظلت واضحة ليوسف تلك المرة ، فلن يخطؤها ثانيةً !

مضت الأيام على متن السفينة أقل مللًا بعد قربه من سكورت، فصارا يلتقيان يوميًّا منذ الصباح ، ولا يفترقان إلا عند النوم .. حدثه سكورت عن الحياة في نيروبي ، وعن الإرسالية الطبية لمؤسسة جورج راندال ، فعلم يوسف أنها تقيم في فندقه ، وأن مقرها أيضًا لا يبعد كثيرًا عن الفندق ، وإن كان يقع وسط الأحراش من الجهة المقابلة ، وهو أمر سعد له يوسف كثيرًا .

ولكن سرعان ما تبددت سعادته ، عندما وصف له سكورت حالة الفقر والمرض ، التي تسيطر على تلك المنطقة والعادات الغريبة ، التي يمارسها أهل تلك القبائل ، كما حذره من السخرية من هذه العادات ، وتجهمت ملامح سكورت ، وحملت قسمات وجهه كثيرًا من ملامح الجدية ، والتي بدت غريبة عليه ، وهو يقول :

- وإلا أصابتك لعنة إيراي !

- ومن يكون إيراي هذا ؟

قالها يوسف بعدم اكتراث .

أجابه سكورت ، وهو يتناول بعضًا من قطع الجبن الصغيرة على هيئة مكعبات ، ويلقيها في فمه على دفعات ، فبدا كفرس نهر يطعمه حارسه :

- شخص شرير مرعب يقتل ويحرق ويخافه الجميع، يقول عنه أهل القبيلة القريبة ، من مقر الإرسالية ، إنه الروح التي تطرد الشر من القبيلة ، وإن كنت أراه الشر في حد ذاته .

ابتسم يوسف قائلًا :

- يبدو إنك أفرطت في الشراب يا سكورت .. ما هذه الخرافات .. أرواح شريرة وحرق وقتل، إن هذه أمور قد انتهت من العالم كله ، ولا وجود لها إلا في مخيلتك فقط .. نحن الآن في القرن العشرين .. ثم إنني لن أمكث أكثر من بضعة أسابيع ، ثم أرحل إلى غير عودة .. لا أعتقد أنني حتى سألتقي بإيراي هذا الذي تتحدث عنه ... بل لن يكون لدي وقت لسماع أساطيره .

أشاح سكورت بيده ممتعضًا :

- كما تشاء .. لقد حذرتك على كل حال ، وستكون محظوظًا ، إذا لم تصطدم به، دعنا نغير دفة الحديث ؛ فالسيد نيفيل قادم .

كان نيفيل شخصًا منفرًا بكل ما تعنيه الكلمة من معنى.. فظًا في معاملته .. متعجرفًا مع الآخرين .. متعاليًا في حديثه ، يشعر محدثه دائمًا بأنه لا يمثل أي شيء في هذا العالم ، وأنه نكرة يجب أن يشكر الله أنه وافق على الحديث إليه !

جلس نيفيل بجانبهما ودون أن يلتفت إلى يوسف ، وجه له الكلام قائلًا :

- أعتقد أنني سوف أحتاجك لمباشرة بعض رجالي من الناحية الطبية ؛ فالقبطان يقول إنك طبيب ماهر ، ورجالي يتعرضون للحوادث أثناء صيد الأفيال ووحيد القرن في الأحراش ويُجرحون ، والكثير منهم يلقى حتفه بسبب ضعف وسوء الخدمات الطبية في أحراش نيروبي .

لم يستطع يوسف أن يقاوم فضوله ، رغم صلف محدثه :

- وهل الصيد مسموح به في الغابات هناك ؟

لم يتلق إجابة من نيفيل الذي تظاهر بأنه لم يسمع السؤال ، فانتقل يوسف ببصره إلى سكورت الذي أجابه ، وهو يتصبب عرقًا ، بعد أن تجهمت ملامحه قليلًا ، رغم ابتسامة فزعة احتلت شفتيه بالكامل :

- إنه صيد قانوني غير جائر يا يوسف ، مسموح به في الأحراش بموجب ترخيص من الحكومة ؛ بهدف تجارة العاج ، وبإشراف الحكومة الكينية ولاشيء أكثر من ذلك .

قالها وهو يضغط على مخارج ألفاظه ، وقد اتسعت حدقتا عينيه المصوبتين إلى محدثه ، فبدا الأمر يحوي كثيرًا عن ذلك الغموض ، الذي تحدث به سكورت من قبل !

رمقهما نيفيل بنظرة باهتة من عينه اليسرى المنكسرة قليلًا ، والتي يتدلى عليها جفنه فيغطيها قليلًا ، عندما يسكت ، ثم قال :

- سنتعاون يا دكتور يوسف معًا ، وستسعد بالعمل لدي كثيرًا ... كما أنني سعيد الآن بقربك من السيد سكورت ، لعلك تتعلم منه الحكمة في وقت سريع !

ثم تركهما وانصرف بخطوات بطيئة ، وكأنهما كائنان لا قيمة لهما على الإطلاق بالنسبة له .

وعندما ابتعد نيفيل تمامًا عن نظرهما ، وتأكد سكورت من ذلك ، اقترب بهدوء من يوسف قائلًا :

- تحاشاه قدر ما تستطيع يا يوسف ولا تسلني عن أية تفاصيل، فأنا أريد أن أكمل دورتي كترس في آلة العمل ، ولا أحب أبدًا أن يكسرني أحد ، فأتحول إلى قطعة غيار ، قد لا تصلح حتى للاستخدام فتتفكك ! أرجوك انس هذا الأمر ، ولا تدعنا نتحدث فيه مرة أخرى !!

ولأول مرة ، بدأ يوسف يشعر بخطورة ما هو مقدم عليه .. لم ينم في تلك الليلة ، وظل يلعن راندال والإرسالية ومرض الجذام وتخصصه النادر في علاج الأمراض الجلدية المستعصية .. شعر بأنه يريد أن يقفز في الماء ، ويعود إلى ليـڤربول فورًا ..أو حتى إلى مصر !

لم يكن طوال حياته من النوع المقاتل المثابر .. كان لا يحب التدخل في حياة الآخرين ، ولا يحب أن يتطفل أحد على حياته ، مثلما يحدث له الآن ... بالأمس القريب جورج راندال يحول مسار حياته ويؤجل طموحاته ، والآن نيفيل يهددها بالكامل دون مبرر.. بدأ يشعر بالخوف وبالخطر من أمر مجهول ، لا يعرفه ولا حتى يستطيع توقعه، شعور بالفزع اعتراه وجعله عاجزًا عن التفكير أو التخطيط .. فهو حتى لا يعرف عدوه ولا أسلحته ، فكيف سيقاوم ومتى ومن أجل ماذا ؟

أدرك تمامًا أنه قد أخطأ بموافقته البروفيسور جورج راندال على الذهاب إلى هذه الإرسالية اللعينة .. لابد أن الجميع من قبله كانوا يرفضونها ، ولابد أن البروفيسور قد استغله حين قدم له هذه الإغراءات ، وهو الذي كان يظن أنه من سينال منه، ها هو الآن قابع في حجرة وسط المحيط ، لا يعرف ماذا سيفعل في مستقبله ، بينما حاضره لم يكتمل بعد ، وبات كجنين مبتسر.. حتى ماضيه لن يشفع له في شيء !!

طرق أحد البحارة باب حجرته مرتين في رفق ... قام يوسف متكاسلًا متثائبًا ؛ فلم يكن قد نام ليلته جيدًا .. استولت عليه كوابيس عدة .. أكثرها فزعًا ذلك الذي رأى فيه المدعو إيراي ، الذي حدثه عنه سكورت كإفريقي ضخم ، أصلع الرأس مفتول العضلات .. عار تمامًا يقوم بشد وثاقه إلى وتد أفقي ، ويشعل النيران أسفله .. بينما نيفيل يتأهب لالتهامه ، بعد أن أتم إيراي شيَّهُ .. شعر بالنيران تقترب من وجهه وتلفحه بحرارتها ، وهو يتقلب على الوتد بواسطة قزمين زنجيين دميمين .. هب في فراشه مذعورًا .. شعر بسخونة وجهه .. كان عرقه الغزير يتفصد منه بلا هوادة ، وكأن هويسًا قد انفتح في وسط رأسه ، فانهمر العرق منه يغطي وجهه ومؤخرة رأسه حتى كتفيه .

فتح باب القمرة .. وجد البحار يبتسم له في بشاشة ، أعادت إليه سكينته . ولكن ببطء .. سلمه البحار ورقة مطوية بعناية :

- برقية لك من ليـڤربول يا سيدي!

ربما لم يشعر أنه يفتقد كاترين في حياته مثل هذه اللحظة .. قرأ البرقية أكثر من ثلاث مرات ، كان في منتهى السعادة ، وهو يقرأ عباراتها الرقيقة عن افتقادها له ، وكيف أنها تشعر بالبرودة أمام المدفأة في منزلها لافتقادها ذراعيه ، اللذين كانا يمدانها بالأمان ويشعرانها بالاحتواء .

طوى البرقية ووضعها في حافظة نقوده بعناية شديدة ، وكأنها وثيقة رسمية مهمة ، لها أصول في الحفظ ، ثم خرج منتشيًا من قمرته، شعر بأنه مراهق تلقى خطاب غرام من محبوبته ، تعلن فيه عن ولعها به .... ودَّ كثيرًا لو تمكن من العودة الآن إلى ليـڤربول ، ولو كانت كاترين بجواره الآن لضمها بين ذراعيه بقوة ، ولأعلن عن زواجهما فورًا ، ولكان هدأ من روع السيدة براون .. فقد قرر البقاء في ليـڤربول أيضًا .. كان على استعداد لأن يفعل أي شيء ، يعيده إلى نقطة الصفر قبل لقاء راندال !

مر بجوار السيد نيفيل ، الذي كان يتبادل حديثًا مع القبطان.. حياه القبطان في ترحاب كالمعتاد ، بينما اكتفى نيفيل بإيماءة خفيفة متعالية من رأسه ... أخبره القبطان أنهم سيصلون إلى ميناء مومباسا في كينيا بعد ساعات .. كان القبطان يبلغه بالنبأ ، وكأنه يزف إليه خبرًا سارًّا، بينما كان وقعه على يوسف كالصدمة .. فقد اعتاد الحياة في السفينة كملاذ آمن من المستقبل المجهول ، وكأن حياته ستستمر في عرض المحيط !

لوح له سكورت من بعيد ، فذهب إليه على الفور بخطى متعرجة ، لاحظها سكورت ، فعلق قائلًا في سخرية :

- هل تشرب كثيرًا في الصباح ؟ لم ألاحظ ذلك عليك طوال الفترة الماضية .

يوسف : لا لست ثملا.. أنا لم أذق طعم النوم أمس .. أصبت بأرق .. هل صحيح أننا نقترب من مومباسا ؟!

هتف سكورت ، وكأنه قبطان سفينة حربية :

- نعم سنصلها بعد ثلاث ساعات من الآن .. فلتستعد يا طبيب ، سنستقل سيارة خاصة ، فور وصولنا إلى نيروبي ، وبعد بضع ساعات عندما نصل إلى الفندق ، أعدك بأنك ستنام جيدًا .. لقد اخترت لك أفضل غرفة .. تلك التي تطل على الأحراش ، ويمكنك بسهولة مشاهدة بعض الحيوانات ، مثل : الزراف والأفيال على مقربة من نافذتك ، بينما لن تستطيع أن تغلق عينيك أمام جمال المراعي الخضراء الممتدة بلا نهاية ... لا تقلق .. احزم أمتعتك واستعد لاستقبال إفريقيا على طريقة سكورت .

ثم أطلق ضحكته الشهيرة عاليًا ، حتى كادت أن تغطي على صوت صافرة السفينة الشهيرة عند الإبحار أو الرسو. .. وذهبا معًا لتناول مشروب في نخب ومباسا ، وفقًا لتقاليد سكورت المعتادة بشأن الاحتفال بكل شيء في أي وقت !

* * *

اقتربت السفينة بهدوء من ميناء مومباسا ، بعد أن خفضت من سرعتها تمامًا .. ميناء واسع ، ولكنه يبدو قديمًا نوعًا ما، ترسو به أكثر من أربع سفن أخرى ، كأنها جبال شامخة. شغل يوسف نفسه بإحصاء عدد القوارب الشراعية ، التي على يمين المرسى ليقتل الوقت ؛ الذي كان يمر بطيئًا عند دخول السفينة الميناء .. ورأى على يسار المرفأ أكواخًا، تبين له عندما نزل إلى رصيف الميناء أنها مبانٍ صغيرة ، مطلية بلون أصفر باهت ، ولاحظ حولها حركة دؤوبًا لا تنقطع .. أشخاصًا يدخلون ويخرجون ، وهم يحملون أوراقًا أو ما شابه كأنها خلية نحل .. كما لاحظ للمرة الأولى أن الجميع بشرتهم سمراء داكنة .

وكأنما كان سكورت يقرأ أفكاره في تلك اللحظة، فقال هامسًا : سيحبونك وسيشعرون بأنك قريب منهم ، فلون بشرتك قريب من لون بشرتهم يا دكتور .. ابتسم له يوسف قائلًا :

- هل تقترح نخبًا لصالح البشرة السمراء ؟!

ضحكا في هدوء .

مضى يوسف يتأمل الميناء وقارن ، دون أن يشعر ، بينه وبين ميناء ليـڤربول العريق ، فوجد فارقًا أشبه بالفارق الذي يفصل بين الشمال والجنوب ، أو بين اللونين الأبيض والأسود، وازداد إحساسه بالفارق .. مع اقتراب السفينة أكثر ، لاحظ قذارة رصيف الميناء والإهمال ، الذي يغلب عليه رغم أنه ميناء ضخم نسبيًّا .

أعداد كبيرة من الأشخاص، معظمهم حفاة يدفعون أمامهم عربات خشبية محدثةً ضجة ، ويحملون حقائب المسافرين أو أجولة تحوي حبوبًا ، حسبما أتيح له أن يشاهد ما تسرب من بعضها جراء سوء التحميل وقلة الخبرة، كما لاحظ أن موظفي الميناء يرتدون زيًا أوروبيًّا مكونًا من قميص وسروال طويل ، ألوانه يغلب عليها الأصفر والأحمر والأخضر.

أبدى اندهاشه لسكورت ، فرد عليه مستغربًا اندهاشه قائلًا :

- إننا لسنا في غابة .. هؤلاء موظفون مدنيون في ميناء دولة كبيرة في إفريقيا ، أم ماذا كنت تظن أنك سترى؟ رجالًا عرايا يحملون سهامًا وحرابًا .. ثم أطلق ضحكته العالية ، فقد كان أسرع من يضحك على تعليقاته ونكاته .

بدأ يوسف يتفصد عرقًا بصورة لا تنقطع جراء الطقس الرطب ، الذي كان في شرف استقباله ، منذ أن وطئت قدماه أرض رصيف ميناء مومباسا ، فبدأ يتأفف .. ولكن اقترب منه سكورت وهو يرتب أوراقًا في حقيبة صغيرة بيمناه ، ويسلمه جواز سفره وأوراقًا أخرى مطوية بلا عناية .... نجح في إخراجه مؤقتًا من هذه الحالة ، حين قال بنبرة مسرحية :

- أهلًا بك في مومباسا أكبر مدينة على الساحل الكيني ، وأكبر ميناء في المحيط الهندي في شرق إفريقيا كلها .. كم كنت أتمنى أن أعمل مرشدًا سياحيًّا !

لمعت عينا يوسف ببريق خاطف :

- لِمَ لا يا سكورت؟ سوف أمنحك فرصة أن تكون مرشدي ليوم واحد فقط .

ضحك سكورت ، دون أن يستطيع إخفاء دهشته :

- هل تريد أن نبيت ليلتنا هنا في مومباسا؟!

أومأ يوسف بالإيجاب ، وهو يبتسم .

سكورت :

- ولكننا سنتعطل والمدينة فقيرة ، وليست بها معالم كثيرة ، كما أنني ......

قاطعه يوسف بإشارة من أصبعه :

- يوم واحد فقط يا سكورت .. لن تكون نهاية العالم .

رضخ سكورت ، وهو يحني رأسه ويهزها في أسى ، أمام رغبة صديقه الجديد :

- لا بأس ، فيوم واحد في مومباسا .. لن يكون نهاية العالم بالتأكيد .

* * *

7
ميناء مومباسا

وقف يوسف يتفحص الواقفين على رصيف الميناء ، بينما كان سكورت لا يزال بداخل المكتب ، بعد أن عادا إلى مكاتب الميناء المطلية بلون القش ، والتي ظنها يوسف عششًا في البداية ... لكي يتفقا مع مكتب الاستعلامات على سيارة تقلهما في جولة داخل المدينة ، ثم إلى فندق لقضاء ليلتهما ، واستغل سكورت مميزات وظيفته ؛ فأجرى اتصالات ببعض معارفه ، سهلت لهما الكثير ووفرت وقتهما ، فلم تستغرق فترة انتظارهما سوى ثلاث ساعات بالميناء !

موكب من ثلاث سيارات سوداء من أحدث الطرز ، وسيارتين ضخمتين من النوع المخصص لنقل البضائع .. اقتحم بوابة الميناء ، واستقر على مقربة من نيفيل وبعض رفاقه ، الذين ظلوا يحافظون على مسافة لا تزيد على بضعة أقدام بينهم وبينه ، وفي كل برهة يهب إليه أحدهم ، وينحني لتلقي تعليمات ، ثم يعود إلى موقعه على مقربة من سيده !

بينما على مسافة بعيدة ، بدت السيدة ريتا وراؤول ودانيال وزوجته البدينة والدبلوماسي الشاب ، كأشباح صغيرة ، وهم يتابعون أمتعتهم ، ترص بعناية في جوف حافلة ضخمة سوف تقلهم إلى نيروبي .

انحشر سكورت ويوسف في سيارة فورد صفراء فاقعة ، تعود سنة صنعها إلى أكثر من خمسة عشر عامًا ، حتى كادت أكتافهما أن تلتصقا ببعضهما ، وذلك بعد أن اضطرا إلى دس بعض الحقائب داخل صالون السيارة ، عقب امتلاء صندوق أمتعتها الخلفي تمامًا ؛ حتى أغلقه السائق بصعوبة بالغة.

تحركت السيارة ، فاخترقت شوارع المدينة القديمة في مومباسا ، مثل أفعى تزحف وسط حشائش كثيفة، وبدأ يوسف يتأمل معالم البلدة من نافذة السيارة .. كانت قديمة تحمل عبقًا من التاريخ ، لا بأس به ، وإن كان يغلب عليها الفقر .

منازل مومباسا القديمة لا يزيد ارتفاعها على طابقين أو ثلاثة على الأكثر، تصطف على جانبي الطريق ، بغير تناغم أو تناسق على الإطلاق ؛ مما جعلها أشبه بكتل أسمنتية متوسطة متبعثرة هنا وهناك ... أما شوارعها ، فمزدحمة بأشخاص كثيرين يفترشون الطرقات ، ولكنهم منظمون جدًّا ، وكأن كل منهم يعرف موقعه مسبقًا ، ولاحظ يوسف أن كل واحد منهم يعرض بضاعة ، تختلف عن البضاعة التي يعرضها الآخرون ، وكأنهم على اتفاق ضمني بعدم المنافسة.

وقعت عيناه على مبنى يشبه المسجد تمامًا ، فطلب من السائق أن يهدئ تمامًا من سرعته ففعل على مضض ، وظلت عينا يوسف تتأملان المسجد ، في انبهار وكأنما يذكره ببلده مصر .. وفجأة اعترته الدهشة ، فقد كانت المئذنة يعلوها صليب ذهبي ضخم ، وتتصدر الرسوم الملونة ليسوع والسيدة العذراء الجانب الآخر من جدار المبنى ، الذي وقعت عيناه عليه ، عندما تحرك السائق بالسيارة .. بناء لا يمكن إلا أن يكون مسجدًا ، بل يكاد يوسف أن يجزم أن هناك مثيلًا له بالقاهرة الفاطمية .

يا لهذا المزيج المبهر من الحضارات والديانات المختلفة !!

خرجت السيارة من المدينة القديمة إلى الطريق الرئيسي ، الذي يبدو أكثر تحضرًا ؛ فعلى جانبيه بنايات لونها أبيض لا يزيد ارتفاعها على أربعة طوابق ، تفصل بينها مساحات واسعة من الأراضي الفضاء .. وعلى عكس المدينة القديمة ، كانت أعداد المارة بالطريق قليلة جدًّا ، ربما بسبب الطقس الخانق غير المحتمل ، والذي جعل سكورت البدين يعوم في بركة من العرق ، داخل بذلته الصيفية الرمادية الفاتحة ، ولم تفلح محاولاته في تجفيف جبهته كل دقيقة تقريبًا ، جراء تدفق كميات إضافية من عرقه الغزير ؛ الأمر الذي جعله يسخر من نفسه قائلًا :

- لدي فائض تصدير من العرق .. هل تريد يا يوسف ؟!!

لاحظ يوسف وجود مجسمات كثيرة على هيئة أنياب ضخمة فاستفسر من سكورت عن معنى «أنياب» باللغة الساحلية ، ثم وضعها في سؤال بالإنجليزية للسائق ، فلم يتلق منه إجابة مفهومة ، وظل السائق يتحدث بلهجة ساحلية دون أن يتوقف ، وكأن يوسف قد ضغط على زر الكلام به ، ولم ينقذه من براثن السائق ولهجته ، سوى سكورت الذي يجيدها فنجح في إسكاته ، وأمره بأن يعاونهما في إنزال الحقائب ، ثم قال ليوسف بلا اكتراث :

- هذه الأنياب أسهمت الحكومة البريطانية في تشييدها على هذا الشكل عام 1956 في مومباسا ونيروبي ، عندما زارتهما الملكة، وهم هنا لا يحبون الإنجليز ، وأنت عندما سألته ذكرته بالاستعمار ، فانطلق يعدد لك مساوئه .. هيا .. هيا ندخل الفندق ، قبل أن تسهم رطوبة الطقس في تبخرنا من هذا الكون ، ثم انفجر ضاحكًا كعادته .

* * *

شربا نخب مومباسا باقتراح من سكورت ، ثم ناما قليلًا في الفندق المتواضع ، بعد أن أكد له سكورت أنه أفضل فنادق المدينة ، رغم أن الغرف ليس بها لا تبريد هواء ولا ماء ساخن ؛ الأمر الذي تذمر منه يوسف ؛ حيث اعتاد استخدام الماء الساخن حتى في فصل الصيف، ورغم ذلك جعلت طريقة سكورت وأسلوبه في الإقناع يوسف يتحمل حرارة الطقس وبرودة المياه ، وهو يبتسم .

و قبل غروب الشمس ، أمضيا بعض الوقت على شاطئ البحر الشاغر من المصطافين ، وتعجب يوسف من كثرة الباعة الجائلين ، الذين ألحوا عليهما في شراء ملابس ملونة رثة بالية تبدو بجانبها الملابس ، التي يتخلص منها سنويًّا ملابس جديدة ، وأبدى يوسف دهشته من خلو الشاطئ من المصطافين .. وعندما نطق بهذا التعليق ، استغرق سكورت في الضحك ملء شدقيه حتى دمعت عيناه.

- لماذا تضحك هكذا ؟!

- لا يوجد مصطافون هنا يا جو .. نحن لسنا في نيس أو الريفيرا الإيطالية .. نحن في مومباسا كينيا .

كان ينطقها بتضخيم وتفخيم ، وهو يكتم ضحكاته .. ثم استرسل :

- يجب أن تدرك من الآن أين تضع قدميك ، وتتوقف عن المقارنة بأي مكان آخر ، فهذا ليس في صالح توازنك النفسي .

ثم أردف :

- سلبًا ... وربما إيجابًا أحيانًا .
- لا أعتقد يا سكورت أن هناك شيئًا إيجابيًّا في هذا البلد على الأقل بالنسبة لي .. هل أخبرك بشيء ؟
أومأ سكورت بالإيجاب .. فتابع يوسف :
- لقد ضايقني كثيرًا منظر الكنائس ، التي كانت في الأصل مساجد .
أجابه سكورت بعدم اهتمام :
- أغلبها مغلق وغير مستخدم في العبادات .. ولكن لماذا كل هذا الضيق ، أنت كما فهمت منك مسيحي الديانة ، ولست مسلمًا ؟!
أجابه يوسف في وجوم :
- الأمر لا يتعلق بديانتي ، وإنما بإنسانيتي وبإحساسي بالجمال ، بالراحة ، بالسكينة .. وكلها مشاعر تجدها عند أي إنسان ، حتى ولو كان بلا ديانة .. بيوت العبادة يا سكورت في أي دين لها شكل معين وخصائص ثابتة ، ولها مظهر يحببك فيها ؛ فتتعوده عيناك وتألفه ، كما أن لها جوهرًا يشعرك بالرهبة والقدسية في الوقت ذاته ، ويبعث إليك بطمأنينة روحانية تسري في جسدك ، وأنت تغادر المكان ، أو قبل ذلك بقليل .
صمت يوسف قليلًا ثم أردف :
- و.. وقتها تشعر أن الشكل الهندسي والناحية الجمالية لهذه الدار يلعبان دورًا مهمًّا ، بل ورئيسيًّا في هذا الأمر الغامض.. فالمسيحي قد يستطيع أن يؤدي طقوسه في مسجد ، ولكنه لن يشعر بالروحانية ذاتها ، التي يشعر بها في الكنيسة ، والأمر ذاته بالنسبة للمسلم .. فقد يتمكن من أداء صلواته في كنيسة ، ولكنه لن يشعر بالسكينة التي يحسها تحت قباب مسجده .. لا أعرف كيف أصف لك إحساسي يا سكورت ، ولكنني تأذيت كثيرًا مما شاهدته .
سكورت :
- انسَ هذا الأمر يا چو ، وتعال الآن إلى محطة القطار ؛ حتى نضمن مقعدين إلى نيروبي ، فلن نقضي ما تبقى لنا من عمر في مومباسا .
مبنى المحطة أشبه بنوادي الجولف المنتشرة في ليـڤربول .. الواجهة نفسها المشيدة من الطوب الحراري الأحمر ، والشكل الهرمي الموجود أعلى البوابة الرئيسية .. ورغم أن المبنى يبدو من الداخل فقيرًا ، فقد كان نظيفًا على عكس الميناء .. بصعوبة شديدة ، استطاعا الحصول على تذكرتين بالقطار المتجه إلى نيروبي .. لا بسبب الازدحام ، وإنما بسبب ندرة القطارات ، وقلة عدد العربات بها ، وكثرة أعطالها ؛ خصوصًا أن المسافة إلى نيروبي تتجاوز الألف كيلومتر بمائة أخرى !

* * *

- ستجد الناموسية أسفل السرير مباشرة مغلفة بقماش أحمر سميك ..
العبارة نفسها ظل موظف القطار ، يكررها على مسامع المسافرين الحاجزين في عربات النوم ، وهو يراجع تذاكرهم، بينما كان يوسف واقفًا في منتصف العربة لا يدري ماذا يفعل، فقد كان يحمل

حقائبه وأمامه سيدة بدينة جدًّا ، ترتدي ملابس أشبه بالساري الهندي ، تخرج من بين طياته كرات لحم ، وأحزمة دهون بصورة لافتة للنظر ، وكانت تحمل قفصًا به دجاجات ، تحدث جلبة وضوضاء جراء فزعها من مسافري القطار !

فجأة ، اصطدم القفص بحافة حقيبة مسجاة على الرف العلوي ذات بروز معدنية مدببة ، أحدثت شرخًا بأضلاع القفص ، وسرعان ما انهارت معه فانفتح على مصراعيه.. وطارت بعض الدجاجات ، وهي تصيح في هلع ، واستقرت أخرى على رف الحقائب ، تتأمل المسافرين في دهشة ، وهي تهز رأسها يمينًا ويسارًا ، وكأن القطار أصبح مخصصًا للدواجن ..! بينما مرقت إحداها من بين قدمي يوسف ، فكاد أن يفقد توازنه خوفًا منها .

أما سكورت ، فكان في خلفية العربة يحاول اصطياد دجاجة ضلت طريقها ، فانزوت في ركن خلف الصف الأول مباشرة ، حتى التصق جسدها بالجدار خوفًا وجزعًا ؛ مما سهل على سكورت الإمساك بها ..ورفعها عاليا وهو يصيح في بلاهة ، بينما صفق له بعض الركاب من أهل البلدة في بلاهة مماثلة ..! وجد يوسف نفسه ، وقد انتقلت إليه روح دعابة سكورت، ينبهه إلى ضرورة تناول مشروب في نخب الدجاج اليوم..و تعالت ضحكاتهما داخل عربة القطار .

وضعا حقائبهما في الكابينة التي حجزاها.. كان الاستياء قد تمكن تمامًا من يوسف ، بل واستبد به فالحجرة بلا إضاءة ولا تبريد هواء .. حاول أن يفتح النافذة ، فقابله طقس حار جدًّا وأنواع غريبة من الحشرات ، لم يسبق له أن رآها .. فكانت تحوم حوله ليلتصق بعضها بوجهه ، وكأنها نسيت الطيران ، ويستقر البعض الآخر على وجنتيه أو إحدى ذراعيه .. وبالطبع ، كان النوم دون الناموسية أشبه بمن يلقي بنفسه من الطابق العاشر ، ويتوقع النجاة ، وهنا عرف يوسف أهمية نداء موظف القطار في بداية الرحلة .

مر عليهما شخص نحيف جدًّا ذو شعر أشعث كثيف ، يرتدي سترة زرقاء داكنة ، وتزين صدره على صفين ثمانية أزرار ، كانت ذهبية في يوم من الأيام ، أخبرهما أنه مدير القطار ، وأن الرحلة تستغرق نحو خمس عشرة ساعة ، إذا سارت ًالأمور على ما يرام ؛ أي دون أعطال ، ثم سلمهما ورقة بيضاء متسخة قليلًا عند طرفها الأسفل ، وعليها آثار بصمات أصابع متداخلة ، عرف يوسف بعد جهد أنها قائمة الطعام والشراب .

تأمل يوسف القائمة ، ولكنه لم يفهم منها شيئًا ، وإن كان استطاع أن يتبين أنها تضم نبيذًا فرنسيًّا .. فقد التقطته عينه على الفور ، فتهلل فرحًا إلا أنه سرعان ما خاب أمله ، عندما أخبره سكورت أنه حتمًا سيكون نبيذًا مغشوشًا ؛ حتى يباع في هذا القطار اللعين وبهذا السعر .. لا يمكن أبدًا أن يكون مستوردًا ، ولو حتى من الصومال ..! ظل يوسف ممسكًا بالقائمة بطرفي أصابعه ، بينما ملامح الاشمئزاز تأبى أن تفارق وجهه ، ولكن سكورت ابتسم ، ثم أسرع وارتدى قفازًا ، وتناول منه الورقة برفق وحذر ، وكأنه يجري جراحة دقيقة .. فتعالت ضحكاتهما .

خلف باب الحجرة ، علقت لافتة باللغتين الإنجليزية والساحلية ، تنبه الركاب بضرورة اصطحاب نقودهم ومتعلقاتهم الثمينة ، إذا ما ذهبوا لتناول الطعام أو استخدموا دورة المياه لفترة طويلة !

قال يوسف في ضيق ، وهو منشغل بمحاولة إيجاد موقع ملائم لحقيبته الضخمة ؛ حتى لا تعوق تحركاته بالغرفة :

- ما هذا الفقر والجهل والتخلف .. إن هذه الرحلة ستكون مرهقة أكثر من أي شيء آخر .

ردَّ سكورت في غضب :

- أنا حذرتك من البداية ، وقلت لك أن نستقل سيارة خاصة ، فهذا أفضل .. ولكنك صممت على القطار ، وكأنك في رحلة سياحية بمومباسا حسبما أوهمت نفسك .. هذه البلاد أمامها سنوات طويلة ؛ حتى تتقدم وتصبح مزارًا إنسانيًّا لا سياحيًّا !

أشاح يوسف بيده ، وكأنه لم يعجبه أن يلومه سكورت على اختياره ؛ فهو يحاول تأجيل ذهابه إلى نيروبي قدر الممكن ، كعادته دائمًا ، في الهروب مما لا يعجبه في واقعه ، فيتصرف كالنعامة يدفن رأسه في الرمال حتى لا يواجه انتقادات الآخرين :

- ماذا عن الطعام يا سكورت .. أنا جوعان .. ولم أفهم شيئًا من هذه القائمة .

- سنأكل أسماكًا مشوية في المطعم ، فهي الوجبة الوحيدة ، التي تكاد أن تكون مضمونة في هذا القطار .

- ألا توجد لحوم يا سكورت ؟!

- نعم توجد ، ولكني لا أستطيع أن أحدد لك نوع الحيوان ، الذي ستأكله قبل أن أتذوقه معك .

قالها سكورت ، ثم تدلى برأسه من السرير العلوي بالغرفة ليشاهد تعبيرات وجه يوسف .

صدرت منهما ضحكات مكتومة بعد أن استخدما الوسادات ، كمصدات دفاعية ضد هوام وحشرات ، كانت بالنسبة ليوسف كائنات خرافية ، ثم راحا في سبات عميق .. لحظات وتعالى صوت شخير سكورت من التعب ، بينما نام يوسف ، وهو يحمل على وجهه قسمات إجهاد ، مشوبة بضيق ووجوم ظلت مصاحبة له ، حتى استيقظ بعد ساعات طويلة ليجد القطار واقفًا لا يتحرك، أطل من النافذة ، فقرأ لافتة مكتوبًا عليها بأحرف لاتينية « كيسومو » .. أخرج خريطة صغيرة ، فاكتشف أنهما قد قطعا مائة وأربعين كيلومترًا فقط .. شاهد جمعًا من الأفارقة يفترشون الطريق الجانبي في مواجهته ، ويلوحون له بأيديهم ، ابتسم يوسف .. فمن الآن وصاعدًا لن يرى إلَّا الأفارقة .. أخرج آلة التصوير السينمائي الصغيرة ، والتي لا تزيد بوصتها على 8 مم ، وبدأ في تصويرهم ، فهللوا أكثر وأشاروا إلى مقدمة القطار .

أنزل الكاميرا بهدوء من على عينه وتأمل المشهد .. كانت عربته هي العربة الثانية مباشرة بعد عربة القيادة .. لاحظ أن ما يعوق القطار كتلة بنية متسخة تكاد تصل إلى ارتفاع العربة الرئيسية الأولى .. اندهش جدًّا وعاد ببصره إلى الشباب ، الذين كان يلتقط صورة لهم ، فوجدهم على حالهم يتصايحون ويشيرون له إلى المقدمة مرة أخرى .. ظل يحاول أن يفهم ما يقصدونه ، فلم يصل إلى نتيجة .. استيقظ سكورت ، ووقف في النافذة الأخرى ، وقال ضاحكًا :

- أحضر الآلة التي معك ، فهناك منظر يستحق أن تسجله .

ثم ترك النافذة متوجهًا إلى دورة المياه ، وهو يتثاءب ، بينما أطل منها يوسف بكاميرته ، واندهش فقد شاهد فيلًا ضخمًا قابعًا على القضبان أمام القطار مباشرة ، لا يريد أن يتحرك ؛ خصوصًا بعد أن أحضر له الشباب الذين كان يصورهم منذ قليل كتلة كبيرة من التبن.. ضحك يوسف ، ومضى يسجل المشهد في هدوء !

* * *

8
تويا

ثلاث بنات صغيرات لاتتجاوز كبراهن السابعة عشرة من عمرها .. يجلسن صفًّا واحدًا خلف بعضهن تمامًا ، أمام البحيرة مباشرة ، وكل واحدة تجدل شعر الفتاة التي تجلس أمامها ، ما عدا البنت الأولى التي لم تتجاوز العام السابع من عمرها بعد ..أمامهن جلست تويا.. فتاة في العشرين ناضجة كثمرة فاكهة استوائية ، ملفوفة القوام بعناية فائقة.. ذات شعر مجدول على هيئة ضفائر ؛ حتى منتصف ظهرها تمامًا، تغطي نهديها بقطعة قماش من الكتان ، فلا يظهر منهما إلا بصيص ، ولكنه يوحي بغموض كبير .. شفتاها مكتنزتان وأنفها غير مفلطح ، على خلاف معظم بنات قبيلتها .

كانت تويا جاثمة بركبتيها على العشب الأخضر ، ومستقرة تمامًا في مواجهة الفتاة الأولى ، تلاطفها وتلاعبها وتعلمها كيف تجدل الضفيرة ، مثلما تفعل الأخريات .. قامت بفك إحدى ضفائرها بهدوء ؛ لكي تعلم الفتاة الصغيرة كيف تجدلها ثانية .. فظهرت ابتسامة رقيقة على وجه الصغيرة ، بدت معها أسنانها البيضاء اللامعة .

تويا : هل تستطعين الآن جدلها ؟

هزت الفتاة الصغيرة كتفيها ، وطلت ابتسامة خجل من بين شفتيها ، طغت على وجنتيها قائلة :

- سأحاول ياتويا .

حاولت مرة .. وفشلت ، فقطبت جبينها وحاجبيها الصغيرين الرفيعين ... ولكن تويا أعادت فك الضفيرة في هدوء أمامها ، وشجعتها على إعادة المحاولة حتى نجحت إلّا قليلًا .. وكافأتها تويا بأن صفقت لها بمرح .

كانت الأخريات قد فرغن من جدل الضفائر ، وخلعن ملابسهن بهدوء ونزلن عرايا للاستحمام في البحيرة ، وحين لحقت بهن تويا بعد برهة ، التففن حولها يرششنها بالماء ، وهي تضحك وتغلق عينيها ، ثم ألقت بجسدها الرشيق الأشبه بالأبنوس الأملس في البحيرة ، فشقت صفحتها محدثة جلبة وكأنها تحاول الفرار منهن .

تعالت صرخات من أعلى التل ، جعلتهن تلتفتن إلى مصدر الصوت ؛ فوجدن صبيًّا صغيرًا يقفز بسرعة قادمًا باتجاههن حتى وصل إلى الوادي ، كأنه قرد صغير رافعًا ذراعيه ومشيرًا بيديه.. اعتقدت تويا أنه يحييهم ، فحيته هي والبنات ، ولكن حين اقترب ظهرت أمارات فزع على وجهه بوضوح .

قال الطفل دونو ، وهو يلهث جراء عدوه على المنحدر ، المؤدي إلى ضفاف البحيرة :

- هيا هيا أخرجن من الماء .. إيراي قادم .

كان الصبي يلقي بهذا الخبر ، وكأنه يخبرهن بقدوم ملك الموت .. وعلى الفور خرجت البنات من البحيرة ، محدثات جلبة جراء ارتطام سيقانهن بصفحة الماء في سرعة وهلع .. ارتدين ملابسهن في ثوانٍ معدودة .. بينما ظلت تويا وحدها في البحيرة لايظهر منها سوى رأسها ، وملامح الغضب على وجهها تكسوه بالكامل .

ظهر بعض الغبار أعلى التل ، وما هي إلّا لحظات حتى كان إيراي ، وحوله عشرون رجلًا من أتباعه ، يتصدرون المشهد ... رجل في الثلاثين من عمره فارع الطول مفتول الذراعين ، وإن كانت ساقاه نحيفتين نوعًا ما ، وتبدوان غير متناسقتين مع نصفه العلوى.. أنفه مفلطح وشعره حليق ، عكس رجاله تمامًا، يعلق قطعة من العاج لها شكل بيضاوي في أذنه اليمنى ، ومثلها بطرف أنفه الأيسر ، وإن كانت الأخيرة أصغر قليلًا.

نزل إيراي برشاقة من فوق ظهر حصانه، كان يرتدي ثوبًا قصيرًا من القماش الأخضر ، يلف به وسطه حتى أعلى ركبتيه بقليل ، وكان صدره عاريًا تمامًا .. لوح بيده لرجاله ، بينما نظراته الحادة القاسية تتركز على تويا ، وهي تسبح في هدوء ، وكأنها في حوض سباحة خاص ، لا شأن لها بما يجري حولها .. تحرك ثلاثة من رجاله الأشداء ، مهرولين على المنحدر في سرعة .. أمسك كل منهم بذراع فتاة من الفتيات حتى كاد يعتصرها ؛ فصرخت كل واحدة من شدة الألم .

ترجل بعدها إيراي في برود ، وكأنه أسد يفترس غزلان اصطادتها لبؤاته ! وقف على حافة البحيرة ودق بحربته أرض الشاطئ الرخوة ، ممسكًا بها في شدة حتى نفرت عروق ذراعه الأيمن ، وكادت تنفجر، وفي صوت أشبه بالزئير ، وجه بصره الحاد إلى تويا قائلًا:

- أين راني ؟!

لم ترد تويا ، بل رمقته بنظرة اشمئزاز وأشاحت بوجهها ... ودون أن يلتفت إلى رجاله ، رفع يده اليسرى إلى أعلى قليلًا ، وسرعان ما عادت صرخات الألم تصدر من شفاه البنات ، تشق سكون الأحراش ، التي تخترقها البحيرة الصغيرة ؛ بسبب أصابع رجال إيراي الفولاذية ، التي بدأت تضغط عليهن بشدة أكثر.. أشارت له تويا في غضب أنها لا تعرف أين راني، قائلة في عنف :

- لم أرها اليوم .. هل تظن أنني أخبئها تحت الماء ؟!!

تطاير الشرر من عيني إيراي :

- اسمعي ياتويا .. أبلغيها بأنني سأتزوجها ، وإذا ظلت مصممة على الاختفاء ، فسوف أحرق كل أكواخ الغابة بحثًا عنها ، وحينها سيكون مصيرها الموت .

نطق بهذه الجملة بصوت عالٍ ، ثم عاد أدراجه وخلفه رجاله يتبعونه بمسافة ، حتى غادر الركب ، واختفى كما ظهر فجأة .

* * *

-توقف يا چو .. ألم تمل من تصوير المناظر ذاتها ؟

ابتسم يوسف ، وهو يحرك العدسة نحو وجه سكورت :

- لا... فهذه لقطة نادرة ، سأبيعها لصحيفة الجارديان بمئات الجنيهات .

كان سكورت البدين عاريًا بعد خروجه من الحمام ، وقد لف خصره بمنشفة بيضاء كبيرة ، وقطرات الماء مازالت متلألأة على وجهه وكتفيه .. أشار سكورت بكلتا يديه في اتجاه العدسة ، وهو يضحك ثم التفت بسرعة حتى لايظهر وجهه فانفك رباط المنشفة ، الذي يغطي نصفه السفلي ، وهوى بسرعة حتى قدميه.. لم يتمالك يوسف نفسه من الضحك ، وهو يصور في سرعة في حين انشغل سكورت بستر عورته ، دون أن يتوقف عن السباب والضحك في آن واحد .

سمعا طرقًا خفيفًا على باب الغرفة ..فتح يوسف الباب قليلًا حتى لايظهر سكورت ، وهو لا يزال يرتدي ملابسه ... كان مدير القطار يبلغهما بأنهم وصلوا مدينة نيروبي ، وسيصلون إلى المحطة الرئيسية خلال عشر دقائق .

كانت حقائبهما معدة تقريبًا ..فألقيا فيها ما تبقى من ملابس ، وحزم كل منهما متاعه ، وغادرا غرفتهما ليتوقفا بالقرب من باب النزول ، بين عربتين في صف طويل نسبيًّا ..يفصل بينهما رجل نحيف ، تفوح منه رائحة عرق غير محتملة ، كتم معها يوسف أنفاسه حتى كاد يختنق وكأنه يسبح تحت الماء، بينما استغرق سكورت في ملاطفة ومداعبة طفلة صغيرة ؛ أملًا في تجاذب أطراف الحديث مع والدتها ، التي بدت من ملامحها أنها تنتمي لدول شرق أوروبا ... إلا أنها وأدت محاولاته في مهدها ، بعد أن نهرت طفلتها بشدة إذا ما تحدثت مع الغرباء ! تبادلا نظرات ذات معنى ، ثم كتما ضحكتيهما.

* * *

اعتدل البروفيسور جورج راندال في جلسته ، وأعاد ترتيب الأوراق التي أمامه بعناية قائلًا :

- من الذي سيكون في استقبال يوسف غدًا ؟

أجابه مساعده :

- جيفري وفريقه جاهزون منذ عدة أيام ، ومن الممكن البدء في التجارب على الفئران أو القرود خلال أسبوع ، إذا ما تمكن يوسف من فهم وتطبيق نتائج البحث بسرعة .

قرَّب جورج النظارة الطبية من عينيه أكثر ، بعد أن كانت قد انزلقت قليلًا على أرنبة أنفه ، وقال:

- سيفهمها بسرعة لأنه شديد الذكاء، أرسل لهم بالتليفاكس أن يبدأوا بإجراء التجارب على القرود أولًا ، ولا داعي لإجرائها على الفئران الآن .. لقد تجاوزنا هذه المرحلة .

بدأ المساعد في صياغة الخطاب الذي سيتم إرساله إلى نيروبي، في حين نزع البروفيسور نظارته عن وجهه ، وغطاه بكفيه ضاغطًا بشدة على عينيه، ثم أراح ظهره أكثر في مقعده الوثير بمكتبه بالمؤسسة ، وشرد في النتائج التي ستترتب على العقار الجديد.. أغلق عينيه في هدوء ، وقد ارتسم على وجهه بعض من ملامح الرضا ، وكأنه يتخيل مستقبلًا رائعًا بوضوح وشفافية !

* * *

نيروبي مختلفة تمامًا عن مومباسا ..هناك لن تشعر بملل على الإطلاق .. الفندق مريح جدًّا ومعملك قريب منه ، وهناك سيارة ستنقلك يوميًّا إلى هناك ، وستستغرق في أبحاثك ؛ حتى تكاد لا تجد وقتًا لطعامك أو نومك ، مثلما يفعل معظم أطباء الإرسالية ... ومع ذلك إذا تبقى لديك وقت ، فاترك نفسك لي تمامًا ، وأنا أعدك بالكثير من وسائل الترفيه ، من بينها مشاهدة العرض الراقص لريتا وراؤول كل أسبوع .

لاحظ يوسف أن سكورت ، منذ أن غادرا القطار ، كان يلقى معاملة مختلفة كأنه حاكم نيروبي ... فالجميع في المحطة الرئيسية يقدمون له التحية باحترام وإجلال ، وكان هو يتبادل معهم التحية ، وأحيانًا يداعبهم بتعليقاته الساخرة ويطلق ضحكاته العالية كالمعتاد... سار يوسف خلفه كسائح أجنبي ، يزور بلدًا لأول مرة ، ويبدو خائفًا من أن يفقد أثر مرشده، بينما يسير خلفهما ثلاثة أفارقة

شديدو السمرة ، يحملون عنهما الحقائب ، حتى وضعوها في بطن حافلة صغيرة ، ملصق عليها لافتة بيضاء مطبوع عليها بحروف لاتينية سوداء اسم الفندق ، بخط واضح «ماي فيركورت أوتيل نيروبي» .

سرعان ما استقر يوسف وسكورت أيضًا بداخل الحافلة ، فمضت في طريقها ؛ تاركة محطة السكة الحديد ، خلفها تتضاءل رويدًا رويدًا كنقطة بيضاء ، حتى تلاشت تمامًا عن أنظارهما.

وقف يوسف في بهو الفندق مشدوهًا يتأمل بإعجاب أقرب إلى الانبهار النمط المعماري المتميز لفندق ماي فير كورت ، الذي شيد أثناء الاستعمار الإنجليزي لنيروبي عام 1941 ، والحدائق التي تحيط به على هيئة نصف دائرة ، وكأنها تحتويه ، والتي لم تستطع عيناه أن تصل إلى نهايتها .

وظلت رقبته تؤلمه لأيام جراء تطلعه للرسوم ، التي تزين سقف البهو الذي يكاد يتخطى حاجز العشرين مترًا والثريات الضخمة التي تتدلى منه كعناقيد العنب .. واللوحات الزيتية التي تقلد أعمال كبار الفنانين في العالم ، والتي زينت بها جدران البهو ، بعناية شديدة من ترتيب شخص مرهف الحس الفني ... ألوان الجدران تتماشى مع لون أقمشة الصالونات الصغيرة المتناثرة في الأركان ، ولكل منها خصوصية ، كأنها جزر منعزلة مبعثرة ولكن بدقة !

كان العاملون في الفندق ودودين للغاية، لا تفارقهم الابتسامة ، وكأنها مرسومة على شفاههم .. ووجد يوسف نفسه يلقى ترحيبًا مضاعفًا، وأيقن أن هذا الترحيب ليس فقط لأنه ضيف جديد بالفندق ، ولكن لأنه حضر بصحبة سكورت المدير المقيم للفندق ، ولاحظ يوسف أن سكورت تحول إلى شخص صارم الملامح فجأة ، شديد البأس مع موظفيه ، منذ أن وطأت قدماه بوابة الفندق ... وإن كان المرح لا يفارقه، كما لاحظ أنه يتمتع باللين أيضًا إذا لزم الأمر .

وضع يوسف يديه في جيوبه وسار ، حتى وقف أمام واجهة زجاجية شفافة ، تكاد لاترى ، يتأمل حوض السباحة ذا الشكل الهندسي الجذاب المقام خلفها ، والسطح الرخامي على أحد جوانبه ، وقد رصت عليه زجاجات خمر متنوعة الأشكال والأحجام .. ولاحظ أن هذا الجانب مضاء بإضاءة زرقاء خفيفة ، تضفي عليه جوًّا ساحرًا فتزيده غموضًا وجاذبية ، تغري بالذهاب إليه فورًا... أحس يوسف بيد تربت على كتفه ، فأفاق من تأملاته ، والتفت ليجد سكورت يسلمه مفتاحًا معدنيًّا ضخمًا ، يتدلى منه لوح صغير من الخشب محفور عليه رقم غرفته .. ومن الناحية الأخرى خريطة للمدينة دقيقة للغاية ، تكاد لا ترى بوضوح من فرط صغرها.

عندما فتح يوسف نافذة غرفته التي تؤدي إلى تراس صغير ، يسمح فقط لشخصين متلاصقين بالوقوف فيه، شعر بأنه قد انتقل إلى عالم خيالي .. مكان رائع ، لم يكن يتصور أنه موجود على ظهر الأرض.. غابة بلا نهاية أشبه بالأدغال ، التي لم يرها إلا في الأفلام السينمائية .. وفي خلفية المشهد، قمة جبل تبدو بعيدة ولكنها واضحة .. أسرع إلى الداخل فجأة ، وعبث بمحتويات حقيبته اليدوية ؛ ليخرج آلة التصوير وأعدها على عجالة ، وهو يعود أدراجه إلى التراس... أدارها ووقف يسجل لحظات نادرة بالنسبة له.. زرافة تأكل أوراق شجر جافة ، وترمقه بنظرات تحمل قدرًا من الريبة من حين لآخر ، أو هكذا خيل إليه .

ابتسم قليلًا فاهتزت يده ، وفي هذه اللحظة سمع صفيرًا متقطعًا ، فهم معه أن بطارية الآلة قد نفدت .. أغلقها ووقف يتأمل هذا الحيوان الضخم ، الذي لم يره منذ عشرين عامًا ، وتذكر أن ذلك

كان في حديقة الحيوان بالجيزة ، والتي يقطن في مواجهتها مباشرة .. وكانت زيارتها أيام الأحد من كل أسبوع إحدى هواياته أيام الدراسة الابتدائية .. ولم يستطع أن يمنع نفسه من التفكير في الفرق الشاسع ، بين الزرافة التي يراها الآن حرة طليقة بألوانها الزاهية وكأنها ترتدي جلدها لأول مرة ..! وتلك الهزيلة القابعة وراء جدران صدئة بحديقة الجيزة ، بعد أن بهت جلدها واجرب من قلة النظافة وسوء التغذية .

هز رأسه في أسى ، ثم دلف إلى حجرته .. وبحركة لا شعورية ، تأكد أنه أحكم إغلاق النافذة ، بعد أن انتابه شعور غريب بأن حيوانات أخرى ربما تقرر أن تكون في ضيافته ، إذا ما ترك نافذته مفتوحة !!

* * *

توقفت تويا بالقرب من الكوخ الأكبر بين أكواخ قبيلتها .. ابتسمت في أدب لاثنين من المحاربين الأشداء ، يقفان لحراسة زعيم قبيلتها السابق أداتوا ، الذي عزله مينجو الزعيم الحالي منذ عشر سنوات تقريبا ، عندما تحالف مينجو مع قوات الاحتلال الإنجليزي ضده ، قبل التحرير والاستقلال عام 1963 .

سمح لها بالدخول ، كان الحكيم أداتوا يجلس على طاولة خشبية مبطنة بجلد حمار وحشي ، تغير لونه قليلًا جراء تعرضه للشمس كل عدة أيام.. وحوله آنية فخارية تحوي لبن ماعز ، تطفو على سطحه كسرات خبز يقلبها بعصا خشبية مفلطحة . . انحنت أمامه تويا في أدب وخشوع مرتين ، حتى أذن لها بالجلوس ، فجلست على مسافة قريبة منه ؛ خافضة رأسها قليلًا ... رحب بها أداتوا ، واستفسر منها عن أحوالها وأحوال أسرتها الصغيرة ، ثم اعتدل في جلسته قليلًا ، وكأنه يشير لها بأن تتحدث فيما أتت إليه ، حسبما أخبرته زوجته منذ يومين بأنها تريده في أمر مهم .

رفعت تويا عينيها الجميلتين الواسعتين ، واللتين تومضان بلمعة وبريق ، عندما تبتسم أو تفرح .. شجعتها ابتسامته الحانية على الحديث ، فقالت :

- لن أطيل عليك ياسيدي ، إنك تعلم جيدًا أن مينجو زعيم قبيلتنا لا يزال يستنزف مواردها لصالح الأجانب ، وإيراي الساحر يعاونه لأنه يطمح في قيادة القبيلة خلفًا له ، والآن يريد إيراي أن يتزوج من شقيقتي في الدم ، وصديقتي الوحيدة راني ، وهي لاتحبه ولا ترغب في الزواج منه ، ولأنك المسئول عن توثيق زواج أهل قبيلتنا .. فلقد جئت أسألك : هل ترى أن هذا الزواج سيكون صحيحًا ، وهي لاتريده كزوج ؟!

لمعت عينا الرجل العجوز ، رغم أنه تجاوز الثمانين بقليل ، ولم يستطع أن يمنع نظرة إعجاب بفصاحة تويا ومنطقها ، وعرضها لمشكلة راني بنبرة صادقة ، لا تخلو من حسرة على مستقبل صديقتها ، وإصرار على انتزاع حقها في أن تختار زوجها ، الذي ستنجب منه أطفالًا ، يحملون على عاتقهم مهمة حماية قبيلتها عندما يشتد عودهم .

- اسمعي يا ابنتي ، وفقًا لتقاليدنا، المرأة ليس لها الحق في اختيار زوجها ، بل هو الذي يختارها ، ويكون لها الشرف بهذا الاختيار .. هذا الزواج سيكون صحيحًا ، حتى ولو رفضته راني .. ولكني واثق من قدرتك على إقناعها. إن إيراي قد يكون رجلًا غير صالح ، الآن هو مفتون بقوته ، ولكننا نؤمن دائمًا بالأمل في التقويم والإصلاح .. وقد تكون هذه هي فرصة راني لأن تؤدي عملًا نافعًا ؛ فتصلح من سلوكه ، وتنزع الروح الشريرة منه .

شعرت تويا بأن أداتوا قد خذلها هذه المرة ، ولكنها لم تستسلم . ورغم أنها جزعت لوهلة وتسربت إليها روح اليأس ، فإنها سرعان ما طردتها قائلة :

- ولكنك وقفت بجانبي ، عندما طلب إيراي العام الماضي أن يتزوجني في احتفالات القبيلة بعيد الشمس .. فلماذا تتراجع الآن عن مساندتي !!

شعر أداتوا بقوة منطقها هذه المرة ؛ خصوصًا أنها أعطته مثلًا منطبقًا تمامًا ، ولم تمر عليه مدة طويلة.. فاتكأ على مسندي طاولته التي كان يجلس عليها ، وهي أشبه ما تكون بأريكة بلا مسند خلفي ، ووضع قدميه في خف أزرق من القماش السميك ، ونهض ليقترب من تويا ، التي وقفت تأدبًا فوضع قبلة على جبهتها العريضة ، ثم استند على ذراعها الأيسر ، فاستجابت له في هدوء .. فقال لها :

- هيا نخرج لنمشي قليلًا في الخارج .

ثم أشار لحارسه ألا يتبعه .. مضى يسير معها بعيدًا عن الأكواخ الثلاثة المخصصة له ، والتي تحمل الشكل التقليدي للكوخ المصنوع من القش وجذوع الأشجار الخشبية السميكة .. سارا بمحاذاة شريط أخضر ، داخل ممر أعد خصيصًا للذهاب إلى المعبد يوم الثلاثاء ، من كل أسبوع ، لأداء الطقوس ، بينما تناثرت أشجار متفاوتة الأطوال على الجانبين ، ترعى خلفها أبقارًا طليقة في مرعى وسط الأحراش .. ثم قال أداتوا :

- هل تعلمين إنك الوحيدة في هذا العالم ، التي جعلتني أغير من آرائي وأحكامي طوال عمري .

ابتسمت تويا في خجل ، حتى كادت وجنتاها أن يحمر لونهما ، لولا أن حال سمار بشرتها دون إتمام ذلك .

استرسل أداتوا في حديثه :

- تويا .. أنت مختلفة عن الجميع .. أفكارك وطريقتك في الحياة مختلفة ، تصرين دائمًا على الإصلاح، تشعرين بالمسئولية تجاه قبيلتك، تحبين الأطفال وترعينهم ، تساعدين الأجانب القريبين منا والوافدين إلينا .. أنت لا ترين الحياة مأكلًا ومشربًا ، أو احتفالات زواج وإنجاب أطفال فقط ، بل تبحثين دائمًا عن الكمال ، وكأنك راهبة في محراب مقدس ... أنت يا تويا مثل اسمك زهرة برية ذات أربع ورقات، نبات طبيعي في الأحراش .. نفل دقيق رقيق جميل .. أمر نادر الحدوث ؛ فلديك تلقائية وطبيعية أكثر من الطبيعة نفسها ، حتى إنني لا أعتبرك فردًا من قبيلتنا ، بل أنت جزء من هذه الطبيعة الخلابة التي تحيط بنا .

وضحك بلطف فضحكت معه ، و لكن بصوت منخفض .

أردف أداتوا قائلًا :

- إصرارك على عدم الزواج من إيراي أعجبني .. كذلك مقتك للغدر والخيانة ، حسبما يقال عنه شجعني على مساعدتك في عدم إتمام زواجك منه ... وأعترف لك بأنني لا أجد إيراي أو غيره جديرًا بك، فأنت مختلفة يا تويا .. حتى ملابسك مختلفة، أنت الوحيدة التي ترتدي قطعتين من الملابس في قبيلتنا .

أطرقت تويا خجلًا مرة أخرى ، وهي تتأمل سترتها العلوية التي تغطي صدرها الناهض ، والتي نسجتها بخيوط ذهبية في العيد الماضي ؛ لتحضر بها الاحتفال السنوي بعيد الشمس..

- أرجوك يا سيدي أن تعتبر مشكلة راني مثل مشكلتي ، وأن تبحث لها عن حل ؛ فأنتَ الوحيد القادر على ذلك .

- راني ليست مثلك .. إنها فتاة عادية لابد أن تتزوج يومًا ما ، أما أنت فلا أعتقد .. لقد وهبنا الله إياك لتكوني المسئولة عن إسعادنا ورعاية الجميع.. كما أنك لا تفكرين في الزواج حسبما قررت لي العام الماضي ، ومع ذلك أعدك بأنني سأبذل قصارى جهدي ؛ لعدم إتمام هذا الأمر ، ولكنني سوف أتحدث مع راني أولًا .

ثم وضع يده على كتفها واحتضنها برفق ، بينما كان قرص الشمس يميل إلى الغروب وراء الجبل ، وكأنه يتهيأ للاختباء .

* * *

ضحكت كاترين بشدة ، وهي تتذكر كم المعاناة ، التي كان يلاقيها يوسف أثناء قيادة السيارة في إنجلترا ؛ فهو رغم زياراته الطويلة لليـﭬربول والتي كانت تدوم شهورًا .. ورغم السنوات الأخيرة التي عاشها هناك بالكامل أيضًا ، ظل يكره القيادة على الجانب الأيمن ، ويجد صعوبة بالغة في استخدام يده اليسري لتحريك ناقل السرعات ، وفي كل مرة كانت تجلس بجانبه ، وهو يقود سيارته ، كانت تشعر وكأنها المرة الأولى له في قيادة السيارة !

- إنك تبالغين يا كاترين .. أنا أراه سائقًا ماهرًا مثلما هو في كل شيء يفعله ، لابد أن يتقنه حتى ولو لم يحبه .

قالتها السيدة براون بثقة وتعالٍ في آن واحد.

كانت كاترين تقود سيارة يوسف الخضراء المكشوفة ، وبجوارها السيدة براون ، والتي أصرت على إغلاق سقف السيارة أثناء السير في طريقهما لحضور حفل الكوكتيل الشهري ، للمرة الأولى ، دون يوسف منذ عامين .. كان الميناء رابضًا في الظلام ، إلا من أنوار قليلة تبدو بعيدة على يسارهما.. هدأت كاترين قليلًا من سرعتها ، مبتسمة كمراهقة ، لها ذكريات مع فتاها في مكان لقائهما الأول ، ثم انعطفت يمينًا ومضت في طريقها مرة أخرى .

أشارت السيدة براون إلى مبنى عتيق على شكل حرف U مقلوب قائلة :

- الأسبوع المقبل ، لدينا دعوة لحضور افتتاح معرض لوحات فنية لرسام إسباني شاب هنا في ووكر آرت جاليري.. هزت كاترين رأسها في لا مبالاة ، فلم تكن الفنون ضمن أولوياتها ، بل لم تكن تثير اهتمامها على الإطلاق .

تركت كاترين السيارة أمام واجهة فندق بريتانيا إدلفي العريق ؛ حيث يقام الحفل الشهري تلك المرة ، ومضت تسير في خيلاء ، لا تعرف لها سببًا بجوار السيدة براون ، التي لم يفتها تأنيبها على حالة الشرود التي انتابتها ، منذ أن هدأت السرعة بجوار الميناء ، والتي جعلتها تستاء منها قليلًا ، فسبقتها السيدة براون بخطوة ، وكأنها تعاقبها على شرودها بتركها متأخرة عنها قليلًا !

* * *

- ما هذا الذي ترتديه يا چو ؟!

تعالت ضحكات سكورت عالية ، وإن كانت أقل كثيرًا في وتيرتها عما كانت عليه في السفينة .

نظر إليه يوسف باندهاش ، فقد كان يرتدي سترة تشبه لون الخردل ، وقميصًا بلون السماء الصافية ورابطة عنق من اللونين الأصفر الفاقع والأزرق الداكن وحذاءً بنيًّا فاتحًا ، ويحمل حقيبة جلدية متوسطة داكنة اللون كقشر البندق ، وبيده الأخرى قبعته البيضاء المحببة إلى قلبه .

ظل يوسف في انتظار إيضاح أكثر من سكورت بشأن ملابسه ، بينما كان سكورت منشغلًا بتوقيع أوراق لأحد المديرين الماليين بالفندق على عجالة ، وهو يقلبها بعين خبير مدربة على التقاط التفاصيل بسرعة .. ما إن فرغ من الأوراق ، حتى تركه سكورت متوجهًا إلى مكتبه ، فناداه يوسف ليتوقف .. التفت سكورت قائلًا :

- لقد نسيتك .. أنا آسف يا چو .. أنت ذاهب إلى الإرسالية اليوم ، أليس كذلك ؟!

أومأ يوسف بالإيجاب ..

- إذًا اخلع هذا الزي الرسمي ، الذي لن تستخدمه سوى في هذا الفندق فقط ، أو لدى السفير الإنجليزي ، إذا ما دعاك إلى تناول شاي الخامسة مساءً بصحبة زوجته الثرثارة !

رد يوسف في ضجر :

- ماذا أرتدي إذًا أيها الحكيم العالم ببواطن الأمور؟!

أجابه سكورت في تعالٍ ، وقد تدلت شفته السفلى إلى قرب ذقنه ، متصنعًا الغطرسة والقرف :

- ارتد سروالًا قصيرًا وقميصًا قطنيًّا مثلما كنت تفعل على سطح السفينة .. الجو هنا حار يا چو ، والإرسالية تقع وسط الأحراش .. كيف ستعمل وأنت ترتدي سترة كاملة .. تنقصك مظلة ومعطفًا !

قالها ساخرًا ثم عاد يضحك ، وترك يوسف بمفرده في البهو ، وقد اقترب من المرآة التي يحيط بها إطار من العاج ، فيضفي عليها ظلًّا أثريًّا يحمل عبق التاريخ ، وتأمل نفسه بروية .. شعر بالفعل بأنه خارج إطار الصورة ..! دقائق قليلة مضت.. بعدها كان يوسف يجلس في المقعد المجاور للسائق الكيني ، في سيارة تويوتا لاند كروزر خضراء اللون أيضًا كسيارته .. متوجهًا إلى مقر الإرسالية ، مرتديًا ملابس خفيفة ، مطبقًا نصيحة سكورت بحذافيرها .

عبرا وسط المدينة الذي لا يبعد أكثر من خمسة كيلو مترات عن الفندق ، ثم مرّا على ضواحي باركلاند ، وعندها أخبره السائق أنها منطقة سكنية ، ويمكن مشاهدة بعض الحيوانات غير المفترسة بها في بيئتها الطبيعية ، ولكن بأعداد محدودة وبمراقبة حكومية.. قام يوسف على الفور بتدوين اسم المنطقة في مفكرته ؛ لتكون وجهته القادمة في إجازته الأسبوعية .

بعد نحو ثلاثة عشر كيلو مترًا قطعتها السيارة في طريق غير ممهد، انعطفت يسارًا في الأحراش القريبة ؛ حيث تنتشر أكواخ القش الصفراء بكثرة وبلا تخطيط ، وتوقفت أمام مبنى من طابقين على شكل حرف L ، تقف أمامه سيارتان مماثلتان للسيارة التي يستقلها ... أشار السائق إلى المبنى ، وعلى وجهه ابتسامة لطيفة :

- لقد وصلنا .. ها هو مقر الإرسالية دكتور يوسف ... سأعود لأقلك للفندق في الخامسة تمامًا .

سحب يوسف حقيبته من الخلف ، ووقف قليلًا يتأمل المبنى ، ثم دلف إليه بخطى مترددة نوعًا ما .. لقد حان وقت العمل ، ولا مفر من مواجهة الواقع الآن !

* * *

9
دونو

المعامل في أي مكان من العالم متشابهة إلى حد كبير ، الرائحة ذاتها ، التي تقتحم أنفك، القوارير المنتفخة والمتراصة في حالة ترقب ، بعضها ممتلئ والبعض الآخر ينتظر دوره .. حتى خطوط امتداد مواسير المياه والغاز المتجاورة الرفيعة على الحائط لم تختلف على الإطلاق .. شكل الأرضية ذات البلاطات المربعة الصغيرة البيضاء .. أحواض التعقيم العميقة الضخمة.. حتى هيئة الباحثين والأطباء ، وكأنها متفق عليها مسبقًا !

أما ما لفت نظر يوسف اليوم في مقر أبحاث الإرسالية التابعة لمؤسسة جورج راندال ، ولم يسبق له رؤيته بخلاف بعض الأجهزة المتطورة لإجراء أبحاث كيميائية.. فكان أقفاص قرود متراصة في نهاية المعمل .. ثلاثة أقفاص كبيرة .. أحدها يحوي قردًا تبدو عليه ملامح الاكتئاب ..

ظل يوسف يتأمل القرد لبرهة ، شعر معها وكأن القرد يناجيه ، طالبًا منه إنهاء عذابه ؛ إذ كان يشتبه في حمله للفيروس المسبب لمرض الجذام ، وتجرى عليه تجارب شرسة بلا هوادة ، أفقدته شهيته للطعام وربما للحياة أيضًا .. تلاقت عيناه مع عيني القرد ، الذي بدا له عجوزًا بعض الشيء ، رغم أنه لم يتجاوز العامين ، كما تؤكد بطاقة الوصف الملصقة بملف البحث الخاص به .

شعر بجزع لوهلة وانتفض جسده قليلًا :

- رباه .. إذا كان هذا شعوره تجاه قرد ، فكيف سيشعر حيال أطفال أو عجائز مصابين بهذا المرض اللعين !

غادر المعمل عائدًا إلى غرفة مكتبه التي تم تجهيزها له ، بعد أن عقد اجتماعًا مطولًا مع الباحثين بمقر الإرسالية ، تسلم فيه منهم ملفات الأبحاث ، التي أجروها في الأشهر الستة الماضية ، واستمع إلى كل منهم مطولًا عن ملاحظاتهم ، ولاحظ أنه لم تأت للمركز حالات آدمية مصابة منذ عام تقريبًا .. وقرر إعطاء نفسه مهلة .. أسبوعًا للقراءة .

و قبل أن تنتهي فترة الأسبوع ، وجد نفسه يمدها أسبوعًا آخر ؛ لتصل فترة دراسته لجميع التجارب والملفات إلى ثلاثة أسابيع في النهاية ، واحتار هل قام بذلك لأنه يحاول الهروب من قدره ، وتقليل مدة بقائه في نيروبي قدر الإمكان أم لأنه كان يبحث عن نتائج إيجابية ، تشجعه على البقاء ؛ حتى تسكن آلام المرضى ، التي أوجعت قلبه من مجرد القراءة عنها.. المشاعر المتناقضة كانت تتنازعه، كان من داخله رافضًا البقاء في هذا المكان ، وفي الوقت نفسه يحلم بالتوصل لعلاج لهذا المرض اللعين .. شعوران يتناحران في أعماقه ، بشراسة تنهكه ، وتجعل ذهنه مرهقًا بالتفكير ومثقلًا بالهموم ، رغم أنه لم يبدأ العمل بعد !

انغمس يوسف في القراءة والأبحاث ، فلم يكن يغادر غرفته إلا لتناول الطعام أو الذهاب للمعمل، أما فيما عدا ذلك فلم يكن يفعل شيئًا سوى البحث وتدوين الملاحظات. وبعد نحو شهرين ، كان قد انتهى إلى لا شيء تقريبًا ... فالنتائج جميعها سلبية .. القرد لا يستجيب للعلاج ، وتزداد حالته سوءًا ، والفئران لم تعد تصلح لإجراء التجارب ، من وجهة نظره ؛ مما جعله يستبعد التقارير التي تخصها منذ البداية .

وحين عرض خلاصة ما توصل إليه من نتائج على العاملين معه بالمعمل ، ارتسمت على وجوههم خيبة أمل متوقعة ، فقد كانوا فاقدي الأمل منذ البداية ، ومتوقعين لهذه النتيجة ؛ مما جعل كلامه لا يحرك فيهم ساكنًا .

لم تكن هناك حالات إصابة بين أهالي المنطقة المحيطة بالمعمل ، أو حالات قديمة تتردد للعلاج ، رغم اكتشاف إصابتها بالمرض ، ولم يصادف حتى مجرد اشتباه بالإصابة ، ولما استفسر من مساعده جيفري عن غرابة هذا الأمر ، أجابه باقتضاب شديد بكلمتين :

- لا أعلم !!

وبالتالي ، لم يكن هناك ما يضطره للبقاء في المعمل ، أو ما يشغل باله كثيرًا في الاستمرار في البحوث ، فقرر أن يستريح لمدة ثلاثة أيام ، يذهب فيها إلى قلب مدينة نيروبي وإلى بارك لاند لمشاهدة الحيوانات في بيئتها الحقيقية ، وعلى طبيعتها والتنزه أيضًا في الأحراش القريبة من فندق ماي فير من الجانب الآخر ؛ الذي يتجاهله الجميع ؛ مما أثار فضوله أكثر .. فرتب مع سكورت أن يذهبا - معًا - في عطلة نهاية الأسبوع إلى أي من تلك الأماكن تباعًا .

ارتدى يوسف سروالًا قصيرًا وقميصًا من الكتان الأبيض ، ووضع قبعته على رأسه ، واستعان على مواجهة الشمس ، التي تتوسط كبد السماء مبكرًا عن موعدها تلك المرة ، بنظارته السوداء الضخمة ، التي تكاد تخفي ثلاثة أرباع وجهه خلفها .. وحمل حقيبته الصغيرة على ظهره ، بعد أن تأكد من وجود آلة التصوير بداخلها وبطارية إضافية ، وتوجه للباب الخلفي للفندق المؤدي للغابة سائرًا على قدميه .

- إلى أين تذهب بملابس الصيد تلك يا چو ؟!

قالها سكورت ، وهو يشرف على نظافة الجانب الآخر من الفندق ، ويعطي تعليمات حازمة لعمال التنظيف ، بعد أن لاحظ وجود طبقة أتربة رقيقة على نوافذ المدخل .

- سأذهب في نزهة بتلك الأحراش القريبة .

- بمفردك ؟ !!

رد يوسف بسخرية :

- وهل الأمر يحتاج لمرشد سياحي في هذا المكان أيضًا ؟ ثم ألن تأتي معي كاتفاقنا ؟!

اقترب منه سكورت ، وهو يبتسم :

- نعم ستحتاج إلى مرشد ..هذا إذا كنت لاتريد أن تكون طعامًا للأسود ، يا طبيبنا العزيز .. وأنا لم أذهب إلى الجانب الآخر أبدًا ، ولا أنوي ذلك مستقبلًا .

تغيرت ملامح يوسف قليلًا .. وردّ عليه بجدية :

- هل تمزح ، أم ماذا ؟!

- أنت ترى من غرفتك الحيوانات الأليفة التي تقترب من الفندق في أمان ، أما المفترس منها ، فيكمن في الأحراش القريبة ينتظر أمثالك ، ممن لا يقرأون التعليمات المعلقة خلف باب الحجرة بعدم الذهاب إلى الجانب الآخر ، فيكونون فريسة سهلة ووجبة شهية لهم.. وأنت ياعزيزي ستكون

طبقًا رائعًا مزيجًا إنجليزيًّا مصريًّا لا يتكرر.. ويا لها من وجبة شهية ، بل دعنا نقل إنها وليمة رائعة!!

قالها ثم أطلق ضحكته العالية كالمعتاد .

أسكته يوسف بيده التي وضعها على فمه المفتوح ، وهو يقول :

- كفى سخافة ... لا أريد أن تنتهي حياتي ، كوجبة لحيوانات مفترسة في نيروبي .. ماذا تقترح عليّ إذًا ، هل أنتظرك حتى تفرغ من عملك ونذهب معًا ؟!

- لا .. لن أذهب معك .... ولا داعي لانتظاري .. بإمكانك اصطحاب دونو معك ، ولكن لا تتوغل كثيرًا في الأحراش .

يوسف في دهشة :

- ومن يكون هذا الدونو ؟

سكورت ضاحكًا :

- صبي صغير ظريف جدًّا من قبيلة الكيكيويو يتردد على الفندق بانتظام ، ويعاوننا أحيانًا في بعض الأعمال الخفيفة .... ومنذ العام الماضي ، وهو يصطحب نزلاء الفندق في جولات سريعة بين الأحراش ؛ لأنه يعرف دروبًا آمنة ، حتى أصبح الجميع يعتبرونه جزءًا من برنامج زيارتهم للمكان ، وكذلك نحن ..! اجلس في حديقة البهو ، وسوف أرسله لك فورا .

جلس يوسف في الحديقة الصغيرة المؤدية لبهو الفندق ، كما طلب منه سكورت ، يتصفح جريدة يومية تصدر باللغة الإنجليزية ، وأشعل سيجارة ثم طلب مشروبه المفضل ، وبدأ يحتسيه ببطء ، وهو منهمك في القراءة.. وبعد برهة استولى عليه شعور غريب ، وكأن هناك عيونًا تراقبه، التفت حوله فلم ير أحدًا .

عاد للقراءة ، إلا أن الشعور نفسه انتابه مرة أخرى .. فخفض جريدته وتلفت يمينًا ويسارًا فلم يجد أحدًا ، رغم أن الشعور نفسه لم يفارقه .. بعد برهة ، لاحظ حركة خفيفة خلف مجموعة من الأشجار الصغيرة المتشابكة ، بالقرب منه فتظاهر بعدم الاهتمام ، ثنى الجريدة قليلًا ، ووجه بصره تجاه الأشجار بحذر .. فشاهد طفلًا صغيرًا ، أسمر البشرة ، يضع طاقية مزركشة باللونين الأحمر والأخضر على رأسه ، ويتحرك بهدوء شديد خلف أغصان الشجر الكثيف المواجه له ، وهو جاثم على ركبتيه ، ثم يطبق على شيء بين أصابع يده يتأمله ويبتسم .

وفجأة شاهده يوسف يرفع ذراعه استعدادًا لتصويب هذا الشيء في اتجاهه .. طوى يوسف جريدته ، واتخذها واقيًا لوجهه وركض منتفضًا من مقعده في اتجاه الصبي ، الذي باغتته حركة انقضاض يوسف عليه كالنمر .. ففقد توازنه حين حاول الهرب ، واصطدم بغصن جاف متدلٍ من الشجرة الملاصقة ... وانكفأ على وجهه ، وعندها أمسك يوسف بتلابيبه ، وفتح يده عنوة ليرى ما بداخلها والصبي لا يكف عن الابتسام .

و لدهشة يوسف لم يجد في يده سوى ثمرة بندق صغيرة !

- ما هذا ؟ من أنت وماذا تريد ؟

أجابه الصبي .. بينما لم تفارقه الابتسامة البريئة نفسها ، وجهه وعيناه لا تخلوان من شقاوة تكاد تقفز منهما قفزًا :

- أنا دونو .

هدأ يوسف ومد يده إلى دونو فالتقطها هذا الأخير ، ونهض في رشاقة وخفة صبي صغير ، لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره، قصير القامة ممتلئ قليلًا يرتدي زيًّا غريبًا أشبه بفستان فتاة مراهقة من اللونين الأخضر والأحمر ، تتوسطه دائرة برتقالية عند منتصف بطنه تمامًا وينتعل حذاءً رياضيًّا أبيض ، يبدو أنه حصل عليه من أحد نزلاء الفندق مؤخرًا ؛ فقد كان يبدو نظيفًا وجديدًا أيضًا .

صارت بين يوسف ودونو ألفة سريعة ، وعندما علم الصبي أن يوسف طبيب ، تهلل وجهه معلنًا ، في ثقة ، أنه يتمنى أن يكون طبيبًا هو الآخر ، ثم أخبر يوسف أنه تمكن من علاج بقرة جارتهم منذ عدة أيام ببعض الأعشاب ، بعد أن كادت تنفق .

سار يوسف ودونو معًا في اتجاه الأحراش ، وأعجب الفتى الصغير كثيرًا بآلة التصوير السينمائي ، التي لم تفارق يد يوسف في رحلته ، فلم يكن قد رأى مثلها من قبل .. وعندما بدأ يوسف يلتقط له بعض اللقطات ، ظل دونو يقفز قفزات قصيرة سريعة كقردٍ صغير ، ويؤدي حركات بهلوانية في فرحة عارمة .

حاول يوسف أن يدخل الفرحة إلى قلبه ، فطلب منه أن يستخدمها .. أمسكها الصبي مقلوبة في البداية ، ولكن سرعان ما صحح وضعها بين يديه ، وإن ظل يحركها بسرعة كبيرة ، وكأنها سلاح يصوبه على كائنات تتحرك أمامه فيحاول إصابتها .. أمضيا وقتًا لطيفًا وسط الأحراش .. التقط يوسف خلاله لقطات رائعة لحمر وحشية ، تشرب من جدول صغير ، وزرافات تأكل أوراق شجر في استمتاع ، وغزلان تمرح في سعادة .. ووجد يوسف نفسه يألف كل ما يحيط به من مناظر ، كانت تبدو غريبة عليه في البداية ، مثل : مناظر الحيوانات المختلفة والطبيعة الرائعة في الأدغال ، ومشهد صدور السيدات الإفريقيات العاريات ، اللاتي اكتفين بإخفاء نصفهن السفلي فقط .. بينما تركن صدورهن تتدلى وتتأرجح في حرية إذا ما تحركن !

- إلى أين تذهب بنا يا دونو الآن ... أعتقد أنه قد حان وقت العودة ؟!

- سأريك البحيرة الموجودة في الناحية الأخرى من هذا التل ، ويمكننا أن نستحم هناك ، فالمياه رائعة وصافية جدًّا .

أطاعه يوسف ، وإن كان لا ينوي الاستحمام خوفًا من التماسيح ، ومضى يتبعه ... صعدا المنحدر من ناحية الأحراش الكثيفة ، حتى بلغا قمته ثم شرعا في النزول بحذر من الجانب الآخر على السهل المنبسط .. كانت البحيرة مغرية بالسباحة فعلًا كما قال دونو... تشق السهل الممتد على ضفتيها في روعة وصفاء ، وتحيطها الخضرة وكأنها تحتضنها ، وتنعكس الشمس بأشعتها القوية الدافئة قبل الغروب على صفحة الماء ، فتضيف إليها بريقًا يتلألأ في بهاء.

خلع «دونو» ملابسه كلها وقفز إلى الماء ، وكأنه يعرف طريقه مسبقًا ، وظل يوسف جالسًا على ضفاف البحيرة يراقبه مبتسمًا ، وهو يستمتع بالسباحة ويلهو ، بما يتناسب وبراءة وطفولة من هم في مثل عمره .

سجل له يوسف لحظات جميلة بآلة التصوير ، حتى أوشكت الشمس على الغروب فغادرا المكان ، وهما يتجاذبان أطراف الحديث.. وقد وضع يوسف يده اليمنى فوق كتف «دونو» ، والأخير يتطلع إليه ورأسه وعنقه مشرئبان ناحية وجه يوسف ، وبين برهة وأخرى ، يقفز قليلًا متحدثًا بانفعال ، بعد أن كتبا معًا أول صفحة في كتاب صداقتهما الجديدة.

* * *

الساعة تدق الخامسة تمامًا ... السيدة براون تقدم قدحًا من الشاي للبروفيسور جورج ، بينما كانت كاترين تتولى وضع قطعة من الكعكة الطازجة المحشوة بالفاكهة.. قطعتها بعناية فائقة خصيصًا له ، ووضعتها في صحن أخضر صغير .

- ماذا بك اليوم يا بروفيسور .. تبدو متجهمًا إلى حد ما ؟!

قالتها السيدة براون ، وهي تجلس واضعة ساقًا فوق أخرى بأرستقراطية حقيقية ، لا تشوبها شائبة اصطناع أو تقليد .

زفر البروفيسور جورج زفرة عميقة قائلًا :

- بل متجهم كثيرًا إن شئت الدقة ... وصلني اليوم تقرير من يوسف ، يريد فيه إنهاء إرساليته الطبية ، التي جاهدت كثيرًا من أجل أن أحصل له عليها ضمن دراسته العلمية ، ومع ذلك أرسل لي تقريرًا سيئًا متشائمًا ، يطالبني فيه بإنهاء الأبحاث تمامًا ، ويؤكد لي أنه لا فائدة منها .

صمت قليلًا ، ثم أردف بعد أن أشعل سيجاره الضخم :

- إنه يريد أن يعلق فشله وكسله على أمور أخرى ، وأنا لا أكاد أصدق إنه استسلم لإحباطاته هكذا بهذه السهولة .. لقد خذلني فعلًا ...لم أكن أحسبه أبدًا بهذا القدر من الضعف والانهزامية .

لم يعجب الحديث أبدًا السيدة براون ، بينما ابتسمت كاترين في طفولة ، وسألته بلهفة :

- ومتى سيعود يوسف يا بروفيسور؟

قبل أن يشرع البروفيسور جورج في الإجابة .. قالت السيدة براون في حدة :

- إن يوسف لم يكن أبدًا كسولًا ، بل هو على العكس من ذلك تمامًا ، ونشاطه كان دائمًا مضرب الأمثال ، ولا أظن أبدًا أنه كتب التقرير ، دون دراسة وافية ، أو دون أن يبذل مجهودًا ويتأكد مما يقول .

وهنا لم يتركها البروفيسور تكمل مديحها ، وقاطعها بحدة .. كأن سُحب غضب كثيفة تحلق فوق رأسه ، بينما مال نصف جسده العلوي إلى الأمام ، واتكأ بذراعه على إحدى ركبتيه :

- أنا لم أقل ذلك ، أنتِ لم تفهمي مقصدي تحديدًا ... لقد أخبرني الأطباء هناك أنه درس التقارير جيدًا ، وراجع الأبحاث بعناية ، وعقد معهم عدة اجتماعات ، بل أجرى تجربتين بنفسه على أحد حيوانات التجارب ؛ ليتأكد من فاعلية الدواء وأعراضه الجانبية ، وتأثيره على بقية وظائف الجسم .. إلا أنه في النهاية ، وبسبب النتائج السلبية التي حصل عليها استسلم للإحباط تمامًا من أول جولة ، وكأنه موظف يؤدي عملا روتينيًّا .... اسمحي لي يا سيدتي أن أوضح لك ما نقوم به في معاملنا .. إننا نقوم بأبحاث علمية متعلقة بواحد من أخطر أمراض العصر، والأبحاث العلمية ليست كالزراعة نرمي البذور في الأرض ، وننتظر أن تنتج المحاصيل ؛ لنجمعها بسعادة بعد فترة وجيزة .. نحن قد نمضي حياتنا كلها في معمل ، ولا نتوصل إلى أي شيء ، ولكننا نهدف

لتقديم الخير للإنسانية.. إن كل محاولة نقدم عليها ، وكل تجربة نقوم بها ، وكل بحث نؤديه هو خطوة نخطوها للأمام ، وشوط نقطعه في طريق الأمل والشفاء ؛ حتى لو لم يؤد إلى نتيجة فورية، فقد يأتي آخرون من بعدنا ، ويكملون ما بدأناه ، وحينها لن تكون مهمتهم أن يبدأوا من نقطة البداية ، كما فعلنا نحن بل ستكون إتمام ما بدأناه .

رفع جورج يده التي كان يستند بها على ركبته وأطفأ سيجاره بسرعة وعصبية، قبل أن يتم حديثه قائلًا بنبرة تنبئ عن إنهاء النقاش :

- على كل حال ، لا لزوم لكل هذا الانفعال.. لقد وافقت على إنهاء الإرسالية بالنسبة ليوسف ، وأرسلت له تلكس بهذا المعنى ، سيصله على عنوان الفندق الذي يقيم فيه ، وبعد أقل من أسبوع ستهبط به الطائرة في لندن ؛ ليكمل رسالته العلمية بعيدًا عني وعن مؤسستي .

وانصرف جورج ، دون أن يتناول كعكته ، تاركًا السيدتين غارقتين في مشاعر متباينة .

كان القلق يستبد بالسيدة براون بشأن مستقبل ابنها ، وبدأت تفكر في مصيره بعد هذا الإخفاق : هل سيبقى في إنجلترا أم يعود إلى مصر ، ويتركها مثلما فعل أبوه منذ سنوات عديدة لتحقيق طموحاته في بلده .

أما كاترين .. فقد كان رد فعلها مختلفًا كليًّا .. أغمضت عينيها وتشابكت أصابع كفيها أمام وجهها المبتسم ، واستغرقت في أحلام اليقظة، وبدأت ترى في مخيلتها يوسف ، وقد عاد إليها ليتزوجا في أقرب وقت ممكن ليعيشا في لندن ... وقررت ألا تكون أبدًا باردة أو سخيفة، ستحاول أن تحب هواياته ، بل ستكون لها هواية هي أيضًا ، مثلما يحرص هو على التصوير السينمائي طوال الوقت .. سوف تشاركه أفكاره وطموحاته ، وستمنحه كل الوقت الذي يريده ، فلن تمضي الأوقات الطويلة في حفلات الكوكتيل التي يمقتها ، أو في جلسات صديقاتها بنادي الجولف لساعات طويلة.. ستحاول أن تقرأ كتابًا كل أسبوع كما طلب منها .. ستذهب معه إلى الميناء لتتأمل السفن وهي راسية .... لابد لها أن تتغير ، ولقد حان الوقت لذلك .

هكذا فكرت كاترين بصوت عالٍ ، فلم تستمع لحديث السيدة براون ، التي بدت كمن يحدث نفسه هي الأخرى ، وهي ترفع الأطباق والفناجين الصغيرة ؛ لترصها على عربة الشاي ، وتجرها في هدوء إلى داخل المنزل ، قبل أن تهرع خادمتها إليها لتأخذها عنها .

* * *

- ها أنتِ أخيرًا هنا .. لقد بحثت عنك كثيرًا، ذهبت إليك عند النهر.. وعند والدة دونو ، وفي مقر الإرسالية أيضًا ... وآخر مكان ، كنت أتوقع وجودك فيه هو هنا .. مضى وقت طويل وأنت لا ترسمين لوحات !

كانت راني تتحدث ، وهي شاحبة الوجه مجهدة .. تبدو بائسة وهي تخطو داخل الكوخ الصغير ، المشيد من القش خلف الكوخ الكبير ، الذي تقيم به تويا مع والدها ، واثنتين من زوجاته ، وإخوتها الصغار وبقرتهم الضخمة .

بعد وفاة والدتها ، كانت تويا قد بنت هذا الكوخ الصغير ، حول جذع شجرة ضخم عريض ، وثبتت به لوحًا من الخشب وأوراقًا بيضاء كبيرة وسميكة ، حصلت عليها من مقر الإرسالية ، التي تتردد عليها مع أطفال قبيلتها ، إذا احتاجوا يومًا رعاية طبية أو علاجًا لمرض من الأمراض ،

التي يستعصي علاجها على «أداتوا» حكيم القبيلة وزعيمها السابق ، وعلى أعشابه وبذوره .. كانت تويا قد تعلمت الرسم بالفحم على هذه الأفرخ البيضاء ، بعد أن شاهدت طبيبة الإرسالية وهي ترسم ، واستطاعت أن تقلدها حتى أتقنت هذا الفن تمامًا ، وتمكنت منه ، وصارت ترسم ببراعة .. لم يكن يرى لوحاتها سوى راني ودونو وأداتوا ، الذي شجعها كثيرا على الاستمرار في هذه الهواية .

تراجعت تويا خطوتين للخلف ؛ لتتأمل ما رسمته بيديها الرقيقتين ، بينما بدأت ابتسامة صغيرة تنمو ببطء على شفتي راني ، أزاحت الشحوب والإجهاد من على ملامحها... كانت اللوحة تحمل وجهًا إفريقيًّا يشبه وجه راني إلى حد بعيد .. يكسو الشجن ملامحه ، قبل أن تنقلب إلى حزن دفين ، يطل من العينين .. لحظة فارقة في تغير الملامح ، تمكنت تويا من رصدها وتجسيدها ، وكأنها سجلتها بعدسة كاميرا ، لا من خلال فحم بدائي ، تحصلت عليه من مقر الإرسالية ، منذ عام حتى أصاب العطب معظمه !

اختفت الابتسامة من وجه راني مع طول فترة تأملها للوحة ، وسرعان ما انقلبت ملامح وجهها للنقيض ، وكأنها مياه صافية قد تعكرت فجأة بأتربة .. ثم انسابت دموع صامتة من عينيها ، بللت وجهها الشاحب ، وتساقطت من على خديها في هدوء ، قطرة تلو الأخرى ... احتضنتها تويا في رفق فانسابت دموعها بغزارة ، وكأن تويا ضغطت على مشاعرها أكثر.. حتى تحول بكاؤها إلى نحيب متقطع متهدج ، ظلت تنتفض على إثره ، بينما تزيد تويا من قوة احتضانها محاولة طمأنتها وتهدئتها ، قدر ما تستطيع .. ولكنها فقدت قدرتها على الاحتمال ، فدمعت عيناها هي الأخرى .

ثلاثة وجوه حزينة داخل الكوخ أحدها صورة مرسومة بالفحم ، تكاد تنفجر من الحزن الدفين ، الذي يغلف ملامحها ، وكأنها حقيقة هي الأخرى من فرط دقتها !!

* * *

كعادته الدائمة ، كان سكورت يحدث جلبة في كل مكان يوجد به ... وحين دخل الحانة التي تقع في مواجهة حوض السباحة ، وتطل عليه ، والتي تنتشر فيها إضاءة خافتة متناثرة في الأركان ، وبين الأشجار والنباتات المنسقة بعناية شديدة.. تبادل نكاتًا سريعة مع أحد النزلاء ، وقام بتحية آخرين بتناول كأسٍ من الشراب معهم ، دون أن يجالسهم ... قام في الوقت نفسه بتحية النادل وربت على كتفه إعجابًا به وتشجيعًا له ؛ حتى يهتم بتقديم خدمة متميزة أكثر لرواد الحانة ، ونزلاء الفندق الذي يديره باقتدار .

توجه سكورت كمن يعرف طريقه مسبقًا إلى حيث يجلس يوسف في ركن مظلم قليلًا، يحتسي كأسًا من النبيذ الأبيض المستورد ، وأمامه أطباق صغيرة تحوي شرائح مقلية من البطاطس ، وأسماك السالمون المقطعة بعناية ، يلتقطها بشوكة معدنية على هيئة حربة إفريقية .

تهاوى سكورت على المقعد ، وخفف قليلًا من إحكام رابطة عنقه ، وأراح ساعديه مستقيمين على مسندي مقعده .. رجع برأسه إلى الوراء قليلًا ، قائلًا :

- ياه .. ياله من أسبوع شاق ، أريد أن أنام يومي العطلة بالكامل .

ردّ يوسف ، وهو يرفع كأسه بعد ان أحضر النادل مشروبًا لسكورت :

- فلنشرب نخب عطلة نهاية الأسبوع .

تجرع كلاهما الكأس دفعة واحدة ومضيا يتحدثان عن العمل .. أخبره يوسف بما توصل إليه من نتائج سلبية ، وأنه تلقى تلكس اليوم بالموافقة على عودته خلال أسبوع .. بدت ملامح الحزن والدهشة على وجه سكورت في آنٍ واحد ، وقال وهو يطلب كأسًا أخرى بإشارة من يده ، بعد أن نسي تعبه تمامًا :

- هكذا بسرعة تفارقنا ؟! كنت أحسب أنك ستمضي معنا شهورًا أطول !

- لن تنقطع صداقتنا يا سكورت .. سنكون دائمًا على اتصال ، وسألقاك عندما تأتي إلى إنجلترا ، وسأدعوك إلى مصر لزيارتي .

- هل قررت أن تعمل في مصر بصورة نهائية؟

أجاب يوسف ببطء وبعد تفكير أشبه بالشرود :

- لا أدري ..

ثم استدرك بسرعة قائلًا :

- ولكن لابد أن أعود إلى مصر يومًا ما ، وسأدعوك وقتها لقضاء إجازتك السنوية بها.

- متى سترحل؟

- طائرتي بعد ستة أيام .. غدًا سأذهب مع صديقي الصغير دونو إلى النهر لنمضي اليوم ، وسوف أستكمل التصوير السينمائي ، وبعد غد سأنهي أوراقي في المعمل بمقر الإرسالية ، وتتبقى لي ثلاثة أيام أخرى ، قبل أن أذهب إلى مطار نيروبي ومنها إلى لندن ، فهل أطمع أن ترتب لنا فيها برنامجًا حسبما يروق لك .

- إن الأوقات الجميلة دائمًا قصيرة بالنسبة لنا .. كأنها تستغرق ثوان، فلا نكاد نستمتع بحلاوتها ، حتى تستغرقنا ذكرياتها .

قال سكورت هذه العبارة ، وهو يحاول إخفاء دمعة ، ترقرقت في عينيه لفراق يوسف ، مستعينًا بكفه الأيسر والإضاءة الخافتة بالحانة ، وصخب موسيقى البيتلز ، التي جذبت يوسف ؛ للرقص على أنغامها مع رواد الحانة ، بعد أن أعجبته فتاة شقراء ، كان يتابعها بعينيه ، منذ أن جلس في انتظار سكورت في هذا المساء الحزين !

* * *

اقتربت تويا بهدوء من حافة البحيرة .. كانت تحمل حقيبة بدائية الصنع من القش ، وأعواد نبات يشبه اللبلاب إلى حد كبير ، صنعتها بنفسها .. خلعت ملابسها تمامًا وفكت ضفيرتها السميكة .. ثم ارتدت سروالًا قصيرًا أشبه بما يرتديه لاعبو كرة السلة ، ذا لون أحمر فاقع ، ثم انسابت في هدوء تلقي جسدها في البحيرة ، تشق به صفحتها الصافية ، وكأنها تتسلل إليها في هدوء ؛ حتى لا تلفت انتباه أحد !

على الضفة الأخرى من البحيرة ، كان يوسف قد وصل منذ قليل متأخرًا عن موعده ، بعد أن ضل طريقه عدة مرات رغم الوصف الدقيق والعلامات الإرشادية التي تركها له دونو ... كان بينهما لقاء مرتقب ، ولم يكن يوسف قد أخبره بعد أنه سيغادر نيروبي بلا رجعة .

ابتسم يوسف وهو منشغل بتنظيف عدسة التصوير ، عندما مرَّ بخاطره شريط ذكرياته القليلة مع دونو ، وتعجب من عمق الصلة التي جمعت بينهما .. ابتسم مرة أخرى حين تذكر فرحته البريئة وانبهاره الشديد ، عندما أدار له شريط التصوير ، الذي سجله في أول يوم ، التقيا فيه ، مستعينًا بملاءة الفراش البيضاء العريضة ، التي ثبتها على حائط غرفته بالفندق .

كاد الصغير أن يفقد عقله في البداية ، وظن أن يوسف ساحر .. وبعد برهة بدأ الشك يساوره أن ما يشاهده هي روحه وروح يوسف .. ولم يستطع أبدًا استيعاب فكرة التصوير السينمائي ، ولكنه كان فرحًا جدًّا بها ... يومها شاهد أكثر من ثلاث ساعات لمشاهد كثيرة ، سجلها يوسف في ليـڤربول .. وعندما رأى كاترين انبهر ، وظن أنها ملكة قبيلة إنجلترا ، التي أتى منها يوسف !

هز يوسف رأسه والابتسامة ذاتها على وجهه ، وهو يتذكر ذلك الصغير الشقي ، الذي تعلق به كثيرًا ، وكأنه شقيقه الأصغر.. كم سيفتقده!! ربما يستطيع أن يدعوه لزيارته يومًا ما ، ولكنه لا يعرف حتى كيف سيراسله!! لفت انتباهه حركة شخص يسبح في البحيرة .... التفت في برود ..وقعت عيناه عليها، كانت تغطس ، وكأنها تبحث عن شيء في القاع ، ثم تظهر قليلًا لتلتقط أنفاسها ، ثم تعاود الكرة مرة أخرى ، فلم يتبين ملامحها... كان ظهرها في مواجهته ، فلفت نظره سروالها الأحمر القاني ، وهي تتأهب للغوص في قاع البحيرة .. ظنها رجلًا في البداية ، وأدار آلة التصوير ، والتقط لها ثلاثين ثانية .

وعندما هَمّ بإغلاق العدسة ، ظهر وجهها في مواجهته تمامًا... وقرطاها الدائريان الكبيران يتدليان من أذنيها بلون اللؤلؤ ، بينما لمعت حبات عقدها الصدفي ، وهي تزين رقبتها.. انتبه وتحركت حواسه ، فبدا مشدوها قليلًا .. ضغط على زر التكبير أكثر ؛ ليتفحص ملامحها فشعر أنه قد تسمر في مكانه وكأنه أصيب بالشلل ..... ظلت يده ممسكه بآلته ، التي تشبه المسدس الضخم ، ويده الأخرى مبسوطة على فخذه الأيسر .

ما هذا الجمال ..؟ فكر يوسف وتعجب من نفسه .. كيف انتبهت حواسه ، وجذبه هذا الوجه الأسمر بهذه الطريقة ، وهو الذي لم يكن يحب البشرة السمراء على الإطلاق ، ولم تكن أية فتاه إفريقية في نيروبي كلها قد جذبته ، أو أثارت انتباهه وفضوله منذ وصوله .. وهل هذه الفتاة مثل بقية الفتيات ..؟ هز رأسه لاشعوريًّا...هكذا حدث نفسه ، وهو يضغط أكثر على زر التسجيل ، وكأنه يطمئن أن الآله تعمل وتسجل اللحظة ، التي رأى فيها هذا الوجه الجذاب ذا التفاصيل الدقيقة ، والتي غرق فيها من النظرة الأولى .

فجأة انتبه يوسف حين صرخت تويا ، وهي ترفع ذراعيها إلى أعلى في حركة استسلام ... أنزل آلته قليلا ، وهب واقفًا ... اقترب من حافة البحيرة حتى ضاقت المسافة بينهما إلى نحو أربعة أمتار إلا قليلًا ... وفوجئ بها تقول بلغة إنجليزية سليمة :

- لماذا تصوب سلاحك نحوي ؟!

اعترت الدهشة يوسف قليلًا ، وهز لها كتفيه مبتسمًا ، وهو يرفع الكاميرا إلى أعلى قليلًا :

- تقصدين تلك؟

أومأت برأسها مرتين قائلة : نعم .. وهي تبدو خائفة ، وإن كانت تحاول التماسك أمامه باستخدامها نبرة صوت حادة قليلًا .

- هذه آله تصوير ، تلتقط ما يدور أمامها ... هذا ليس سلاحًا .

تنفست تويا الصعداء وحركت ذراعيها مرة أخرى ، وضربت بهما صفحة البحيرة .

ظل يوسف متسمرًا في مكانه ، ومبتسمًا في هدوء .

- هل من الممكن أن تنصرف أو تدير وجهك إلى الناحية الأخرى ؟

- لماذا ؟

- أريد أن أخرج من البحيرة لارتداء ملابسي...

قاطعها يوسف وهو يضحك ، بعد أن ظنها لا تزال خائفة منه :

- أقسم لك أن هذا ليس سلاحًا .. لا تخافي هكذا .. ثم إنني شاهدتك ترتدين ملابس حمراء اللون ، لا داعي لكل ذلك .. ومع ذلك أنا لا أستطيع الانصراف ؛ لأنني في انتظار صديق لي هنا .. اخرجي من الماء ، ولن أفعل لك شيئًا .

تويا في غضب :

- أنا عارية .. أدر وجهك لكي أخرج .

تعجب يوسف من ردها ، فالنساء كلهن عاريات الصدور هنا .. ومع ذلك وضع كفيه على وجهه ، فغطاه تمامًا ، قائلًا بنبرة ثعلب :

- اخرجي .. أنا لا أرى شيئًا الآن .

* * *

10
على ضفاف البحيرة

بدأت تويا تتأهب للخروج من البحيرة .. لم يستطع يوسف أن يمنع نفسه من اختلاس النظر إليها، فباعد قليلًا ما بين أصابعه ، وفتح نصف عين كثعلب ماكر، فشاهدها تلتقط قطعة من القماش ، خضراء فاقعة لتغطي بها نصف جسدها العلوي ، حتى منتصف بطنها. ثم تنزع عنها سروالها الأحمر ؛ فتكشف عن جسد متناسق بصورة مثالية ، وكأنها أحد التماثيل المنحوتة بدقة في ميادين العاصمة الإيطالية الشهيرة .. روما .. وبسرعة ترتدي تنورة برتقالية ، تحمل رسومًا صغيرة سوداء ، لم يستطع أن يتبينها من الضفة الأخرى ... كانت تويا خلال كل ذلك تلتفت نحوه ؛ لتتأكد من أنه لا يزال على حاله .. لا يراها !!

لمحت ابتسامته العريضة تطل من عينيه ، وتكاد تغطي وجهه كله ، وقد أزاح كفيه من على عينيه، فوضعت يديها على خصرها بعد أن ثنت مرفقيها قليلا ، وتجهم وجهها صائحة :

- إذًا كنت تشاهدني طوال الوقت؟!

لم يرد يوسف ، ولكنه ابتسم في بلاهة ، ولوح لها بيده وكأنه يحييها ... فازداد غضبها ، وبدأت تستعد للانصراف .

صاح يوسف :

- انتظري قليلًا ، لا تنصرفي .. أريد أن أقول لك شيئًا ، ولكني لا أعرف كيف أصل إليك، أين موضع الجسر لكي أعبر البحيرة إلى الضفة الأخرى ... يمينًا أم يسارًا ؟!

كان يشير لها بكلتا يديه في الاتجاهين .

ردت تويا بنبرة تحدٍّ :

- لا يوجد جسر هنا ... عليك أن تسبح إن أردت الحضور إلى هذا الجانب .

لم ينتظر يوسف أن تكمل عبارتها .. بدأ فورًا في خلع ملابسه ، وارتدى زي بحر قصيرًا جدًّا ... أسود اللون ملتصقًا بجسده تمامًا .. أطرقت تويا ثم بدأت الابتسامة تغزو وجهها ، بعد أن كسته حمرة الخجل .. حاولت أن تقاومها بالضغط على أسنانها ، ثم هزت رأسها يمينًا ويسارًا ، وكأنها تحاول أن تنفضها بعيدًا عنها ، وعندما يئست من محاولاتها، وضعت كفها على فمها علها تخفيها عن عيني يوسف ، الذي كان قد وضع متعلقاته كلها في حقيبته الصغيرة ، ورفعها بذراعه عاليًا حتى لا يطولها الماء وبدأ في اختراق البحيرة ، بينما ظلت تويا واقفة على الجانب الآخر مستمرة في الابتسام ... كان واضحًا أنها ستترك خلفها أثرًا لن يمحوه الزمن بسهولة .

خرج يوسف من البحيرة ، ووقف أمامها بجسده الرياضي ، وقوامه الفارع الممشوق ، ثم عبث بخصلات شعره الناعم قليلًا قائلًا :

- أنا اسمي يوسف .. أعمل طبيبًا في الإرسالية الخاصة بالبروفيسور جورج راندال .

مد يده إليها مصافحًا فقدمت له كفها الصغير ، فأحس بأناملها الرقيقة .. احتواها في كفه قليلا ، وكأنه فقد الإحساس بالزمن ، انتبهت تويا فسحبتها بسرعة ، بعد أن شعرت بدفء يده ، التي لم

تبللها مياه البحيرة قائلة :
- اسمي تويا ... أنا من قبيلة الكيكيويو.
- تويا .. تويا .
رددها مرتين وهو يهز رأسه شاردًا ببصره في السماء .
ثم أردف في حماسة :
- هذا اسم فرعوني مصري صميم .
تويا في دهشة ، وهي تحاول أن تعيد نطق ما قاله بصورة صحيحة :
- مصري؟ فرعوني؟!
بدت ملامحها مستفسرة ، وهي تتفحص في عينيه منتظرة إجابة !
- تويا اسم سيدة مصرية من عائلة نبيلة ، عاشت في العصور القديمة ، ولكنها أصبحت شهيرة ؛ لأن ابنتها تي تزوجت من ملك مصري ، وأصبحت من أجمل ملكات مصر ، وأنجبت شخصًا غير عادي هو الملك المصري إخناتون .. تلك قصة طويلة من تاريخ بلدي مصر.
تساءلت تويا ، وهي لا تزال على دهشتها :
- مصر ؟! وأين توجد مصر؟!
- في إفريقيا مثل بلدك تمامًا ، أنا لست إنجليزيًّا كبقية أطباء الإرسالية ... أنا مصري .
تويا في خجل ، بدأ يعرف طريقه إلى الزوال :
- إنك تبدو مختلفًا عنهم نوعًا ما ، فبشرتك ليست بلون بشرتهم .
- أنت أيضًا مختلفة تمامًا عن الأخريات هنا، أقصد شكلك .. ملامحك .. لغتك الإنجليزية .. ملابسك .. حتى شعرك يبدو ناعمًا بعض الشيء !
وضعت يدها على رأسها ، وتحسست شعرها بحركة لا شعورية ، وأطرقت قليلًا ، ثم قالت: أنا لا أعرف سبب اختلافي ، أما لغتي الإنجليزية فقد تعلمتها من البروفيسور جورج راندال شخصيًّا خلال ترددي على الإرسالية ، وأنا صغيرة .. وحين أجدتها استعان بي البروفيسور لترجمة ما يقوله المرضى ؛ لكي يصفوا له آلامهم ؛ فهم يتحدثون لغة ساحلية خاصة بنا لا يعرفها أبناء المدينة .. أما شعري الطويل ، فقد ورثته عن والدتي ، وله قصة أخبرتني بها جدتي حين كنت صغيرة .
سألها يوسف بحنان واهتمام ، دون أن يبعد عينيه عن عينيها اللتين أسرتاه تمامًا :
- وما هذه القصة ؟
- تقول القصة إن آلهة البركان الثائر كانت راضية عن أمي وقت ولادتي ، فحققت لها أمنيتها بأن تكون ابنتها جميلة مثل الوردة ، وأن تكون عيناها واسعتين وشعرها ناعمًا .
قالتها وابتسمت بخجل ... فضحك يوسف لتلقائيتها وبراءتها .
أخبرته بأن اسمها يعني في اللغة الساحلية القديمة زهرة برية ، تنبت على ضفاف البحيرة ، ذات أربع ورقات فقط، ثم ألحت عليه ليقص عليها قصة تويا المصرية ، بعد أن أعجبها كثيرًا أنها تحمل اسم سيدة جميلة شهيرة ، كانت تعيش في مملكة بعيدة ، وأرض لم تسمع بها من قبل .
فرواها لها ثم سألها :

- قلت إنكم تتحدثون لغة ساحلية، كنت أظن أنكم تتحدثون كلكم اللغة الإنجليزية .. فلقد تعرفت على طفل لطيف اسمه «دونو» يتحدث بها أيضًا.

تويا في فخر:

- أنا التي علمته إياها .. إنه أذكى أطفال القبيلة وأكثرهم حركةً ونشاطًا .. هل هو من تنتظره اليوم؟

أومأ يوسف رأسه بالإيجاب .. ولم يشعر بنفسه بعد ذلك ، إلا وهو يبدأ معها حديثًا طويلًا ، حكى لها فيه الكثير عن تفاصيل حياته ، حدثها عن مصر وعن إنجلترا .. ووجد منها اهتمامًا كبيرًا بحديثه أدهشه وشجعه على الاسترسال ؛ خصوصًا حين ذكر لها مهنته وكيفية علاجه المرضى ، وحين لاحظت دهشته .. شرحت له كيف أنها تساعد أبناء قبيلتها في تلقي العلاج بمقر الإرسالية ، وكيف كانت والدتها تقوم بالعمل نفسه من قبل ، وأن الكثيرين مصابون بالجذام ، ولكن إيراي يمنعهم من التداوي.. بدأت تويا تحدثه عن عيد الشمس في قبيلتها ووسائل الاحتفال به .. وتفاصيل حياة سكان القبيلة واهتماماتهم ... واكتشف يوسف بعد برهة قصيرة أنه أمام نموذج مختلف من النساء ، لم يصادفه من قبل .

أما تويا .. فقد كانت نظرتها إليه مختلفة، كأنه قادم من كوكب آخر .. رجل غريب عنها تمامًا ، وعن قبيلتها ، بل وعن بلدها بالكامل .. اقتحم خلوتها اليومية دون مقدمات ، وبمنتهى الجرأة ، فأخافها في البداية ... ولكن ها هي تجلس بجانبه وتتجاذب معه أطراف حديث طويل ، لا تعرف كم دام من الوقت معه ، ولكنها تحس تجاهه براحة غريبة ، لا تعرف لها سببًا .... استيقظت من أفكارها حين أحست بيوسف ينظر إليها بإعجاب ، وقد تعلقت عيناه بعينيها الواسعتين، حاولت أن تخفي خجلها ، الذي عاد يستقر في ثبات على وجنتيها مرة أخرى .

ظلت تعبث بشعرها محاولة جدله في ضفيرة مؤقتة ، ولكن يوسف أبدى إعجابه بجمال عينيها ، والبريق الغريب الذي يلمع فيهما وهي تتحدث ، ويزداد كلما ضحكت أو انفعلت .. كان يرى فيهما جاذبية غير عادية ، لا يستطيع أحد أن يقاومها ، وكأن إلهة البركان قد منحتهما لها بالفعل ...

لاحت على الضفة الأخرى للبحيرة ثلاث سيدات ، نصف عاريات ، يحملن قدورًا فوق رؤوسهن ، ويقتربن من صفحة الماء في هدوء .. ظل يوسف يتأملهن في دهشة .

رددت تويا في خجل ، وكأنها تجيب عن تساؤل صامت ، بدا في عينيه :

- إنهن من قبيلة صغيرة ، تعيش بالقرب من هنا ، ويأتين كل يوم للبحيرة للتزود بالماء .

قال يوسف دون أن يحيد بصره عن السيدات الثلاث :

- نعم .. نعم .. المدهش أنهن يشبهن الفلاحات المصريات تمامًا في مشيتهن ، وطريقة حمل القدور على رؤوسهن .. هذا أمر مذهل .

قالها وهو يعبث بأزرار آلته السينمائية ، وما هي إلَّا لحظات ، حتى كان يسجل مشهدًا جميلًا لهؤلاء السيدات ، وهن يملأن قدورهن من ماء البحيرة العذب .. بينما جلست تويا بجواره ، وعلامات الدهشة الممزوجة بالإعجاب تعتري وجهها .

ظلا يتحدثان لساعات دون أن يشعرا بالوقت ، ومساحات الألفة بينهما تتسع ، والحواجز تتهاوى رويدًا رويدًا ، والمسافة تقترب بلا موانع ، حتى كاد يشعر بأنفاسها تلفح وجهه ، وهي تتحدث معه

.

فجأة سمعا صوت خطوات تقترب منهما ، فالتفتا في وقت واحد .. كانت راني تهرول باتجاههما في جزع ...! انتفضت تويا على إثر ملاحظة جزعها .. ودار بينهما حوار قصير باللهجة الساحلية ، لم يفهم منه يوسف سوى كلمة دونو ، التي ترددت مرتين ، لاحظ يوسف أن راني رمقته بنظرة متوجسة ؛ فحاول أن يطمئنها فحياها بابتسامة لطيفة ، إلا أنها لم ترد تحيته .

التفتت تويا إليه فجأة ، كأنها تذكرت شيئا مهمًّا قائلة :

- ألست طبيبًا... إن «دونو» في خطر .. لقد أصابته روح شريرة ، وهو ينزف الآن، هيا انهض وحاول إنقاذه .

* * *

كان المشهد غريبًا في هذا المكان البعيد من القارة الإفريقية ... رجل أجنبي يرتدي سروالًا قصيرا وقميصًا قطنيًّا وحذاءً رياضيًّا هو يوسف ... وفتاة سمراء يترجرج صدرها صعودًا وهبوطًا كانت راني ... بينما تويا تتقدمهما برشاقة ، وكأنها رياضية في سباق عدو للمسافات الطويلة .

أثار هذا المشهد فضول بعض أفراد القبيلة ، بل إن بعضهم ترك ما يفعله ، ووقف على باب كوخه ، يراقبهم في دهشة واستغراب .

في أحد أركان كوخ صغير قذر نوعًا ما، انكمش «دونو» شاحبًا واهنًا ، يفتح عينيه بالكاد ، وتعبر شفتاه وقسمات وجهه عما يعتريه من ألم .. بينما جثم رجل ضخم فوق صدره .. يحاول أن يعالجه بأعشاب وأتربة ، ومسحوق أبيض مائل للصفرة قليلًا ، يضعه على جرح في كتفه ينزف بغزارة .

حول الصبي ، كانت هناك مجموعة من الأشخاص ، يتابعون ببرود محاولات هذا الرجل لإيقاف النزيف بهذه الطرق البدائية ، فيما عدا سيدة متوسطة العمر والطول ، كانت جزعة وقلقة ، دموعها تنساب بلا توقف وتتابع الموقف بهلع ولهفة .... إنها أمه .

أسرع يوسف باتجاه «دونو» الذي ابتسم في شحوب لرؤيته ، بينما دخلت تويا في حوار حاد مع الرجل ذي الملامح القاسية الشريرة الجاثم على صدر دونو .. كان الرجل هو إيراي .. فهم يوسف من الحوار أن إيراي يحاول منعه من إسعاف «دونو» ، بعد أن علم من تويا أنه طبيب أجنبي من الإرسالية ، وبدأ يتوعد الجميع بالعقاب ؛ خصوصًا راني للسماح لأجنبي بدخول منطقتهم دون إذن .

لم يهتم يوسف بما يدور حوله ، بل بدأ يمارس مهامه ؛ فاستفسر من «دونو» عن إصابته ، ففتح الصغير فمه ليتكلم .. فجأة ابتلع إجابته ، قبل أن تصل إلى طرف لسانه ، بعد أن وجه له إيراي نظرة تهديد قاسية من عينيه الشريرتين ، فبدا كأبكم يحرك فمه فقط ، وتأبى الكلمات أن تخرج منه ، وظل ينظر إلى يوسف في فزع .

لم ينتظر يوسف أكثر من ذلك .. بل بدأ يهم بفحص «دونو» على الفور ، إلا أن إيراي أشار إلى بعض رجاله ، فبدأوا في وضع استعداد للتحرش بيوسف ، معترضين طريقه بأجسادهم القوية العارية الصدور ...مرت دقائق طويلة ثم علا صوت :

- توقف يا إيراي ..

فجأة ظهر «أداتوا» حكيم القبيلة على باب الكوخ ، ناهرًا إيراي في حدة ، بعد أن استدعته راني بالاتفاق مع تويا... رمقها إيراي بنظرة حملت الكثير مما سوف تلقاه على يديه من عقاب ، فانكمشت خلف أداتوا مباشرة ، وهي تلهث جراء ركضها إلى كوخ الحكيم أداتوا ... وكيف لا تخاف وإيراي هو ساحر القبيلة والنائب الأول لزعيمها الحالي مينجو ، ويتولى ورجاله حراسة الأكواخ وتدبير الطعام ، وحرق القرابين لإسكات البركان الثائر كل فترة !!

تراجع إيراي على مضض أمام هيبة «أداتوا» وقسمات وجهه الجادة ، وإن ظل يصوب سهام نظراته الحادة إلى يوسف الذي ارتعدت فرائصه، فهي المرة الأولى في حياته التي يهدده فيها شخص على هذا النحو وأين ..؟ في أدغال إفريقيا، يا لحظه العاثر !... إنه أمر قد لا يتكرر إلا بنسبة واحد على عشرة ملايين على الأقل ... ولكن سرعان ما عاد يتابع حالة الصبي حتى يخرج من مخاوفه .

- دونو مصاب بطلق ناري من بندقية خرطوش ، ولكن لحسن حظه أن الجرح سطحي .. لقد قمت بتنظيفه ووضعت عليه ضمادة ، ولكن من الأفضل أن ترسليه لي غدًا في مقر الإرسالية ؛ حتى أتابع حالة الجرح وأغير الضمادة ... ، أما المسحوق الذي استخدمه هذا الرجل ، فلا فائدة منه على الإطلاق ، بل كان من الممكن أن يتسبب في تقيح الجرح أكثر .

كان يوسف يتحدث إلى «تويا» ، وهو يغادر الكوخ الخاص بأداتوا ، الذي استضافه بعض الوقت ، بعد أن فحص «دونو» وضمد جراحه .. أعجب أداتوا كثيرًا بيوسف ، ولاحظ يوسف أن جانبًا كبيرًا من الإعجاب ، الذي ناله كان بسبب اسم جورج راندال وانتمائه لمؤسسته .. شعر يوسف باحترام كبير للبروفيسور .. لقد كان اسم هذا الرجل مبعثًا للفخر ، كلما ذكر حتى في هذه الأدغال البعيدة ..! دار بينهما حوار قصير عن طبيعة عمله بالإرسالية ودراسته للطب في مصر ، وإنجلترا ثم ودعهما يوسف ، وانصرف في صحبة أحد حراس أداتوا ؛ حتى لا يضل الطريق في الأحراش .

عاد يوسف إلى غرفته متعبًا .. لكنه لم ينم تلك الليلة، ظل يستعيد مشاهد تويا ، وهي تستحم ... وهي تتحدث معه وتتأمله .. بينما هو يضمد جراح دونو .. طوال الليل لم يفارق وجهها مخيلته .. أدار آلة التصوير ، وثبت الصورة على وجهها ، وهي قابعة في الماء لا يظهر منها إلا رأسها.. كم هي جميلة تلك الفتاة السمراء المثيرة .

ظل على حالته تلك حتى شقت خيوط النور الأولى ظلام حجرته ، فبهتت الصورة على ملاءة الفراش البيضاء المعلقة على جدار غرفته ، وباتت غير واضحة.. فرك عينيه ثم أغلقهما ، وعقد يديه على صدره ، فبات أشبه بملك فرعوني في الوضع الأوزيري بعد تحنيطه ؛ استعدادًا للحياة الأخرى .. للخلود .. ثم استسلم لنوم عميق .

* * *

عندما استيقظ يوسف، كان يشعر بأن كل ماحوله قد اختلف .. غرفته .. فراشه .. وجهه في المرآة .. حتى إحساسه بذاته أصبح مختلفًا أيضًا ! فتح نافذة الغرفة .. تسللت الشمس إليها سريعًا ، وكأنها كانت تنتظر في الخارج في لهفة عارمة الإذن بالدخول .. ارتدى ملابسه ، وذهب يبحث عن

سكورت .. وجده غارقًا بين أكوام كثيرة من الورق ، وكأنه يبحث عن قلم تاه منه وسطها .. فبعثر محتويات سطح المكتب بالكامل ... رحب به سكورت ودعاه لتناول القهوة .

- هل تعرف قبائل الكيكيويو يا سكورت ؟

انزعج سكورت من السؤال قليلًا .. فعاجله يوسف بآخر :

- لماذا انزعجت هكذا ؟

- أين التقيت بهم؟ ومن الذي أخبرك عنهم؟، هل ذهبت مع الصغير «دونو» إلى هناك ؟

أمطره سكورت بوابل من الأسئلة ، بدلًا من أن يسد رمقه بإجابة شافية .

- أنا الذي أسألك يا سكورت .. لماذا كل هذا الانزعاج .. إنهم قوم طيبون ومسالمون و.......

لم يسمح له سكورت بالاسترسال ، وقاطعه بحدة :

- اسمع يا يوسف .. إنك حر فيما تفعل ، ولكن من واجبي أن أنبهك ... أفراد هذه القبيلة لديهم خرافات وغرائب كثيرة ، ويؤمنون بالسحر والأرواح الشريرة إيمانًا عميقًا، كما أن أفكارهم وعاداتهم مخيفة ، لم يسبق لك أن سمعت عنها من قبل .. قد تشعر أنهم ودودون مع الأجانب لأول وهلة ، ولكن حذار فهم لا يحبون الاختلاط بهم أبدًا .. بعضهم يعيش على مقربة من الفندق مثل «دونو» ولكن احترس ، فكلهم ليسوا «دونو» ... احترس يا يوسف ، فعندما ترى أسنان الأسد فليس معنى ذلك أنه يبتسم ..! كلها أيام وتغادر نيروبي كلها .. وقد لا تعود ... فلا داعي لمغامرة غير محسوبة في اللحظات الأخيرة .

* * *

خرج يوسف شاردًا من حجرة مكتب سكورت ، وصورة تويا لا تفارق خياله .. لديه هاجس غريب أنه يريد أن يراها الآن .. يريد أن يتأمل وجهها وعينيها مرة أخرى ... شعر بأنه يفتقدها ..ابتسم في سخرية هل جن ؟! ... امرأة لايعرفها ، وقد لا يراها مرة أخرى ، ومن قبيلة تؤمن بالسحر والأرواح الشريرة بأدغال نيروبي .. كيف تجنح مشاعره وأحاسيسه إليها هكذا ، دون أن يتمكن من كبح جماحها ؟!!

ما الذي طرأ عليه فجأة ، فجعله مستسلمًا لهاجس غريب بلا مقدمات قوية أو حتى مقبولة.. إنه حتى لا يجد تفسيرًا مقبولًا لهذا الهاجس ولهذه المشاعر .. ظل يسير شاردًا حتى اصطدم بموظف بالفندق ، الذي كان يدور في البهو ، رافعًا لافتة عليها اسم يوسف نجيب !! اعتذر له بشدة ثم ابتسم قائلًا :

- أنا يوسف نجيب .

أشار له الموظف إلى ناحية باب الفندق ؛ حيث وجد سائق الإرسالية يهرول ناحيته قائلًا :

- الطفل «دونو» حضر اليوم بمقر الإرسالية ، ورفض أن يضمد أي طبيب آخر جراحه ، فأرسلوني إليك لأصطحبك إلى هناك .

دون أن يجيبه يوسف ، ركض باتجاه السيارة ، وعلى وجهه علامات قلق ظلت عنوانًا لقسماته... لم تفارقه حتى التقت عيناه بعيني دونو الصغير فاستبدلها بابتسامة ثقة ... كان «دونو» واهنًا ضعيفًا ، ومازالت عيناه تحملان بعضًا من الفزع الذي سببته نظرة إيراي له بالأمس... وجد تويا

إلى جانبه ، فحياها ونظر مرة أخرى إلى «دونو» ، الذي قال بصوت ضعيف خفيض موجهًا حديثه ليوسف ، بعد أن تبادل النظرات مع تويا :

- هل صحيح أنك سترحل من هنا خلال أيام ؟!

لم يجبه يوسف ، بل تعمد تجاهل سؤاله ، فلم تكن لديه إجابة عن أسئلة من هذا النوع ، ولم يكن مستعدًا لإثارة مشاعره الآن .. استمر ينظف الجرح بالمطهرات الطبية ويتأمله بدقة.. ويتبادل نظرات ذات معنى مع الأطباء الواقفين بجواره ، ولم ينس بالطبع أن يتوقف برهة كل فترة ؛ ليتأمل وجه تويا الصبوح ، وإن كانت قد بدت متجهمة قليلًا ، بعد أن تجاهل سؤال دونو عن موعد رحيله .. فلم تبادله الابتسام ، رغم إلحاحه بإطالة النظر إلى وجهها ، ولكن دون جدوى .

- ماذا حدث لك يا «دونو» .... من أطلق عليك النيران ؟!

اقتربت تويا من حافة الطاولة التي يرقد عليها «دونو» ، وهي تمسح على رأسه بيدها في رفق ، وتعيد السؤال بصيغة أخرى في قلق بالغ ، ولكن على يوسف تلك المرة :

- هل إصابته من طلق ناري ؟

هز يوسف رأسه بالإيجاب قائلًا :

- نعم .. ولكن من بعيد ، ومن بندقية خرطوش أيضًا .

اتسعت عينا «دونو» في دهشة قائلًا :

- كيف عرفت ؟ هل كنت هناك خلف الجبل تستخدم آلتك ؟!

انفجرت تويا غاضبة في «دونو» ، عندما سمعته يذكر الجبل :

- ما الذي ذهب بك إلى هناك؟

خفض «دونو» رأسه في خضوع ؛ فقد كان يحب تويا حبًّا شديدًا ، ولايحب أن يغضبها ، فرد عليها بالصوت الواهن نفسه :

- سامحيني ، لقد سمعت صوت فرقعة شديدة ؛ فذهبت لأرى مصدره ولكني رأيت بـــــ ....

توقف دونو فجأة عن الكلام.. ونظر إلى وجوه الأطباء الواقفين بجوار يوسف ، فوجدهم قد أرهفوا السمع منتبهين تمامًا لما يقوله في فضول شديد ، فنقل بصره بينهم وبين يوسف بنظرة ذات مغزى .... استدار يوسف على إثرها بهدوء ، طالبًا منهم الانصراف فامتثلوا .

ساعدته تويا على النهوض قليلًا ، بعد أن رفع يوسف حافة الطاولة إلى أعلى من جهة رأسه.. تنهد «دونو» ثم قال :

- عندما سمعت أصوات الفرقعة العالية ، لم أدرك في البداية أنها طلقات بندقية خرطوش ... ذهبت لأستطلع الأمر .. وسرت كثيرًا متوغلًا في الأحراش ، حتى لمحت إيراي ومعه ثلاثة من رجاله ، يطاردون وحيد قرن صغيرًا ، ويطلقون بنادقهم في اتجاهه بضراوة ، حتى سقط فبدأوا يجرونه إلى نقطة معينة ، حتى اختفوا فجأة عن مرمى بصري ، وكأن الأرض انشقت وابتلعتهم .

اعترت الدهشة وجه تويا ، فقد كانت أدرى بتضاريس تلك المنطقة ، وأنها سهل منبسط ، ولكنها أيضًا تؤمن بقدرة إيراي الخارقة على أعمال السحر ، في حين ظل يوسف ساكنًا ، وكأن على رأسه الطير ، ينتظر بقية الرواية في لهفة .

قالت تويا :

- ولكن أين ذهبوا يا «دونو» .. لاتوجد أكواخ هناك أو خلف الجبل ؟!

رد «دونو» وقد بدأت أمارات الفزع تطل من عينيه أكثر ، وهو يسترسل :

- لقد تعجبت مثلك وظللت أدور حول المنطقة التي شاهدتهم فيها ؛ خصوصًا أن أحد رجال إيراي قد أصيب ، وهو يحاول سحب وحيد القرن ، الذي كان لايزال على قيد الحياة فيما يبدو ، وأعتقد أنه أصيب إصابة بالغة .. فقد سقط الرجل أمامي ، وهو يصرخ ... بعد عدة دقائق انشقت الأرض فجأة عن رجلين ، لا أعرفهما من قبل ، ظهرا من خلفي وأمسكا بي ... وضربني أحدهما بشدة على رأسي ، ففقدت الوعي ... وعندما أفقت ، وجدت نفسي في غرفة شبه مظلمة ورائحة عطنة ، تحيط بي وتحاصرني ، وكأنني في قبر و...

وفجأة انخرط «دونو» في بكاء شديد ، وهو ينتفض .

هدأ يوسف من روعه ، وأحاطته تويا بذراعيها ؛ حتى بدأ يهدأ رويدًا رويدًا ، ويستعيد رباطة جأشه مرة أخرى ، فأكمل ودموعه لا تزال ملتصقة بوجهه :

- شاهدت على مقربة مني جثث أطفال ، بطونها مبقورة .. تظهر منها أحشاؤها وأخرى بلا رأس.. أطفال من قبيلتنا يا تويا ، كنت ألعب معهم من قبل ... اختفوا منذ أيام مضت ... شاهدتهم هناك ميتين .. بعد فترة ، حضر إيراي ورجاله بصحبة رجل عجوز ، يرتدي سترة بيضاء ، يبدو أنه زعيمهم .. أعطاهم أوامر بنقل الأشياء .. لم أفهم ما الذي يقصده تحديدًا .. كانت معهم صناديق حمراء وزرقاء ضخمة وضعوا فيها أواني زجاجية لم أتبين ما بها ... استنجدت بإيراي .. إلَّا أنه ركلني بقدمه ، وطلب من أحد رجاله أن ينقلني إلى مكان آخر فورًا معصوب العينين.. إلا أن الرجل العجوز طلب أن يراني الطبيب قائلًا لإيراي : قد ينفعنا ! فامتثلوا له ... خرجت مقيد اليدين بصحبة أحد رجال إيراي ، فاكتشفت أننا كنا تحت الأرض خلف المعبد تمامًا ، وهم يخرجون من باب يستقر ، وسط الأحراش يستحيل رؤيته .. فلا أحد يجرؤ على الاقتراب من قاعدة الجبل ، الذي يستقر البركان في جوفه .

استمر «دونو» يقص قصته المفزعة :

- أثناء سيري مع الرجل اقتربت منا سيارة .. تحدث الرجل مع سائقها ... حانت لي وقتها فرصة للهرب.. فأطلقت العنان لساقي وسط الأحراش ، التي أعرفها تمامًا .. حينئذ سمعت صوت الفرقعة يدوي بالقرب مني ، ويكاد يصم أذني ، وشعرت بعدها بحرقة شديدة في كتفي .. ولكنني واصلت الهرب ، حتى وصلت إلى كوخي ، هذا كل ما حدث .

كان يوسف قد انتهى من تطهير الجرح وتضميده ، ولكن ظل الصمت هو سيد الموقف بعد حديث «دونو» ... لم يقطعه إلا صوت ضوضاء في الخارج ... ألقى يوسف على إثرها نظرة من النافذة .. كان نيفيل العجوز ورجاله يحملون رجلًا مصابًا ، في اتجاه مستشفى الإرسالية ، ويهمون بالدخول إليها .

* * *

- لم يعد لدينا وقت كثير ، كلها أيام .. ويكون يوسف بيننا ، نريد أن نعد له مفاجأة سارة تنسيه كينيا ، والإرسالية التي كان بها ، ونجعله يتفرغ للتفكير الهادئ في مستقبله ... أنا أشعر الآن أكثر من أي وقت مضى أنه سيبقى في إنجلترا .

ظلت كاترين تحملق في وجه السيدة براون ، التي كانت تتحدث بنبرة آمرة ، لا تخلو من الثقة ، ونظراتها تحمل كثيرًا من قلة حيلتها ، وكأنها تكاد تنطق قائلة : ماذا يمكن أن أفعل ؟؟!

استرسلت السيدة براون :

- سنجهز لحفل كبير ، يتم فيه الإعلان عن خطبتكما .. كما أنني استطعت الحصول على وعد من السير ستانلي وود بأن يلقي يوسف بعض المحاضرات بكلية العلوم الطبية هنا في ليـڤربول ، وأن يفحص بعض الحالات بالمستشفى الملكي أيضًا لحين انتهائه من دراسته .. هيا لاتقفي هكذا بلا حركة .. فكري وتحركي، صممي فستانًا جميلًا .. رتبي أمورك .. ادعي أصدقاءك .. هيا هيا .

خلال الأيام الثلاثة التالية ، انشغلت كاترين بتدبير أمورها ، رغم أن الفكرة لم ترق لها كثيرًا ؛ فجهازها العاطفي لم يكن قد استقبل إشارات كافية من يوسف ، تدل على تقبله هذه المفاجأة أو حتى سعيه إليها .. ومع ذلك ، فقد قررت خوض التجربة لعلها تنجح.. لم تكن تنام إلا لساعات قليلة وبغير عمق .. كانت صورة يوسف ، وهو يتأبط ذراعها ويدخلان معًا عبر حديقة منزل أسرتها بليـڤربول ، لا تفارق خيالها ... الورود في كل مكان .. فستان خطبتها سيكون بلون السماء .. لون يوسف المفضل .. قبعتها سوف تحمل اللون نفسه .. الفتيات الصغيرات أمامها يحملن سلال الورود .. كانت تحلم بهذا اليوم ، حتى وهي يقظة .. ترتب لموعد الاحتفال وتدعو أصدقاءها وتفكر كيف سيذهبان إلى مكان الحفل .. هل بسيارته المكشوفة؟ .. أم أن الطقس غير المستقر سيعاندها هو أيضًا كما يفعل يوسف معها دومًا !

ولكنها الآن تشعر أن النهاية السعيدة على الأبواب..لقد باتت أقرب إليها من مرمى حجر .. لن تترك الفرحة هذه المرة تفلت من بين يديها ؛ فالمهم الآن يوسف .. وبعد ذلك ستفكر في الاستقرار ، سواءً في لندن أو في ليـڤربول ؛ خصوصًا أن والدها أبدى استعدادًا لأن يمنح يوسف إحدى توكيلاته الطبية ليروج له بالشرق الأوسط ؛ فهي الآن سوق جديد واعد ، ومن الممكن أن يدير نشاطه من إنجلترا .. إن نجاحها في الجولة الأولى ، وهي خطبتها ليوسف ، سيضمن دخولها الجولة الثانية بفارق ، يسمح لها بإقناعه بالزواج مع بريق التوكيل التجاري !

* * *

أخرجهما يوسف من الباب الخلفي للإرسالية حتى لا يراهما أحد .. ووقف يراقب تويا من خلف نافذة مكتبه ، وهي تحمل «دونو» بين يديها لتضعه في سيارة الإرسالية ، التي أمر يوسف سائقها بأن يوصلهما سالمين .

فجأة دفعت ضلفتا باب مكتبه في عنف... التفت بجسمه كله .. كان نيفيل يرتدي سترة بيضاء وقميصًا أسود ورابطة عنق من لون السترة نفسها وكذلك الحذاء .. رمقه يوسف بنظرة سخط لاقتحام مكتبه بهذا الأسلوب الفج .

لم يعره نيفيل اهتمامًا ، وجلس في برود وصلفٍ ، قائلًا :

- أحد رجالي أصيب أمس في صدره ، وفشلنا في علاجه ، وأنا لا أرغب في موته الآن ، ولا أريد الذهاب إلى مستشفى حكومي .. تصرف .. فهو في الغرفة المجاورة ينتظرك .

زاد سخط يوسف أكثر من طريقة نيفيل الآمرة ، وكأنه يعمل تحت قيادته ؛ حتى شعر أنه يود أن يصفعه على وجهه بشدة .. ولكنه كبح غضبه وأخذ نفسًا عميقًا ؛ لكي يتمالك أعصابه ، وجز على أسنانه ، وجلس إلى مكتبه ، وكأنه لم يسمع شيئا مما قاله نيفيل ... فجأة طرق الأخير بكف يده بشدة على سطح المكتب ، قائلًا بنبرةٍ حادة لاتخلو من التهديد :

- الآن يعني الآن.. يجب أن تنقذه ، فأنا أريده أن يعيش .. وإلا سأعتبرك السبب في موته !

لا يعرف يوسف كيف كان سيتصرف ، لو لم يدخل أحد أطباء الإرسالية في تلك اللحظة ؛ ليطلب منه في أدب جم أقرب إلى التوسل أن يأتي ليفحص رجل نيفيل المصاب .. حيث لاحظوا أنه مصاب بجروح غريبة !

غادر يوسف الحجرة ، ونظرات نيفيل تحيط به وتحاصره ، كأنها حيوانات متوحشة ، تتأهب لافتراسه في أية لحظة .. الشرر يتطاير من عينيه الغائرتين ، وهو يعبث في شاربه الأبيض ، وخاتمه الضخم لايزال يحتل الموقع نفسه في إصبعه الصغير .

كان الجرح غائرًا ملوثًا بسبب محاولات رجال إيراي علاجه بأعشاب ومساحيق غريبة ؛ مما تسبب في انسداد مسامه وزاد من تقيحه ، مثلما كاد أن يحدث لـ «دونو» .

كان معاونو يوسف قد بدأوا في تطهير الجرح ، حتى كادوا ينتهوا ، عندما حضر إليهم يوسف ، الذي لاحظ جروحًا أخرى .. ولكن أخف وطأة في ذراعي الرجل ، وإن بدت غريبة نوعًا ما ، حين سأله عنها أجاب الرجل باقتضاب : بأنه لا يشعر بأي ألم بها وأن لها فترة بجسمه ولا تزول ..! حول جروحه ، كانت توجد بقع مغايرة للون جلده الأسود تمامًا تميل إلى اللون الفاتح .. ضغط يوسف عليها بيده عدة مرات بشدة ؛ حتى يؤلم الرجل .. إلا أن ملامحه بدت ساكنة ، وبدا فاقد الإحساس تمامًا بهذه المنطقة من جسده ... أسفر الفحص عن تورم اليدين والقدمين ... كما لاحظ يوسف ارتفاع درجة حرارة جسد الرجل ... كان محمومًا ... لم يكن يوسف يحتاج لأكثر من ذلك ؛ ليدرك أن هذا الرجل مصابٌ بالجذام ، وفي مرحلة متأخرة نوعًا ما أيضًا !

سأل يوسف الرجل ، وهو يركز بصره نحو عينيه :

- هل تعرف أحدًا غيرك ، قد تورمت يداه أو قدماه .

قبل أن يجيب الرجل ، كان صوت جيفري يعلو من خلف يوسف قائلًا :

- لقد سألته هذا السؤال يا دكتور يوسف ، وأجاب بالنفي .

التفت إليه يوسف في دهشة من نبرة حديثه ، ثم أعاد بصره إلى وجه المريض ، الذي لم يكن يحرك ساكنًا حتى هذه اللحظة ، وعندما بادره جيفري قائلا :

- أليس كذلك ؟

هز الرجل رأسه بالإيجاب .

بدا الفزع على وجه نيفيل لأول مرة .. عندما أخبره يوسف بحقيقة مرض الرجل ، وهو ينزع قفازيه البلاستيكيين ... كانت ملامح نيفيل دومًا متحجرة ، لا يظهر منها سوى الغضب والقسوة ، ثم تعود لطبيعتها لتحوله إلى وجه من جرانيت بلا روح .. لم يكن فزعه لمرض رجل من رجاله ،

بل لأنه صافحه وربت على جسده ، وفحص إصابته بنفسه ، وتعامل معه كثيرًا ، فقد كان من رجاله المقربين .. ثم جاء يوسف الآن ليخبره بأن المرض تنتقل عدواه بالملامسة !

يوسف :

- لابد أن يبقى الرجل معنا هنا حتى ننقذ حياته .. إذا ما أخذته معك ، سيموت خلال أيام .

نيفيل في غلظة :

- فليمت أو ليذهب إلى الجحيم .. أنا أسألك عن حالتي أنا ... يجب أن تفحصني فورًا .. أريد أن أعرف هل أصابتني العدوى أم لا ؟

رد يوسف في برود ، وهو يفحص أوراقًا في ملف كبير من الورق المقوى :

- لا يمكنني ولا يمكن لغيري أن يعرف الآن إذا ما كنت مصابًا بهذا المرض أم لا .. لم نصل إلى هذه الدرجة المتقدمة من الكشف المبكر عن المرض بعد ، وإلا كنا قد تمكنا من إنقاذ الآلاف هنا قبل إصابتهم .

فرد نيفيل ذراعه فجأة ، ثم أطاح بالأوراق والملفات التي على سطح المكتب ، فاصطدمت في طريقها بكوب زجاجي ، أسقطته حطامًا على أرضية الحجرة في ثوانٍ معدودة ؛ فأحدث جلبة .. لمعت معها عينا يوسف ، واستشاط غضبًا .. بينما ظل نيفيل يصيح ويتوعد كثور هائج ، يصب لعناته وشتائمه على الزنوج والأطباء ومرض الجذام ، ثم يغادر الغرفة في ثورة بخطوات مندفعة مطيحًا بأحد الأطباء ، الذي تصادف دخوله غرفة يوسف في الوقت ذاته :

- ما الأمر .. هل أصابك مكروه يا دكتور يوسف ؟!

تساءل الطبيب في ذهول .

أجابه يوسف في عجالة :

- لا شيء .. لا تهتم لأمر هذا العجوز المجنون .. هيا إلى المريض .. أمامنا عمل كثير، هذه حالة متأخرة ، ويمكننا إجراء أبحاثنا عليها.. إنها فرصة قد لا تتكرر لنا مرة ثانية ... أين جيفري ؟

ردَّ المساعد :

- لقد مضى مع نيفيل ؛ لكي يهدئ من روعه !!!

* * *

بصعوبة بالغة ، تمكن سكورت باتصالاته من تأجيل سفر يوسف ، بناء على طلبه ، بعد دفع غرامة تعادل ربع قيمة تذكرة السفر .. كان يوسف يرغب في إتمام فقرة أخيرة في بحثه على شخص آدمي ؛ ليقطع شوطًا كبيرًا في رسالته العلمية ، وقد وجد ضالته المنشودة في رجل نيفيل المصاب ... كان يسابق الزمن في إجراء البحث بالمعمل ، ويترقب النتائج بشغف شديد ... لم يعد يفعل شيئًا سوى البقاء في مقر الإرسالية طوال اليوم ، حتى أمضى ليلة من أيامه المتبقية في نيروبي بالمعمل ، دون أن يذوق طعم النوم ... كان لديه إحساس خفي بداخله يشده نحو البقاء .. شعور أشبه بالجاذبية الأرضية للأجسام الطائرة ، وكأن نيروبي هي محطته الأخيرة ... هاجس غريب يلح عليه بأن هناك كثيرًا من المرضى ، لا يريد نيفيل - بمعاونة الطبيب جيفري - أن يكتشفوا أمرهم ؛ حتى لا يعالجوا ، ومن ثم يساقون إلى مصيرهم المحتوم الحرق في البركان ..

عندما كان هذا الهاجس يقفز إلى رأسه ، كان يرتجف ويشعر بالخزي ، إذا ما توانى عن مساعدة هؤلاء الأفارقة ، وكأنه كمن يقتطع جذوره ليبعد عنها ، رغم أنها تزحف وتمتد للاقتراب منه رويدًا رويدًا ، ويومًا بعد يوم .

على الجانب الآخر كانت السيدة براون وكاترين قد استقبلتا تأجيل موعد حضوره بارتياح شديد ، فلم تكن أي منهما قد انتهت من الاستعداد لمراسم الخطبة ... فأفسح لهما تأخيره عن موعده الكثير من الوقت لإنهاء الاستعدادات على مهل ، وبتأنٍ أيضًا .

أما يوسف .. فقد كان لا يفكر إلَّا في إتمام بحثه.. نسي «دونو» وجراحه ، ولم يعد يرى إلَّا رسالته العلمية ، ومع ذلك كان وجه تويا وصوتها – بالكاد - لا يفارقانه ، وكان كثيرًا ما يتعجب ، وهو واقف في معمله من تعلقه بها .. ويشرد بعض الوقت سابحًا معها في خياله ، ولا يخرجه من شروده إلَّا صوت مساعده جيفري بسؤاله التقليدي ، الذي لا يغير صيغته أبدًا ، وكأنه نص ديني لا يجوز تحريفه : هل أنت على ما يرام ؟!

على الجانب الآخر ، فإن البروفيسور جورج راندال استقبل الخبر ببرود مشوب بالترقب .. فلقد استشعر بخبرته ، وردود أفعال يوسف منذ أن وصله تقريره الأول من نيروبي أنه لن يفعل شيئًا للمؤسسة ، ولن يهمه إلَّا إتمام بحثه العلمي .. ومع ذلك كان مترقبًا لنتيجة البحث ، باعتبار أن ما لا يدرك كله لا يترك كله .

كان مساعد البروفيسور الجالس بجواره ، وكأنه يقرأ أفكار البروفيسور جورج ، عندما قال له :

- ألم أقل لك إن يوسف لا يهمه إلَّا نفسه ، ولن ينفعنا في شيء .. لقد راهنت على حصان خاسر يا سيدي منذ البداية .

كان البروفيسور جورج راندال يعقد يديه خلف ظهره ، وهو يقف قابعًا خلف ستائر نافذة شرفة مكتبه ، بالطابق الثاني من مؤسسته ، يتأمل زهور الأوركيد التي تنتشر في حديقتها بكثرة .. أجابه في شرود :

- هذا الرجل رغم كل عيوبه الشخصية وحبه لذاته وأنانيته ، فإنه ماهر في البحث .. دقيق وذكي .. لديه قدرة على الاستيعاب ، واستنباط النتائج بأقصر الطرق ... هذا ما جذبني إليه ، منذ أن عرفته عن قرب ... وحتى لو خيب ظني ، فأنا معجب بهذا الجانب من شخصيته .

صمت قليلًا ، ثم أردف بعينين لامعتين :

- ومن يعلم فربما يطغى هذا الجانب على بقية جوانبه السيئة ، فيمحوها أو يقلل من فاعليتها يومًا ما ، ووقتها سيكون هو الحصان الرابح .

قالها البروفيسور ، وهو يضع كلتا يديه على المدفأة ، ملتمسًا بعض الدفء في هذا الطقس القارس البرودة من شهور السنة الأولى .

* * *

سمع نقرًا خفيفًا على زجاج النافذة بالطابق الأرضي ، والمطلة على فناء رملي لمقر الإرسالية .. التفت يوسف بعينيه المجهدتين ، والتي احتلت هالتان سوداوان تحتهما مساحة لا بأس بها ، باتت أشبه بالهلال ... لمح تويا والصغير «دونو» يقفان خلف النافذة مبتسمين في ود ... اقترب قليلًا ،

وأشار لهما أن يدخلا .. إلّا أن «دونو» أشار له بأن يحضر إليهما ، ملوحًا بفرخ ورق ، ملفوف بعناية بشريط داكن اللون .

أثار شكل الفرخ الورقي فضول يوسف ، فخرج إليهما ، وهو يرتدي معطفه الأبيض القصير ذا الجيوب الثلاثة ، ويضع قفازين بلاستيكيين بيضاوين على يديه .. نزع أحدهما من على كفه الأيمن ؛ حتى يتمكن من مصافحة تويا بحرارة خاصة .. التفت للصغير الشقي ، فألفاه قد استرد عافيته ، وبدا مرحًا نشطًا كعادته .

- لقد علمنا من مساعدك جيفري أنك سترحل ، عندما كنت تعالج «دونو» هنا منذ أيام ، ولم نشأ أن نزعجك أو نلح عليك في أسباب رحيلك .. ولكننا أحببنا أن نهديك هذه حتى تتذكرنا دومًا .

كانت تويا تنطق بهذه العبارات ، في رقة ممزوجة بالخجل ، وترفع عينيها في وجهه ، تختلس بهما نظرة ، وسرعان ما تعاود خفضهما مرة أخرى لتهرب من بريق عينيه اللامعتين ... ثم مدت يدها إليه بفرخ الورق .

فضه يوسف في هدوء مبتسمًا ، وهو يتأمل خجل تويا ونظرات الفرحة التي اعترت وجه «دونو» ، ثم فرده بطول ذراعيه . فوجئ بصورته مرسومة بدقة بالفحم على الورقة الكبيرة ، وتحتل مساحة لا تقل عن ثلثيها .

سرت في جسده نشوة غريبة ، كاد معها أن يحتضن تويا ويقبلها .. أفرغ شحنته العاطفية مع «دونو» الذي قفز وتعلق برقبته كقرد صغير يحضن أمه .. احتضنه يوسف بقوة ، وعيناه تتأملان تويا التي وقفت ساكنة تبتسم ، وإن كان الخجل لم يفارق عينيها بعد .

- لماذا رسمت وجهي مبتسمًا هكذا؟

- هكذا شاهدتك أول مرة ، عندما كنا على ضفاف البحيرة ، وأظن أنك قضيت وقتًا سعيدًا في بلدي ، فأردت أن أذكرك به دائمًا .

تلعثم يوسف قائلًا :

- نعم .. نعم هذا صحيح .. لماذا لا تكونا ضيفيَّ اليوم على العشاء بالفندق ؟

ردت تويا في أدب :

- أنا لم أتخط حدود الإرسالية أبدًا ، ولا أظن أنني سأفعل .. لماذا لا تأتي إلى قبيلتنا ؛ لنحتفي بك ونودعك ونشكرك على علاج «دونو» .. لقد أعددنا لك احتفالًا بسيطا غدًا و«أداتوا» في انتظارك .

تعلقت عينا «دونو» به ، تنتظران إجابته بلهفة ، وكأنما تناجيانه أن يستجيب لتويا ويقبل الدعوة .

ربت يوسف على رأس «دونو» ، قائلًا بلا تفكير: موافق .

وقف يتأملهما ، وهما يغادران بوابة الإرسالية .. كان دونو تقريبًا يسير بظهره ، ويلوح بيديه ليوسف كل برهة ، وهو يقفز فرحًا.. بينما تويا تتلفت كل بضع خطوات مبتسمة في وداعة ، ورقة ، لم ير مثلهما من قبل في حياته .

* * *

- هل جننت يا چو ؟ ما شأنك وشأن هذا الرجل .. اتركه في حاله ، كلها أيام معدودة ، وترحل من هنا.. ثم إن السلطات لن تفعل له شيئًا ، فالصيد مسموح به في نطاق محدد ، ولن تستطيع أن تثبت

أنه كان يقوم بأعمال صيد جائر كما تقول ، ثم إنك تتحدث عن أمور خطيرة، تجارة أعضاء بشرية وقتل أطفال ... إن هذه الأمور ستؤدي بنا إلى أن نكون في عداد الأموات مثلهم ، إذا ما أبلغنا الشرطة عن نيفيل وإيراي .

كان سكورت يتحدث بانفعال شديد ، وقد احمر وجهه جراء توتر شديد ، وأغاظه أكثر برود يوسف ، الذي كان يدخن في هدوء ، وهو يفرد ساقيه على منضدة صغيرة أمامه .

ظل سكورت يدور في الغرفة ، ثم وقف أمام يوسف ، ملوحًا بأصبعه في وجهه قائلًا بحدة :

- اسمع ، إذا أردت أن تبلغ الشرطة .. فافعلها وحدك ، أو في يوم رحيلك .. أما أنا فاتركني في حالي .. أريد أن أعيش هنا وأعمل في سلام ؛ حتى لوهلكت جميع فصائل الحيوانات في كينيا ، بل في إفريقيا كلها .. أما موضوع قتل الأطفال وتجارة الأعضاء البشرية ، فأنا لا أصدقه، إن «دونو» طفل صغير ، خياله واسع مثل من هم في سنه من الأطفال ،.. ألم تسمعه ، وهو يتحدث مع السائحين هنا عن مصارعته للأسود وركوبه للأفيال وعلاجه لأبقار قبيلته ..! إنه مخرف صغير ، لا يجب أن تقتنع بخرافاته ، وتصدق أقاويله وشائعاته لمجرد أنه رواها لك ، وهو يبكي ... نيفيل لن يتركك في حالك ، إذا ما عرف أنك من أبلغ عنه ، وسيقتلك بدم بارد .. صدقني أنا أعيش هنا منذ عشرة سنوات ، وأعني كل كلمة أقولها لك .

لم تفلح كل محاولات سكورت وتوسلاته في إثناء يوسف عن الإبلاغ عن الجرائم ، التي سمع بها .. بل ربما تكون قد زادته تصميمًا على رأيه أكثر وأكثر .. فرد عليه قائلًا :

- بالعكس يا سكورت ، أنا أصدقه فلا يوجد لديه سبب واحد يجعله يكذب ، أنا من ألح عليه ليتحدث ، كما أن نيفيل نفسه أنكر إصابة رجله من قرن الخرتيت ، الذي كان يقوم باصطياده ، ألا يجعلك ذلك كله تشك ؟ لقد أصبحت متأكدًا أن جميع أعمال هذا الرجل مشبوهة .. ثم إنني سأرحل من هنا ، ولن يراني نيفيل أو غيره ثانية .. لذا سأبلغ الشرطة عنه .

عند انتصاف ظهيرة اليوم ، كانت قوة صغيرة من الشرطة قد وصلت الفندق ، إثر بلاغ يوسف بوجود جرائم صيد جائر ، وقتل أطفال للحصول على أعضائها للتجارة فيها .

وفور دخولهم غرفة مكتب سكورت ، أشار لهم إلى يوسف قائلًا :

- هذا هو الدكتور يوسف نجيب صاحب البلاغ .. تحياتي لكم وتمنياتي بالتوفيق .. أرجو أن تعتبروا المكتب غرفة تحقيق كما تشاؤون ... تحياتي مرة أخرى .

قالها وهو يرفع قبعته تحية لضابط الشرطة ، ويخرج من الغرفة بظهره ، بينما ترتعد فرائصه من الخوف ، واضعًا ابتسامة مزيفة على شفتيه ، بهدف التماسك ، ثم أغلق الباب خلفه في سكون ، وما هي إلَّا ثوانٍ معدودة ، حتى كان قد غادر الفندق بالكامل !

استمع ضابط الشرطة الكيني لأقوال يوسف ، وأدلته على ما يقول ، ولكن يوسف لم يشأ أن يخبره باسم «دونو» أو الزج باسم تويا في الموضوع ، فأضاف أسماءً وهمية على أنهم الذين أخبروه بالأمر ، واستشهد بالمريض المصاب بجرح نافذ من قرن حيوان الكركدن.. وفي النهاية ، وقع على مذكرة بأقواله ، وخرج من مكتب سكورت ، بصحبة رجال الشرطة متوجهًا إلى مقر الإرسالية لسؤال رجل نيفيل المصاب .

فتح يوسف باب الغرفة بالمقر الطبي ، وأشار لهم ، وهو يفرد ذراعه حتى نهايته :

- هذا هو المصاب ... تفضلوا .

نظر رجال الشرطة إليه في غضب ... فقد كان الفراش خاليًا ومرتبًا ، كأن أحدًا لم ينم عليه من قبل !

كاد يوسف أن يجن .. نادى على أحد مساعديه ، الذي حضر مرتبكًا نوعًا ما ، وحين سأله يوسف في حدة عن الرجل المصاب ، أجابه بتلعثم بأن المريض غادر منذ الصباح ، بعد أن تحسنت حالته !

هنا تدخل رجل الشرطة بسؤال للمساعد ، بعد أن تقدم خطوة للأمام ، بحيث استوى مع يوسف في وقفته قائلًا :

- ما نوع إصابته تحديدًا ؟

أجابه چيفري ، وهو ينقل بصره بين وجه يوسف الغاضب وملامح الضابط الصارمة :

- لا شيء .. مجرد توعك بسيط في معدته من جراء الإفراط في الطعام ، كعادة أهل القبائل هنا !!!

مضت سيارة الشرطة في هدوء ، ويوسف يقف في خلفية المشهد ، وسط الغبار القليل الذي خلفته ، شاردًا في كلمات الضابط الأخيرة : لن نعاقبك هذه المرة على ما أثرته من بلبلة ، ولكن إذا تكرر منك مثل هذا الموقف ، سنعتقلك بتهمة البلاغ الكاذب وإزعاج السلطات .

أدرك الآن صحة كلام سكورت .. إن نيفيل يتحرك بأسرع مما يتوقع ، واشترى سكوت مساعده في الإرسالية ، وسيلدغه كالثعبان ، حتى ولو ظن أنه قد أحاط به وأحكم عليه قبضته .. فالانقضاض في اللحظة الأخيرة هو ما يحسم النزال دائمًا !

صباح اليوم التالي ، أنهى يوسف أبحاثه مبكرًا مع الكيميائي المتخصص على غير عادته .. فقد كان ذهنه مشغولًا بما حدث ، وبانتقام نيفيل الذي بات متوقعًا، وبنتائج الأبحاث التي ذهبت أدراج الرياح ؛ فباختفاء الرجل المصاب تلاشت الآمال في التوصل إلى نتائج التركيبة الثلاثية ، التي كان قد بدأ بالفعل في إعطائه جرعات منها ، وكان من المقرر أن يستمر عليها لمدة أسبوع لمتابعة آثارها الجانبية .

في تمام الثالثة مساءً .. مرَّ عليه سكورت بسيارة دفع رباعي قديمة بيضاء اللون ؛ خاصة بالفندق .

سكورت في ضيق :

- إلى أين تريد أن تذهب ؟

- إلى الكيكيويو ، نحن مدعوان اليوم إلى حفل خاص على شرفي ... سترى ما لم تره طوال عشر سنوات على الجانب الآخر من فندقك .

سكورت منفجرًا في عصبية :

- هل جننت .. أنا لم ولن أذهب إلى هناك أبدًا ، فحدودي تنتهي عند سياج الشجر ، الذي يحيط بحوض السباحة .. اذهب بمفردك إلى هذه الأدغال ... ثم كيف ستعرف الطريق إلى هناك .. يبدو أنك قد فقدت عقلك .. يا ليتك قد غادرت نيروبي في موعدك .

قال يوسف ، وهو ينظر إلى الأمام متجاهلًا ما قاله سكورت :

- لا بأس .. أوصلني عند البحيرة ، واتركني هناك .. الطريق سهل إلى البحيرة ، وهي لا تبعد سوى بضعة كيلو مترات عن هنا .. سأرشدك .

- كما تشاء .

قالها سكورت ، وهو يدير محرك السيارة القديمة ، الذي استجاب في دورته الثالثة ، وتهادت السيارة على طريق غير ممهد ، يبدو كشريط صغير وسط الأحراش الكثيفة الخضراء ، الممتدة بلا نهاية .

* * *

11
البركان

- هل أطلبها منه اليوم ، أم أنتظر للغد ؟!

أنبته تويا على إلحاحه قائلة :

- قلت لك من قبل إنه لا يصح أن تطلبها منه يا «دونو» ، فقد تكون هذه القبعة لها ذكرى غالية لديه ، وقد تسبب له حرجًا بطلبك إياها بهذا الإلحاح ..

لم يطل الحديث بينهما ، فقد قطعه وصول السيارة التي تقل سكورت ويوسف .. تبادلا التحية ، ولأول مرة يمسك يوسف بكفي تويا .. شعر وكأنه يعانقها .. يحتضنها .. كان يفتقدها تلك المرة ، دون أن يعرف السبب .. أمر بدا له غريبًا ، والأغرب أنها استجابت ، وتركت كفيها بين راحتيه هذه المرة ، وكأنها هي الأخرى تشاركه الشعور ذاته .

وقف سكورت يتأملها ، وهو يهرش في مؤخرة رأسه ، مندهشًا لما يراه .. فلم يكن يوسف قد روى له الكثير عن تويا .

التقت عينا سكورت بعيني «دونو» الصغير ، الذي غمز له بعينه اليسرى مبتسمًا في براءة .

باءت كل محاولات سكورت بشأن اعتذاره عن عدم حضور الاحتفال بالفشل ، وانهارت كل حججه أمام رقة تويا ، وإصرار «دونو» ، وأسهم إحراج يوسف له أمامها في حسم الأمر .

ولم تمض دقائق معدودة بالسيارة ، حتى كانوا جميعًا في مكان فسيح ، تحيط به أكواخ مبنية من جذوع الأشجار ، مختلفة الأحجام ومتراصة على الجانبين ، وبعضها يقطع الطريق ؛ فيجبرك على الانحراف يمينًا أو يسارًا ... إنه قلب قبيلة الكيكيويو!!

لاحظ يوسف مجموعة من الأكواخ ذات الأشكال المختلفة، منبعجة قليلًا ومائلة نوعًا ما ، مشيدة على تل صغير أو تبة أعدت خصيصًا ... وحين استفسر عنها من تويا ، عرف أنها أكواخ إيراي ورجاله .. ترجلوا من السيارة ومروا على كوخ ضخم ، يحيط به سياج من جذوع أشجار ، دقت رأسيًّا في الأرض ، تمرح أمامه سبع بقرات وثور في حرية من يرتع في ملكه .. كان كوخ مينجو زعيم القبيلة ، الذي يقف حوله مجموعة من الرجال الأشداء ، المسلحين بحراب مدببة لامعة الأنصال، تبدو ملامحهم الصارمة القاسية ، كأنها قدت من صخر .. كانوا يرتدون تنورات ذهبية اللون ، مقطعة من جميع جوانبها .

خلال جولتهم ، استرعى انتباههم أن رجلًا عاريًا تمامًا يبرق جسده ويلمع بشدة ، وكأنه قد دهن بطلاء شفاف .. كان يسابق الريح عدوًا ، وهو يصرخ في فزع ، وكأنه يهرب من شيء مجهول ، يطارده ويكاد يلحق به .

وقبل أن يستفسر يوسف عما يجري أمامه ، ضحكت تويا وهي تشرح لهما بعفوية :

- إنه لص تم القبض عليه اليوم ، وحكم عليه «أداتوا» بأن يتم دهن جسده بالكامل بالعسل ، وهو يجري الآن منفذًا الحكم ، ومحاولًا الوصول إلى البحيرة قبل أن يلحق به النحل ، و....

لم تكمل تويا جملتها ، فقد غطى طنين النحل على أصواتهم جميعًا، فاستغرقوا في الضحك .. إلا سكورت الذي انتابه قلق وشعر بأمعائه تتحرك ، فبدأ يتلوى في مشيته قليلًا .

كان القاسم المشترك أمام كل الأكواخ هو الأبقار ..! التي يكاد لا يخلو منها فناء كوخ ، وقد تطل إحداها برأسها من إحدى فتحاته في وجوم كعادتها !!

اصطحبتهم تويا إلى كوخ «أداتوا» الرئيسي ؛ حيث أعدت مصاطب صغيرة متراصة بعناية في فنائه الخلفي ، تتسع لأعداد كبيرة على شكل نصف دائرة ، في مواجهة الجبل الذي رآه يوسف قريبًا جدًّا ، فتخيله كوحش خرافي رابض في سكون .. رحب بهم «أداتوا» بشدة ، وجاءت والدة «دونو» مبتسمة ، وانحنت أمام يوسف في خشوع ثلاث مرات ، ثم مدت يدها إليه فمدها في احترام ليصافحها .. أمسكت بها ووضعتها على جبهتها ، وانحنت قليلًا ثم انصرفت .

نظر يوسف لتويا متسائلًا ، فأفهمته أن والدة دونو تشكره بامتنان على شفاء ابنها ، وأنها بهذه الطريقة تؤدي له الطقوس ذاتها ، التي تؤدى للأرواح الشريرة للحصول على رضائها .

كان سكورت يتصبب عرقًا ويشعر بخوف داخلي يتزايد في أعماقه، يكاد يفور كالبركان من كل فتحات جسده، حاول أن يتغلب عليه بابتسامته وضحكاته ، ولكنه لم يفلح أبدًا ؛ فقد كانت ابتسامته باهتة ، وضحكاته مكتومة على غير عادته ؛ خصوصًا عندما قدم رجال القبيلة عرضًا راقصًا بالحراب المدببة ذات الأنصال اللامعة ، وبدأوا يقتربون منه بسرعة ، ثم يديرون فجأة رؤوس الحراب أمام وجهه مباشرة إلى الناحية الأخرى . مما أثار فزعه وجعله يفقد توازنه ، ويسقط على ظهره.. فأثار ضحكات من حوله خصوصًا يوسف وتويا .. اللذين ظلا يتبادلان النظرات طوال الحفل ، كما لو أن خيوط مشاعر رقيقة جميلة وقوية ، في الوقت نفسه ، قد بدأت تتصل وتتشابك بينهما في هدوء .

دقت طبول شديدة من ثلاثة أركان ، يجلس في كل منها رجل ضخم يضع تاجًا من الريش الأحمر ، فوق رأسه ، ويدق بكلتا يديه بعنف على طبول صفراء ، حجمها يقارب حجم رجل قصير ممتلئ !!

بعدها ظهر إيراي ورجاله ؛ مما أضفى جوًّا من التوتر على يوسف ودونو ، وبالطبع سكورت ، الذي بات قاب قوسين أو أدنى من أزمة قلبية ؛ حيث بدأت دقات قلبه تتسارع وتقرع ضلوعه بشدة وعنف ، وكأنها تتنافس مع الطبول في شدة ضرباتها ، التي صارت تدق دقات متواصلة متتابعة منتظمة ، تصاحب خطوات إيراي ، الذي بدا وكأنه سيقوم بشيء غير متوقع .

فجأة ظهر رجلان أشداء من رجال إيراي ، يحملان قفصًا حديديًّا ، به نمر مفترس تكاد ملامح الغدر ، تنطلق من عينيه كالسهام في وجوه الحاضرين .

شعر سكورت وقتها بأن ملابسه قد ابتلت ، واكتشف أنه لم يستطع أن يتمالك نفسه من الخوف ، فبال على نفسه قليلًا .. ظل ساكنًا وإن كان قد بدأ يشعر بالحرج ، وأن العيون ترقبه ، وتخيل أن الجميع قد رأى ما فعله ؛ خصوصًا أنه سمع ضحكات مكتومة .. وحين التفت خلفه ، شاهد صفًّا من سيدات إفريقيات ، بدينات عاريات الصدور ، يبتسمن له في بلاهة ويتحدثن لغةً لم يفهم منها شيئًا .

أرسل نظرة استجداء إلى تويا لتساعده على تجاوز الموقف ... فلم تخذله .. تبادلت معهن حديثًا قصيرًا ، ثم نظرت إلى أسفل قدميه وضحكت ..شعر سكورت بالخجل يكاد يقتله.. لكن تويا أبلغته ، وهي لا تزال ضاحكة :

- إنهن يظنن أنك ساحر ، تفجر الماء من الأرض ، وأنت جالس .... من أين أتيت به يا سكورت ؟!

نظر إليها سكورت في بلاهة ولم يجبها ... وتعلقت عيناه بيوسف ؛ عله ينقذه من هذا المأزق الحرج المزدوج ، فغمز له يوسف بعينه قائلًا :

- هل تحب أن نشرب نخب هذا الماء يا سكورت؟!

لعنه سكورت في سره ، وتوعده بالويل عندما يعودان معًا للفندق.. وقبع في مكانه مرتعدًا ، يتابع النمر ، وهم يفتحون له القفص ، وهو يحبس أنفاسه .. بينما كان قرع الطبول يعلو بصورة جنونية .. كان مشهدًا غريبًا بكل معنى الكلمة .

إلا إنه بالنسبة لقبيلة الكيكيويو ، لم يكن يعني سوى تأكيد لقوة الإنسان ، وقدرته على ترويض الطبيعة ، حتى ولو كانت قاسية ومتوحشة .

دار صراع مرير بين إيراي والنمر ، ولكنه لم يدم سوى دقائق قصيرة ، مرت على سكورت ويوسف كسنوات طويلة .. ولكنه انتهى حين غرس إيراي حربته في رقبة النمر ، فأرداه صريعًا ، ثم وقف في زهو وكبرياء يتلقى تصفيق أفراد قبيلته وهتافهم له ، ولم ينس في خضم الاحتفال أن يلقي باتجاه يوسف وسكورت ببعض نظرات الازدراء والتهديد والوعيد .

قبل أن يفيقا من نظرات إيراي، تقدمت باتجاههما فتاة صغيرة جميلة ، لا ترتدي سوى قطعة قماش برتقالية فاقعة اللون تستر بها عورتها بالكاد ، قدمت لهما تحية ضيوف «أداتوا» .. عبارة عن بضعة أكواب منبعجة مصنوعة من فخار بدائي ، تحوي مشروبًا داكن اللون .

اشتم يوسف المشروب فلم ترق له رائحته .. شجعته تويا قائلةً برقتها المعهودة وصوتها الساحر :

- هذا هو المشروب المقدس ، من يشاركنا فيه .. تربطنا به صلة للأبد فلا نفارقه ولا يفارقنا .

وابتسمت ابتسامتها الخجلة التي تزلزل كيان يوسف ، ثم أطرقت متمتمة :

- هكذا تقول الأسطورة .

كان يحدوها أمل في أن يتناوله يوسف ... لم يخب ظنها فقد رشف منه رشفتين ، ثم امتعض قليلًا ونظر إلى تويا بتوسل ، وكأنه يستحلفها ألا يكمله .. ولكن «دونو» كان أسرع منها فباغته بدفع الكوب من أسفله ، حتى صب محتواه في جوف يوسف بسرعة ، والذي ما أن فرغ منه حتى سألها ، وهو لا يزال ممتعضًا مما شربه :

- ماهذا المشروب ؟!

أجابته في ثقة وفرحة :

- دماء من رأس البقرة التي ذبحت على شرفك اليوم ، مخلوطة بالحليب والخمر !!

كانت إجابتها كفيلة بأن يفرغ كل ما في جوفه ويتوقف عن الشراب طوال حياته ، ولكنه أشاح بوجهه إلى الناحية الأخرى محاولًا نسيان ما قالته . فلفت نظره أعداد الحضور الهائلة .. كانوا لا يقلون عن ثلاثة الآف شخص على الأقل .. ألهاه هذا الأمر عن التفكير في المشروب المقدس ، وأبدى تعجبه من كثافة سكان قبيلة تويا ... فلم يجد لديها ردًّا.. نقل بصره إلى سكورت ، فشاهده يتلفت يمينًا ويسارًا في حذر ، وكأنه على وشك ارتكاب فعلٍ ما .

كان سكورت قد انتابه هاجس بأنهم وضعوا له مخدرًا بهذا الشراب فلم يتناوله ، وإنما ظل يسكبه برفق أسفل قدميه مستمتعًا بضحكات الإفريقيات الجالسات خلفه ، بعد أن أعجبته الحيلة التي اعتقدن معها أنه ساحر !!

عندما حل الظلام ، دوت أصوات فرقعة عالية ، ذكَّرت «دونو» بحادث البركان وصيد وحيد القرن والأطفال المذبوحين ؛ مما جعله يهرع إلى جوار أمه، ينكمش بجسده ثم يلتصق أكثر بحضنها ، ويخفي وجهه في صدرها ، بينما ربتت هي على رأسه بحنان بالغ.. نقل يوسف نظره من «دونو» إلى الجبل ، فشاهد ألسنة مستعرة من اللهب تتصاعد منه ، بينما أصوات الفرقعة العالية تدوي كل برهة ، وكأنها خلفية موسيقية لهذا المشهد .

مال يوسف على تويا متسائلًا عما يراه ، فأجابته:

- إنه البركان الذي يحوي الروح الشريرة ، و«مينجو» زعيم قبيلتنا سوف يسكتها بعد قليل ، فهو وإيراي الوحيدان القادران على ترويض البركان وأرواحه الشريرة .

قال يوسف ، وهو مقطب الجبين :

- ولكن هذه الأصوات ليست إلا أصوات أعيرة نارية من بنادق خرطوش .. وهذه النيران المشتعلة ليست حممًا بركانية ، وإنما لهب حرائق تشتعل فوق قمة ذلك الجبل .

لم يجد كلام يوسف أي صدى لدى تويا ، التي طالما شاهدت هذا المشهد يتكرر كل عدة أسابيع ، ولم تستطع نبرته الواثقة أن تقنعها بشيء مغاير لأسطورة قبيلتها التي فطرت عليها .. وظلت تصفق مع أفراد قبيلتها على وتيرة متقطعة ، وكأنهم يترقبون ظهور الروح الشريرة .

لم يتطرق الشك إلى ذهن يوسف ، بل صمم على رأيه ، وازداد إصرارًا ليعرف حقيقة هذا البركان المزيف .. وعندما تصاعدت بعض أعمدة الدخان من قمة الجبل ، سأل تويا بصوت عالٍ :

- ما هذا الذي يحترق يا تويا ..؟ هذا ليس بركانًا !

جاءته الإجابة من حيث لا يتوقع أبدًا.. فبصوت مبحوح أشبه بفحيح الأفعى، سمع من يهمس في أذنيه :

- هذا هو دليلك يحترق يا من أبلغت عنا .. اذهب وتسلق قمة الجبل ، إن أردت تسليمه للشرطة !

التفت يوسف مفزوعًا ، فوجد إيراي قد جلس بجواره تماما ، وعيناه تقذفان شررًا وفتحات أنفه الواسعة تخرج أنفاسًا حارة ، تلفح وجنتيه .. فبدا له كحيوان أسطوري على وشك افتراسه .

* * *

طوال طريق العودة للفندق ، لم يتوقف سكورت عن إلقاء اللوم على يوسف وتأنيبه .. كان منفعلًا وعصبيًّا إلى أقصى درجة ، حتى أنه أوقف السيارة مرتين ، مهددًا يوسف بإنزاله منها وتركه وسط الأحراش وحيدًا ؛ بسبب سخريته منه ومن حالة الخوف التي لازمته طوال الاحتفال .. كان الموقف أكبر من قدرة سكورت على الاحتمال ، فلم يكن يتخيل ، بعد قضائه عشر سنوات في نيروبي ، أن يذهب ليحضر احتفالًا في ذلك المكان المخيف ، وأن يضطر لمقابلة الأشخاص الذين طالما خاف من مجرد ذكر أسمائهم ... لم يستطع أن يخبر يوسف إلى أي مدى شعر بالرعب ، وهو يخطو أولى خطواته في ذلك المكان ، وكيف سيطر عليه إحساس غريب أنه كمن تجرد من

ملابسه جميعها ، وأن ضربات قلبه قد توقفت ، وأن أنفاسه لم تعد منتظمة ... وكيف عادت إليه الحياة ، وكأنه ولد من جديد عندما غادرا هذا المكان .

أما يوسف ، فبعد أن أشبع هوايته بالسخرية من سكورت ... ظل شاردًا حتى تنبه فجأة ، وكأنه تذكر أمرًا مهمًّا ، فطلب من «دونو» وأحد حراس «أداتوا» اللذين رافقاه في السيارة لإرشاده إلى طريق العودة ، أن يذهبا بهما أولًا إلى ناحية البركان .. المكان ذاته الذي تعرض فيه دونو للاختطاف خلف الجبل منذ فترة ، وبعد جهد قليل ، وعلى ضوء مصباح صغير كان يحتفظ به سكورت في سيارته .. عثر يوسف على عيارين فارغين لطلقات خرطوش ، كانا كبيرين نوعًا ما ، وسمكهما يزيد على تلك المتعارف عليها في صيد الطيور.. وضعهما يوسف في هدوء بأحد جيوبه ، وعاد إلى سيارة سكورت بسرعة ؛ كي لا يغضب منه أكثر من ذلك ، واستغرق في شروده مرة أخرى ، وكأنه كان على موعد مسبق معه .

أما سكورت ، فقد اكتفى بإعلان ضيقه بزفرات عالية ، بدا وكأنه يتعمد إخراجها من صدره المتلهج بصوت مسموع .. حتى دخلا الفندق ، فذهب كل منهما إلى غرفته ، دون أن يتبادلا كلمة واحدة .

استلقى يوسف على فراشه ، وهو لا يزال بملابسه .. حتى حذاؤه ، لم يقو على نزعه من قدميه ..تحسس رأسه ليخلع قبعته ، فلم يجدها .. ابتسم نصف ابتسامة ، متذكرًا أن «دونو» قد طلبها منه كذكرى للأيام الجميلة التي أمضياها معًا ، وأنه قد أعطاها له بعد الاحتفال ، وظل «دونو» مرتديًا إياها داخل السيارة ، مؤكدًا ليوسف أنه لن يخلعها طوال حياته !!

عبث بجيوبه وأخرج عياري الخرطوش منهما وتشممهما.. كانا جافين .. رائحة البارود كانت خفيفة بهما على نحو ما.. وضعهما في منديل من القماش ، ولفهما بعناية ، وأخفاهما في حقيبته اليدوية الصغيرة ، وحاول بعدها أن ينام .. تقلب في فراشه كثيرًا وهو يقاوم الأرق .. وصورة المرضى من أبناء القبيلة ، الذين شاهدهم في الاحتفال ؛ خصوصًا من الأطفال باتت تقلقه أكثر وتقض مضجعه .. كان مشهد النيران المستعرة من فوهة البركان ، يجعله ينتفض كلما تذكر أن عشرات من الأطفال والنساء والرجال الذين سرقت أعضاؤهم بعناية ، قد ألقوا فيها كأوراق نلقيها بلا اكتراث في مدفأة ، ونتأملها في شرود وهي تحترق على مهل .. ياله من إحساس قاس .. ظل على حاله تلك حتى داهمه ضوء الصباح .. فنهض متكاسلًا من فراشه ، واغتسل ثم غادر غرفته بالطابق الثاني إلى حيث مكتب سكورت .. كانت خطواته الواثقة وقسمات وجهه الجادة التي يغلب عليها الإجهاد ، توحي لمن يراه أنه قد انتوى أمرًا ما ، وعلى وشك تنفيذه !

* * *

12
القبيلة

في وسط الأحراش ؛ حيث تقبع قبيلة الكيكيويو في مساحات كبيرة شاسعة ممتدة ، تغطي مئات الأفدنة ، وتحديدًا عند ساحة الاحتفال خلف كوخ «أداتوا» ، بدأ أفراد القبيلة يستعدون لحفل زواج راني من إيراي .

عادة ما تبدأ الاستعدادات قبل العُرس بأيام ، وتستمر بلا توقف ، ويشارك فيها كل رجال ونساء القبيلة .. الرجال يقومون بذبح الحيوانات ، التي ستقدم في وليمة الاحتفال مثل الأبقار والجاموس والخنازير ، ثم يسلخونها ويقطعونها استعدادًا لشيها على نيران استقرت ، تستعر في هدوء أسفل أسياخ سوداء لامعة .. والنساء يتولين أمر الطيور الصغيرة مثل الدجاج فيذبحنه ، ويضعنه في أوانٍ كبيرة ، تستقر على موائد خشبية من جذوع الأشجار .. قام شباب القبيلة بنصبها في وسط الساحة. ..أما الفتيات الصغيرات ، فبعضهن يعتنين بتنظيف الإناء الفضي البيضاوي الكبير ، الذي ستقوم راني بغسل قدمي إيراي فيه ؛ لإعلان استعدادها لخدمته طوال حياته ، وفقًا لتقاليد الكيكيويو ، والبعض الآخر يعتني بالعروس نفسها ، فيقومون بإعداد ثوبها ومصاحبتها إلى البحيرة للاستحمام ، ومسح جسدها بالعطور البدائية والدهائن وتصفيف شعرها ، وتثبيت بعض من جدائله بأدوات مصنوعة من الصدف أو العاج ، ثم مساعدتها في ارتداء ثيابها ، ووضع حليها حول رسغيها وكاحليها .

و بالقرب من فناء كوخ إيراي ، كان العمل مستمرًّا على قدم وساق .. فقد وقف بعض الرجال العراة يعتنون بتنظيف ثلاث بقرات سمينة ، سيقدمها إيراي مهرًا لعروسه عندما تبدأ طقوس الاحتفال ، ويتم إعلان إيراي وراني زوجين .. بينما تقوم مجموعة أخرى بإعداد محفة خشبية عريضة من جذوع الأشجار ، أشبه بالطوف ، وتثبيتها بالحبال ليجلس عليها إيراي ، ويحمله رجاله على الأعناق عند دخوله ساحة الاحتفال .

أما الزينات .. فقد أعدها رجال إيراي ، واهتموا بتجهيز أماكن محددة لتثبيتها في أرجاء الساحة ، وهي عبارة عن أوتاد خشبية سميكة طويلة ، تعلوها جلود ورؤوس حيوانات الحمر الوحشية والوعول والأسود ، التي اصطادها إيراي ، والتي تم تحنيطها خصيصًا للتباهي بقوته وشجاعته ومهارته في الصيد .

في منتصف الساحة الكبيرة تمامًا ، حفر رجال القبيلة حفرة كبيرة مستديرة ، أحيطت بأحجار متوسطة الحجم ، ملونة بألوان جميلة لها شكل مدبب ، رصَّت بدقة على حافتها ، ثم ملئت هذه الحفرة بجذوع الأشجار والنباتات الجافة والقش والأخشاب.. وفي أركان المكان انتشرت طبول مختلفة الأحجام ، وقف بجانب كل منها رجل ضخم ، يرتدي ثيابًا من الريش الملون تغطي الجزء الأسفل من جسمه ، وقد رسم على وجهه وجسمه الأسود اللامع أشكالًا مختلفة ، ولونها باللون الأبيض ، ويمسك في يده عصي لها رؤوس غليظة ، في انتظار الأمر بالنقر على الطبول لإعلان بدء مراسم الزواج .

قبل بداية الاحتفال بوقت ليس بالقصير ، انتشر رجال إيراي أعلى الجبل والتلال القريبة المحيطة بساحة الاحتفال واتخذوا مواقعهم بعناية وخبرة محاربين قدماء مسلحين بأقواسهم وسهامهم ؛ تأهبًا لمواجهة أي حيوان مفترس قد يضل طريقه إليهم ، فيفسد فرحتهم ويثير ذعرهم .

ومع بدء الاحتفال ، ظهر الجميع وقد ارتدوا ملابس زاهية فاقعة الألوان ، فبدا المكان ككرنفال رائع ، يختلط فيه الأحمر بالأصفر والأخضر بالبرتقالي ، ويموج فيه الجميع في حركات واستعراضات بدائية بديعة .. ارتدى الأطفال زيًا موحدًا لونه أخضر .. أما النساء ففضلن اللون الأحمر كعادتهن في احتفالات الزواج .. عدا تويا التي اختارت رداءً برتقاليًّا داكنًا ، وضعت عليه ورودًا صنعتها بنفسها من جلود الأبقار ، ولونتها بألوان الفحم الأسود ؛ مما أضاف إليها الكثير من الكآبة .. ربما رغبةً منها في مشاركة راني أحزانها في يوم فرحها !!

- سوف يثقب «أداتوا» أذنك اليسرى بنفسه .. هذا شرف كبير ، لم تنله فتيات كثيرات من قبيلتنا قبلك .

كانت تويا بكلماتها تلك تحاول أن تخرج راني من حالة الحزن والشرود ، التي غرقت فيها ، منذ أن تحدد اليوم موعدًا لزفافها إلى إيراي .

دمعت عينا راني في صمت ، وهي تشكر تويا على طلبها ذلك من «أداتوا» ثم سألتها فجأة عن يوسف .. كان السؤال مباغتًا بالفعل فارتبكت تويا قليلًا ، ولم تعرف بما ترد ! فمنذ الاحتفال الذي أقيم على شرفه منذ ثلاثة أيام ، وهي لم تره بل ولا تعرف عنه شيئًا .. ردت باقتضاب ، وهي تحاول التظاهر بأنها تعتني بجدل ضفائر راني :

- لا أعرف عنه شيئًا منذ أن كان هنا .

- ألن يحضر الحفل اليوم ؟!

سألتها راني .. وكأنها تستنكر عدم دعوته !

ردت تويا :

- لقد أرسلت له دونو ليخبره ، ولا أعلم لماذا لم يحضرا حتى الآن .

انشغلت راني في متابعة فتيات قبيلتها ، وهم يرسمن الوشم على قدميها وأصابع يديها وبطنها ، قبل وضع خلخالين من الذهب حول كاحليها .

* * *

- أنا تأكدت الآن من أنك فقدت عقلك .. لا شك فعلًا في أنك تجاوزت حافة الجنون باقتدار ، وتستمتع بسقوطك ببطء في بئر النهاية الحزينة لطبيب ، كان ينتظره مستقبل مشرق .

استرسل سكورت في الحديث ، وهو يقوم من خلف مكتبه ؛ ليتوجه إلى حيث جلس يوسف ، بالقرب من النافذة ، وكأن الحديث لا يعنيه ، قائلًا بالحدة ذاتها : أنت تهدم مستقبلك بيديك ، وتحفر في هذه الأدغال بأظافرك قبرًا ، ستدفن فيه .. وكل هذا من أجل من ؟! فتاة سمراء من قبيلة بدائية متخلفة .. كانت تعتقد هي وأهلها ، حتى وقت قريب ، أن السيارة روح شريرة ..! لن يسمح لك هؤلاء بإقامة علاقة معها ، وإن حدث فسوف يقتلونك .. هل تغامر بمستقبلك ، بل بحياتك من أجل .... ؟!

يوسف مقاطعًا في حدة :

- لا أغامر من أجل أي شيء .. فلا تبالغ يا سكورت .. أنا لن أبقى هنا ستة أشهر أخرى ؛ من أجل تويا، وإنما من أجل أبحاثي ، وكشف جرائم نيفيل في حق هذه القبيلة و.......

وقبل أن يكمل ، قاطعه سكورت بدوره هو الآخر بحدة أكثر ، عن ذي قبل ، قائلًا :

- أنت واهم ... أبحاثك لن تكتمل وذهنك مشتت ، ونيفيل لن يتركك تخطط للقضاء عليه أبدًا ، بل سيقضي عليك هو قبل أن تكمل ستة أسابيع وليس ستة شهور حسبما تخطط ... حتى صديقك الصغير «دونو» لن يتركوه يمرح ويحكي قصصه هنا وهناك ، بل قد يقتلونه بسبب ما رواه لك ... أنا نفسي ، قد أصبح هدفًا ثالثًا لهم لمجرد أنني صديقك ، وقد يظنون أنك ربما تكون قد تحدثت معي بشأنهم .. هؤلاء عصابة منظمة .. شبكة دولية من مجرمين لتجارة الأعضاء البشرية والعاج .. وهذه القبيلة أرض خصبة لهم ولمشروعهم الإجرامي .. والشرطة لن تفعل لك شيئًا ، وقد جربت بنفسك ... ثم ما الذي غير أفكارك هكذا فجأة إلى النقيض ؟! ألست أنت الذي كان لا يريد الحضور إلى هنا ؟ ألست أنت الذي كان يعد الأيام ليعود من حيث أتى ؟ حتى أبحاثك ومرضاك ، لم يكونوا يومًا إلا وسيلة سخرتها لمصلحتك الخاصة ؛ ومن أجل إتمام رسالتك العلمية ؛ لتبدأ حياتك العملية بعد ذلك ..؟ ألست أنت ، الذي كان يريد مشاركة راندال في مشروع استثماري كبير في مصر ؟! أين ذهبت كل هذه الطموحات ولمصلحة من ؟ «تويا» و«دونو» ؟!! أم الإنسانية المعذبة التي اكتشفت فجأة أنك مبعوث العناية الإلهية لإنقاذها؟!

أفلتت ابتسامة استنكار من شفتي سكورت ، وهو يسترسل قائلًا :

- اسمع يا يوسف ، أنا الآن لا أحذرك .. أنا أمنعك من أي تصرف خطير ، وسأعمل على أن تغادر هذا البلد في أقرب وقت ؛ حتى أحافظ على ما تبقى لك من عقل ، ولن أشاركك فيما تنوي القيام به .

ثم استدار فجأة عائدًا مرة أخرى إلى مكتبه ، وفتح درجه الأوسط بعصبية شديدة ، كاد معها أن ينخلع .. كان يوسف قد اعتدل في جلسته ، وتنبهت كل حواسه .. فلمح سكورت ، وهو يخرج مظروفًا متوسطًا أبيض اللون ، ألقاه على سطح مكتبه قائلًا ، عندما شاهد يوسف يتأهب للاقتراب منه :

- هذه هي تذكرة سفرك إلى لندن ، ومنها ستستقل القطار إلى ليـڤربول .. لقد أكدت لك حجز الطائرة ، التي ستقلع بعد غد ، وسأوصلك بنفسي إلى المطار ؛ حتى أتأكد أنك غادرت للأبد .

كان يوسف قد اقترب من المكتب في هدوء ، وقسمات وجهه تحمل قدرًا من السكينة ، لا تخطؤها العين ، فخفتت حدة سكورت قليلًا ، وهو يقول بملامح يغلب عليها الرجاء :

- صدقني أنا أفعل ذلك كله من أجلك .. لأني أحبك ... أنت تحفر قبرك بيديك ، دون أن تدري ، إذا ما أصررت على البقاء هنا .

مد يوسف يده وفتح المظروف ، وهو يركز نظراته على عيني سكورت ، وبمنتهى الهدوء ، مزق تذكرة السفر إربًا ، فحولها إلى قصاصات ورقية صغيرة للغاية ، ثم اقترب من المروحة الضخمة التي تتصدر الجانب الأيسر من الغرفة ، رابضة على منضدة خشبية متوسطة الحجم ، وأدارها بهدوء شديد على أقصى سرعة ، ثم بسط كف يده الذي يحوي قصاصات تذكرة السفر في

مواجهتها تمامًا ، حتى تناثرت فجأة وبقوة في اتجاه سكورت .. فاستقر بعضها فوق شعر رأسه ، واستقر بعضها على كتفيه ، وواحدة على أنفه .. بعدها استدار يوسف ببرود ، وانصرف تاركًا سكورت غارقًا في ذهوله .

* * *

13
الفرح

دقت الطبول بعنف شديد ، بينما استعرت ألسنة اللهب بشدة في الحفرة العميقة ، التي تتوسط الساحة إيذانًا ببدء الاحتفال ، ووضعت الموائد الخشبية على أحد جوانب الساحة ، وعليها كميات ضخمة من الطعام .. الفاكهة مختلفة الألوان والأصناف ، والخبز المستدير المعد خصيصًا للعُرس .

اتجهت الأبصار إلى كوخ إيراي الضخم ، الذي خرج منه ستة رجال عراة لامعة أجسامهم ، ثلاثة على كل جانب، يحملون فوق أكتافهم الطوف العريض ، الذي صنعه الرجال من جذوع الأشجار ، وقد جلس عليه إيراي في عظمة ملك إفريقي ، متربع على عرش مملكة قديمة من أزمنة التاريخ الغابرة .. بدا مغرورًا منتشيًا .. وهو يضع فوق رأسه تاجًا من ريش ذهبي اللون ، ويتشح بقطعة من جلد النمر ، الذي صرعه منذ أيام ليست ببعيدة .. كان يلوح بيمناه لأفراد قبيلته ، الذين احتشدوا بالآلاف يصفقون له في عنف ، وكأنهم عبيد سيقوا قسرًا لملاقاته وتحيته ..بينما لم تتخل قسمات وجهه أبدًا عن صرامتها المعهودة .. فبدا كأحد الغزاة يتفقد أهل بلدة هاجمها بجيوشه ودك حصونها ؛ حتى استسلمت .. لا كرجل يحتفل بزواجه !!

مال يوسف على أذن «تويا» التي كانت جالسة بجواره شبه ملتصقة به ، جراء الأعداد الغفيرة ، التي تحضر الاحتفال ، وتتزاحم من أجل رؤية أفضل ، وقال :

- أين راني .. إني لا أراها ؟!

أشارت له تويا ، دون أن تتكلم ، بإصبعها إلى زاوية بعيدة تقف فيها نسوة كثيرات عاريات الصدور .. تتدلى مصابيح زيتية ذات إضاءة خافتة من كفوفهن ... تعلق بصره بذلك التجمع ؛ انتظارًا لرؤية راني .. وحين تغيرت نغمة الطبول إلى نغمة أخرى ذات وتيرة أهدأ قليلًا .. ظهرت العروس مرتدية ثوبًا فضفاضًا لونه أحمر قاني ، حافية القدمين ، يلمع خلخالاها الذهبيان ، وهما يقبضان على كاحليها ، فبدت كجارية تتهيأ لبدء مسيرة عبودية جديدة ، أقرب منها إلى عروس .

كانت تسير مطأطئة الرأس ، وتبدو حزينة خلف «أداتوا» الذي كان يبتسم في وداعة وطيبة كالمعتاد ، ويلوح بعصا من الأبنوس لتحية الحاضرين .. فكان بعضهم يسجد احترامًا لهيبته وتحية لزعيم سابق عند اقترابه منهم ، بينما اكتفى البعض بالركوع على ركبتيه فقط ؛ خوفًا من بطش مينجو الزعيم الحالي .

ما إن وصل موكب«أداتوا» وراني والنساء السائرات خلفهما إلى قرب حافة دائرة النار الكبيرة ، حتى علا صوت الطبول .. ولكن في صخب شديد هذه المرة ، فكانت الدقات متلاحقة لا تستطيع الآذان تتبعها ، من فرط التحامها ببعضها البعض .. وهنا أخرج «أداتوا» قطعة معدنية رفيعة للغاية من سرواله ، لمعت بين يديه ، وهو يقرب طرفها المدبب من ألسنة اللهب ببطء.. بينما جثمت راني على ركبتيها ، وأحنت رأسها قليلًا ، وقد بدا الخوف ظاهرًا جليًا في عينيها ، يُطلُّ من تحت رموشها المسدلة ؛ خصوصًا حين اقتربت منها سيدتان عاريتا الصدر ، بدينتا القد ، أطبقتا عليها ، وأمسكت كل واحدة بذراعيها وكتفيها.

رفع «أداتوا» يديه للسماء في حركة تضرع باتجاه البركان الخامد فوق الجبل ، وأخذ يتمتم بكلمات غير مفهومة وعبارات لا تصل للأسماع ، جراء صخب دقات الطبول .. وما هي إلَّا لحظات قليلة ، حتى اقترب من راني ووخز أذنها اليسرى بشدة بالقطعة المدببة ... انتفض يوسف في مكانه قليلًا ، وكأنه هو الذي وخزته القطعة الحادة ، وجزَّ على أسنانه جراء ما شاهده من علامات الألم الشديد ، التي تجلت على وجه راني ، والتي راحت بعدها تصرخ من أعماقها ، ولكن دقات الطبول التي كانت تقرع في هيستيريا ، طغت على صوتها ، فلم يصل لمسامع أحد ، كما لم تصل استغاثاتها من قبل !

في هذه اللحظة ، تعالت هتافات أهل القبيلة ، وهم يقفزون في أماكنهم مرددين اسم إيراي وألقابه.. العظيم .. الشجاع .. قاهر الأرواح الشريرة ، فمحت جميعها صورة راني ، وهي تتألم من ذاكرة يوسف قبل أن تنطبع بها !

* * *

- أنا السيدة براون ولدي موعد مع البروفيسور .. أخبره من فضلك بوجودي .

انصرف المساعد في هدوء ليطرق باب مكتب البروفيسور ، جورج راندال ، في أدب ثلاث مرات ، ثم يدخل قائلًا:

- السيدة براون في انتظارك بالخارج ..

أطفأ جورج سيجاره ، وهو يتأهب للقيام قائلًا لمساعده :

- دعها تدخل فورًا .

جلست السيدة براون ، وقبل أن ينطق جورج راندال بعبارات التحية والترحيب المعتادة .. أطلقت سهام غضبها صوبه مباشرة قائلة :

- لا أريد أن أتحدث عن الماضي أو عن اتفاقي معك ، ولا أريد أن أعرف رأيك في يوسف .

اتسعت عينا البروفيسور دهشة من هجومها المباغت ، ولم يقاطعها ، فأردفت :

- أنا أتيت اليوم من أجل شيء واحد فقط ، ولن أخرج من هنا إلَّا إذا تأكدت أنك ستنفذه .

اعتدل البروفيسور جورج راندال في جلسته ، وتنبه تمامًا على إثر لهجتها ، التي بدأت تزداد حدة ، وطلبها العاجل تنفيذه ، والذي بدا له غامضًا بعض الشيء .

استرسلت السيدة براون قائلة :

- أرسل ليوسف الآن تلكس ، تخبره فيه بإنهاء الإرسالية الطبية ، وتطلب منه العودة غدًا إلى إنجلترا .. وإلا سأقاضيك .

وبحركة عصبية للغاية ، أخرجت كارتًا صغيرًا من حقيبة يدها ، ألقته أمامه ، وهي تتأهب للمغادرة قائلة :

- ستجد رقم هاتف المحامي الخاص بي أسفل الاسم ، إذا ما أردت أن تقول أية أعذار ، فتحدث إليه مباشرة .

قالت عبارتها الأخيرة ، وهي تتجه نحو باب الغرفة كالسهم .. ولكن بحركة مباغتة لا تخلو من اللياقة البدنية ، التي كان يبدو من مظهره وسنه المتقدمة أنه قد افتقدها من أزمنة بعيدة .. غادر

البروفيسور مقعده ، ووضع جسده أمامها مباشرة ، فحال دون خروجها ، ثم وقف يلتقط أنفاسه جراء هذا المجهود الضخم ، الذي بذله فجأة في تلك المساحة الضئيلة التي تحرك فيها .

أمسك يدها برفق قائلًا :

- سيدتي .. العلاقة بيننا قوية .. لا يجب أن يكون فيها مكان للمحامين ، أرجوك .. اجلسي واسمعيني جيدًا ، وبعدها سأنفذ كل ما تريدينه مني وفورًا .

أراحتها كلمة «فورًا» التي اختتم بها حديثه المتقطع ، جراء لهاثه وتقطع أنفاسه ، بعدما قطع المسافة بين مكتبه وباب الغرفة في خطوتين قفزًا !

جلست السيدة براون واضعة ساقًا على ساق في كبرياء المنتصر ، الذي يفرض شروطه عند التفاوض.. بعد أن أشعلت سيجارتها ونفثت دخانها في فضاء الحجرة ، موجهة عينيها إلى البروفيسور ، الذي بدا جادًّا متجهمًا ، وكأنه زعيم سياسي على وشك إلقاء خطاب مهم أمام البرلمان الإنجليزي !!

* * *

- لماذا تصر على أن نجلس في هذا الجانب البعيد من الحديقة ؟!

تساءل سكورت في دهشة ، بعد أن لاحظ وجوم يوسف ، منذ أن حضر إليه بمكتبه ، وطلبه أن يتحدث معه على انفراد بعيدًا عن غرفة المكتب أو حانة الفندق !!

- سكورت .. لا تظن أني لا أفهمك أو أقدر خوفك عليّ ، وأعرف تمامًا كيف تخاف على حياتي ، كما أدرك أنك أمضيت في هذا المكان فترة طويلة ، وأنك أكثر مني خبرة ودراية بكل ما يجري هنا ، حتى وإن كنت لا تذكر لي كل شيء تعرفه ...!! ولكن يجب أن تعرف ما أمر به ، ويجب أن تقدر ما وجدت نفسي فيه .. لقد قضيت أكثر من ثلاثة شهور في نيروبي .. كانت في البداية كالكابوس ، بالنسبة لي وأنا من أخبرك بذلك ، ولكني الآن أستطيع أن أؤكد أنني لم أعد الشخص ذاته .. لقد تغيرت يا سكورت...نظرتي للحياة التي كانت محدودة أصبحت أكثر رحابة ... بفضل هذا الجزء البدائي المتخلف من العالم ...! الذي قد يكون محدود الإمكانات ، ولكنه زاخر بأنماط بشرية عظيمة ، كنت سأفقد الكثير لو لم أقترب منها وأتعرف عليها .. لقد نسيت في غمار تحقيق طموحي وأحلام الثراء أن مهنتي هي الطب ، وأن واجبي - كإنسان وكطبيب - أستطيع أن أؤديه في أي مكان ، وأنا أتذكر الآن كيف سألني البروفيسور راندال عن رأيي في عملي ، حين قابلته أول مرة ولم أعرف حينها ماذا أقول ... أما اليوم ، وبعدما رأيت احترام الجميع له ، ولاسمه ، ومدى احتياج هؤلاء البسطاء للرعاية الطبية .. لا أستطيع أن أراهم يموتون ، دون أن أمد لهم يد العون .. فأنا أعرف الرد .

قاطعه سكورت ، وقد أثارت كلمات يوسف اهتمامه :

- يوسف .. ادخل في الموضوع مباشرة .. لا داعي لهذه المقدمات ، التي تنوي أن تبرر بها بقاءك هنا .

رد يوسف في حدة هذه المرة :

- أنا لا أبرر بقائي هنا .. فهو ليس مرهونًا بموافقتك يا سكورت .

لاحت بوادر غضب على وجه سكورت ، فعاجله يوسف بالقول بنبرة أهدأ قليلًا :

- أنا فقط أريد أن أوضح لك موقفي تقديرًا لصداقتنا ، وتقديرًا لحرصك على مستقبلي .. وإذا كنت لا تريد الاستماع لما سأقوله لك الآن ، فاعتبر الأمر منتهيًا .

قال سكورت ، وهو يحاول أن يكون لطيفًا بدوره هو الآخر:

- لا تكن عصبيًّا هكذا .. أنا فقط أتلهف لسماع سبب بقائك .

- إن مدة هذه الإرسالية تسعة شهور منذ البداية ، وسوف أقضي هذه المدة ، كما اتفقت مع البروفيسور ، ولن أضيع منها يومًا واحدًا ،.. لقد لاحظت أن كثيرين من سكان هذه المنطقة مصابون بهذا الداء اللعين ، الأشبه بثعبان يزحف في صمت ؛ ليلدغ فجأة قبل أن يراه أو يشعر بوجوده أحد ... لقد توصل البروفيسور جورج راندال لبدايات ناجحة للمصل وعمل على تجربته على حيوانات ، فلم يصل إلى نتيجة مرضية .. ولكنني نجحت في تطويره قليلًا ، وأستطيع الآن أن أجربه على البشر ، بعد أن أمضيت الثلاثة أشهر الماضية في المعمل ، أجربه على القردة فأتت بنتائج باهرة .. أنا أتوقع نجاحًا قريبًا ... أتدري من الذي يساعدني في هذا الأمر ... إنها تويا، أنا أعتبرها همزة الوصل بيني وبين المرضى ، ولقد اتفقت معها على أن تقنع بعض الحالات المصابة بالذهاب إلى الإرسالية الطبية ؛ لكي نجرب المصل عليهم ... أنا لا أنكر أن تويا جذبتني نحوها باختلافها عن كل النساء ، اللاتي عرفتهن في حياتي .. ولكنني لست أحمق لهذه الدرجة ، وأدرك تمامًا فارق الثقافة والبيئة بيننا .. فبيني وبينها هوة سحيقة ، سيكون من الصعب جدًّا تجاوزها أو إغفالها ... أقسم لك يا سكورت أنني أريد أن أفعل شيئًا لهؤلاء الأفارقة ، قبل رحيلي ، بعد أن أيقظوا بداخلي شعورا غريبًا تجاه مرضاهم ، لم أشعر به من قبل وأنا أمارس مهنتي .. لأول مرة أشعر بالآخرين أكثر من ذاتي ... وكل ما أريده أن أتمكن من إنقاذهم ، قبل أن يحرقهم إيراي ونيفيل في البركان مثلما يحدث لغيرهم الآن .

ردَّ سكورت مذعورًا :

- لقد كنت أعلم أن هناك شيئًا غير عادي يحدث في هذه المنطقة .. إنما حرق البشر في البركان، هذا ما لم أكن أتخيله أبدًا، لماذا ؟ لماذا يحرقونهم ؟!

أجابه يوسف في جدية :

- أنت لم تكن تعرف عن نيفيل وإيراي ، سوى أنهما يتاجران في العاج .... هذه التجارة ما هي إلا ستار .. وقد تكون هناك أعمال صيد جائر أيضًا ، ولكن الخطورة تكمن في تجارة الأعضاء البشرية للأطفال ، بعد أن يقوموا بقتلهم ويحرقون جثثهم مع جثث الحيوانات ، التي تقتل جراء الصيد الجائر ؛ حتى لا ينكشف أمرهم ، وذلك كله يتم أعلى الجبل كل بضعة أسابيع ... إن مينجو وإيراي يوهمان أهل القبيلة بأنه يوجد هناك بركان ، تتسبب فيه الروح الشريرة ، التي لابد من تقديم القرابين إليها وإلَّا قضت على قبيلتهم .. وما هذه القرابين إلا جثث الأطفال المرضى ، التي يقرر مينجو وإيراي استحالة شفائهم .. ولكن بسبب الجهل ، يصدق أهل القبيلة هذه الخرافات ، التي ستقضي عليهم تمامًا .. وللأسف الشديد ، لن يكون هناك جيل جديد لهذه القبيلة ؛ فسوف يتسببان في إبادته في غضون سنوات قليلة !!

سكورت في فزع :

- وماذا تنوي أن تفعل معهما .. لقد أبلغت الشرطة من قبل ، ولم تفعل لهما شيئًا ..!!

ردَّ يوسف وهو يهم بالنهوض :

- لقد سجلت شهادة «دونو» بالصوت والصورة بواسطة آلة التصوير ... وعلى العموم ليس هذا ما يشغلني الآن ؛ فالوقت المتبقي كاف للحصول على أدلة لإدانة نيفيل وإيراي ، ويومًا بعد يوم تتكشف لي أمور جديدة، ولكن ما يهمني الآن هو استكمال أبحاث العقار الثلاثي .. وبعدها نتفرغ لهذين المجرمين .

مضيا يشقان الممر الواسع ، مخترقين الحديقة الكبيرة التي تحيط بالفندق .. وقد بدا يوسف مطمئنًا ، بعد أن تحدث مع سكورت ، وسرى داخله شعور قوي بأنه تمكن من إقناعه بمبررات قوية لبقائه ، وبذلك يضمن مساعدته إن احتاجها ... ثم أخذ يسير في خفة ونشاط ، وكأنه تخفف من حملٍ ، كان يثقل كتفيه.. بينما كان سكورت يسير منكس الرأس ، شاردًا في وجوم .. فقد تمكن يوسف من زرع بذرتي الخوف والفزع بداخله ، أما اقتناعه ببقاء يوسف .. فقد أصبح التفكير فيه مجرد رفاهية ، لا يستطيع الاستمتاع بها الآن !

* * *

جلس البروفيسور راندال بجوار السيدة براون على الأريكة ، التي تتصدر مكتبه على يمين المكتبة الضخمة ، التي تحتل ثلث الحجرة تقريبًا ... قائلا ، وهو ينظر إلى عينيها في رقة أب وتواضع العلماء :

- يا سيدتي الفاضلة ، عليك أن تكوني فخورة بابنك .. لقد بدأ لأول مرة يفعل شيئًا للآخرين.. لا لنفسه كما اعتاد دائمًا ، وأعتقد أنك أول من قال عنه ذلك .. ربما أكون قد عرفته منذ فترة وجيزة ، ولكنني الآن أشعر بأنه بدأ يتغير نحو الأفضل ... أنا لن أتحدث كثيرًا ، ولن أقول لك عبارات منمقة أو أعذارًا أو حججًا ، ولكنني سأريك الخطاب الشخصي ، الذي أرسله يوسف لي رفق تقريره الطبي المطول ، حتى تشعرين بما شعرت أنا به ، ودفعني لأن أقول لك إنه قد تغير بالفعل .

قال جملته الأخيرة ، ثم توجه إلى مكتبه والتقط ورقة بيضاء .. كانت مطوية بعناية أسفل قداحته الذهبية العريضة ، التي تحمل الحروف الأولى من اسمه ولقبه .. وقدمها للسيدة براون ، التي التقطتها في كبرياء ، لا تزال محتفظة به كاملًا ، فلم تكن كلمات البروفيسور وطريقته في الإلقاء قد أتت مفعولها بعد .

وضعت نظارتها الطبية السميكة ، التي تعينها على القراءة ، منذ أن اقتربت من عامها الستين ، وارتاحت قسمات وجهها قليلًا لرؤية خط يد ابنها ، وكأنه خفف قليلًا من تجهمها الشديد ، وبدأت في القراءة ...

« البروفيسور جورج راندال .. المحترم :

تحية تقدير واحترام من وسط نيروبي .. في الواقع ، أنا لا أعرف من أين أبدأ خطابي .. فأنا غير معتاد على كتابة الخطابات، ولكنني هذه المرة أشعر بضرورة أن أكتب لك بصورة شخصية ، وبعيدًا تمامًا عن التقارير الطبية الرسمية ... لقد كانت الأمور هنا سيئة للغاية من جميع النواحي ، كما تعلم من التقارير السابقة، ولكن في الشهر الأخير سنحت لي فرصة لتجربة العقار الثلاثي

الجديد على مرضى من البشر ، وليس على حيوانات كما كنا نفعل من قبل.. ولقد وجدت عونًا ومساعدة من أهالي قبيلة قريبة ، من مقر الإرسالية هم الكيكيويو ، وأنت تعرفهم بالطبع ، وسوف أبدأ في مباشرة التجارب عليهم خلال أيام بمعاونة فتاة تدعى ، تويا ، هي تعرفك جيدًا، فأنت من علمها اللغة الإنجليزية منذ سنوات.. هل تذكرها ؟ تلك السمراء الجميلة .. من المؤكد أنك تتذكرها ، فهي مختلفة عن الجميع هنا ، في الشكل وفي الموضوع أيضًا .

ما لم أذكره لك في التقرير حتى الآن بصورة تفصيلية ، هو أن لدي ظنونًا ، باتت أقرب لليقين ، أن مساعدي ، الطبيب جيفري ، يتعاون مع عصابة دولية ، تتاجر في الأعضاء الحيوية للأطفال هنا بعد قتلهم ، وما ذكرته لك في تقريري السابق من أنه يتعرض لضغوط من السيد نيفيل كان غير صحيح ، وإنما اضطررت لكتابة ذلك ؛ حتى لا أثير شكوكه ، لعلمي أنه قد يطلع على التقرير قبل إرساله .. وكنت أريد أن أتأكد من هذا الأمر ، أما الآن فأنا على يقين تام من أنه يلتقي مع إيراي بصورة أسبوعية ، ويبدو أنه هو من يقوم بمعاونة هذه العصابة في تشريح الجثث ، والحفاظ على الأعضاء البشرية سليمة ؛ لأنهم لن يستطيعوا القيام بهذا العمل الطبي ، دون طبيب متخصص ، كما تأكدت أنه اتفق مع إيراي على عدم تقديم المصل للمرضى من أطفال القبيلة حتى تزداد حالتهم سوءًا ويسهل التخلص منهم .

أعدك بأنني لن أقف مكتوف الأيدي هذه المرة ، دون أن تعتبر ذلك مرهونًا بتفكيرك في مشروعنا ، الذي اتفقنا أن ننفذه بمصر .. فهذا أمر آخر لا يشغلني الآن .. ولكن أحتاج منك التدخل شخصيًّا لإبعاد جيفري تمامًا عن العمل بالإرسالية ؛ حتى ننتهي من البحث فلدي اعتقاد أنه يتلاعب في نتائج الأبحاث حتى نحبط دائمًا ، وسأوافيك بتقارير أسبوعية دومًا .

مع تحياتي .

نيروبي مارس 1977 يوسف كمال نجيب» .

طوت السيدة براون الورقة ، ووضعتها على المنضدة برفق ، ثم خلعت نظارتها الطبية في هدوء ، وهي تتعمد عدم النظر إلى وجه البروفيسور جورج قائلة :

- لا بأس طالما هذه هي رغبة يوسف نفسه ... اعتذر لك عن انفعالي ، فقد تصورت أنك أنت الذي طلبت منه البقاء هناك في نيروبي .

ثم نهضت وتأهبت للمغادرة مصافحة البروفيسور ، في برود ، وهي تتمتم : سوف يكون لي تصرف آخر مع يوسف .

* * *

- أريد أن أذهب إلى البحيرة اليوم أيضًا ... ما رأيك في أن نلتقي هناك بعد العمل ؟!

قالت تويا ، وهي تتأمل ابتسامته الصافية :

- في المكان نفسه الذي التقينا به أول مرة !!

سألته ثم أطرقت في خجل ، ولكن يوسف أخرجها من خجلها بسرعة فائقة ، وهو يقول :

- نعم .. ولكن لا تحضري معك طعامًا من فضلك ، مثلما فعلت آخر مرة .

قطبت حاجبيها قائلة ، وهي تحاول أن تتصنع غضبًا ، ثم ابتسمت قائلة :

- ألم تعجبك طريقة طهوي للحم ؟!

دمعت عيناه من شدة الضحك ، وهو يقول :
- هل تسمين هذا طهوا ؟! لقد كانت الدماء تسيل من طعامك مثل دموعي الآن .
ثم استدرك يوسف فجأة ، وقد بدا جادًّا بعض الشيء :
- هل أخبرت أحدًا بشأن الحالات المرضية التي اصطحبتها إلى هنا في الأيام الماضية ؟
هزت رأسها بالنفي .. ثم أردفت في سرعة كمن تذكر أمرًا :
- أخبرت «أداتوا» فقط .
يوسف مطرقًا في تفكير :
- لا بأس ... لا خوف من هذا الرجل .. المهم ألا يعرف إيراي ، أو أي شخص آخر بأمر هؤلاء المرضى .. فقط تأكدي من أن لا أحد يراقبك ، وأنت تأتين بهن إلى هنا .
- لا تقلق ، أنا أعرف طرقًا أخرى تؤدي إلى هنا .. من الصعب تتبعي عبرها .. كما أننا لا نأتي معًا بل نلتقي في مكان قريب من هنا ... ولكن أريد أن أطمئن أولًا : هل هناك أمل في الشفاء من هذا المرض الغريب ، الذي حدثتني عنه ؟!
مطَّ يوسف شفتيه قليلًا قائلًا :
- حتى الآن لا أعرف .. ولكن خلال ثلاثة شهور ، ربما نعرف ما إذا كنا على الطريق الصحيح ، أم سنعود إلى نقطة البداية مرة أخرى .. المهم أن نحاول ونبدأ ثم نستمر ، كما قال البروفيسور جورج راندال .. هيا اذهبي الآن ، ولا تنسي أن تعطيهن الجرعة التي اتفقنا عليها اليوم وغدًا ؛ حتى أراهم ثانية بعد غد ، وسألقاك عند البحيرة عصر اليوم .

وقف يوسف يتأملها ، وهي تخرج بصحبة فتاتين مصابتين بالجذام في مراحله الأولى .. كانت تويا تحمل قارورة في يدها اليسرى بها المصل الثلاثي .. بينما تدلت حقيبتها التي صنعتها من القش من يدها اليمنى.. وقفت عند بوابة الإرسالية وتخطتها بقليل ، ثم التفتت إليه ووضعت القارورة في حقيبتها ، ولوحت له بيسراها ، وابتسمت تلك الابتسامة المشرقة ، التي لا تقدر على إتيانها بهذه الروعة إلا شفتاها وثغرها الدقيق .

ثم مضت بصحبة الفتاتين المريضتين ، وسرعان ما توارين جميعًا خلف الأشجار الكثيفة ، التي تحيط بمقر الإرسالية .

* * *

كان راؤول وريتا متألقين جدًّا تلك الليلة ، وبهرا الحاضرين من رواد الفندق باستعراضات راقصة جديدة ، تدربا عليها منذ فترة .. وكانت الليلة أول مرة يقدمانها ، كما شدا راؤول بأغاني فرانك سيناترا ، فرقص على موسيقاه رواد الحانة في انسجام ...و ما إن انتهيا من فقرتهما واستمتعا بالتصفيق استحسانًا لما قدماه ، حتى تواريا خلف المسرح الصغير .. ومنه إلى ممر صغير يحوي غرفة متوسطة .. غيرا ملابسهما وعادا في ملابس سهرة إلى الحانة ، المطلة على حوض السباحة ؛ ليلحقا ببعض السائحين الإسبان الذين يزورون نيروبي ليشاركاهما السهر .
بعد فترة انضم إليهما سكورت بعد جولته المعتادة ، والتي يتفقد خلالها سير العمل بالفندق ... وجلس بجوار ريتا تلك المرة ، دون أن يتحدث معها على غير عادته ، بعد أن توطدت علاقتهما ، منذ أن أمضت ليلتها بقمرته أثناء الرحلة إلى مومباسا.. كان سكورت لا يزال واجمًا منذ أن تحدث

مع يوسف ، وتأكد من إصراره على عدم المغادرة قبل ستة أشهر أخرى ... كان كذلك متوجسًا من بقاء يوسف بنيروبي .. بداخله شعور عارم بخطر قادم ، ولكنه لايستطيع التنبؤ بعواقبه ، أو حتى معرفة بدء نذره.. مما كان يزيده خوفًا واكتئابًا .. كان لديه إحساس قوي بأن يوسف قد بدأ السير عكس الاتجاه ...! ولا أمل في إيقافه ، وربما أيضًا في إنقاذه !!

أفاق من شروده على تكرار راؤول لسؤاله :

- ماذا بك يا سكورت ؟

لكزته ريتا في فخذه من أسفل المائدة ، قائلة في نبرة استدعت معها أصلها الغجري ، مخلوطًا بقليل من غيرة أنثى على رجلها :

- يبدو أنه والطبيب المصري يوسف لديهما أصدقاء كثيرون هنا ، فلم نعد نراهما ... وإن حدث وحضرا العرض .. فإن ذلك يكون بطريق المصادفة .

ابتسم سكورت ابتسامة باهتة ، تعليقًا على حديثها ولم يرد .. فسأله راؤول :

- بالمناسبة أين يوسف .. لم نره منذ مدة ؟

رد سكورت في شرود :

- يوسف يسير عكس الاتجاه الآن .. ولا أعلم ما الذي سيصدمه أولًا ، وما الذي سيقضي عليه بعد ذلك !

ثم تركهما دون تحية وانصرف ، قبل أن يكمل مشروبه ، ومضى يجر قدميه جرًّا ، وهو يغادر الحانة في اتجاه مكتب الاستقبال .. وبعد نظرة دقيقة على مفاتيح الغرف ، مط شفتيه وصعد الدرج الخشبي العريض ، الذي يغطيه بساط مزركش أقرب للون جلود الفهود متوجهًا إلى غرفته .. فلم يكن يوسف قد عاد بعد ، منذ أن غادر الفندق في الصباح .

* * *

14
« جونزولا »

وقف يوسف قليلًا يتأمل بعض الحمر الوحشية ، ويتسلى بإحصائها محدثًا نفسه : هي ستة ..؟ لا سبعة .

في الواقع لم يكن عددها يزيد على ثمانية ، بعد أن توارت أنثى خلف ذكرها قليلًا واختبأ صغيرهما خلفها .. كانت الحمر الوحشية ترتع على مسافة مائتي متر تقريبًا ، أو يزيد قليلًا ، في منطقة اختلط فيها السهل الأخضر بحشائش صفراء ، لونها داكن قليلًا غير مستوية ، بعد أن أحرقتها أشعة الشمس القاسية .

وقف يوسف يتأمل المشهد ، وقد أخذته دقة الخطوط الطولية السوداء التي تلف بطونها.. ابتسم قليلًا ، وهو يتذكر خوفه في المرات الأولى ، التي كان يأتي فيها إلى المكان ذاته .. فقد كان يخشى ظهور حيوان مفترس ، ولم يهدأ إلا عندما طمأنته تويا ، ومن بعدها «أداتوا» من أنهم يعيشون في منطقة آمنة من الأسود وغيرها من الحيوانات المفترسة ، اللهم إلَّا بعض الضباع ، التي أحيانًا ما تأتي في جنح الظلام بحثًا عن فريسة ، أو عن حيوان نافق كعادتها.. غلفت المرارة ابتسامة ذكرياته عندما طاف بخاطره معتقدات تويا و«أداتوا» ، من أنه لولا حمم البركان والأصوات العالية ، التي يطلقها كل فترة لطالتهم أنياب الحيوانات المفترسة منذ زمن بعيد ، بل ربما تكون قد تمكنت من احتلال أكواخهم بعد استقرارهم وليمة دسمة في بطونها .. كان يتمنى لو استطاع إقناعهما بأن ما يرونه ليس إلَّا جثث حيوانات وأطفال ، تحترق بعد قتلها وأن ما يسمعونه ما هو إلا صوت أعيرة نارية من بنادق ، خاصة لقتل أصحاب الجلود السميكة والأنياب الطويلة من الفيلة والخراتيت ، ولا يوجد بركان ولا يحزنون .

تنهد في ضيق .. وهمَّ بالجلوس على العشب المنبسط تحته .. ولكن فجأة لمح طيفًا يمر أمام وجهه تمامًا حتى كاد يصيبه .. كان رمحًا رفيعًا ذا رأس مدببة حادة ... استقر الرمح على مقربة منه .. التفت يمينًا ويسارًا فلم يجد شيئًا ، ولم يلبث إلَّا قليلًا حتى تعالت ضحكات من خلفه .. التفت في هدوء .. وما هي إلا لحظات ، حتى كان دونو وسبعة من الصبية في مثل عمره ، أحدهم عارٍ تمامًا ، قد التفوا حوله ، بعد ما تعلق دونو بعنقه إثر قفزتين كالمعتاد ، عندما يلتقي به دومًا.

كان دونو يرتدي قبعة يوسف البيضاء ، وإن كانت قد اتسخت من كثرة الأتربة ، التي علقت بها فتغير لونها ، وتبدلت هيئتها أيضًا جراء قيام دونو بكبسها على رأسه بشدة خوفًا عليها !

يوسف :

- ماذا تفعل هنا ؟ هل كنت تنوي اصطيادي أم ستكتفي بالأسود اليوم ؟

ضحك دونو قائلًا :

- لا تخف .. نحن نلعب معًا ، هل تريد أن تشاركنا اللعب ؟

هز يوسف رأسه بالإيجاب ... أمسك دونو بيده ، وأشار إلى فتى من أصدقائه ، كان يحمل جوالًا ثقيلًا على ما يبدو ، طالبًا منه أن يسبقهم إلى أعلى التل الصغير القريب منهم .. ثم طلب «دونو»

من يوسف أن يقف معهم في الصف ؛ لينتظر دوره .. فأطاعه يوسف ، وهو يبتسم ويتلهف في آنٍ واحد لمعرفة قواعد هذه اللعبة الغريبة ... صعد الطفل الذي يحمل الجوال الثقيل إلى أعلى التل ، وبدأ يخرج ثمرات خضراء مستديرة من داخل جواله ، كانت أشبه بثمرة فاكهة البطيخ ، وإن كانت أصغر كثيرًا ، وبها خطوط طويلة سوداء غير مستوية .. أطلق الفتى سراح خمس ثمرات من الجوال ، ثم قام برصها متلاصقة بجوار بعضها البعض ، أعلى التل عند حافته المطلة عليهم تمامًا ، بينما عيون الصغار ويوسف متعلقة به .. ثم أشار بيده عاليًا لدونو ، الذي أمسك بالرمح في يده اليمنى ، كمحارب قديم ، بعد أن قطب حاجبيه ، ثم رفع يده اليسرى عاليًا بما يعني أنه مستعد .

استلقى الفتى الذي كان واقفا أعلى التل على الأرض ، موازيًا للثمرات المستديرة تمامًا ، ثم تقلب تجاهها ببطء حتى دفعها جميعًا بجسده في آنٍ واحد ، فتدحرجت على المنحدر .. وفي تلك اللحظة ، كان «دونو» يصوب رمحه تجاهها ، فأصاب إحداها في قلبها ... صفق له الأطفال في جزل ، وتعالت صيحاتهم ، ونزل الفتى الذي دفعها من على الربوة الصغيرة ، ونزع الرمح من الثمرة التي أصيبت من حربة «دونو» ثم سلمه إياها ، وبدا المشهد ليوسف وكأنه يهديه درع البطولة .. فقد رفع «دونو» الثمرة عاليًا في فرح ، فصفق له الأطفال مرة أخرى .... لم يتمالك يوسف نفسه .. فصفق بشدة هو الآخر ، وتمنى لو كانت آلته معه الآن لتسجيل هذا الحدث الرياضي النادر !

بدأ دونو يقطع الثمرة ويأكلها في نهم ، بينما استعد الباقون لتكرار الأمر مرة أخرى ... اشترطوا لمشاركة يوسف لهم ألَّا يأكل الثمرة لو أصابها ، فعددهم أقل من عدد الثمرات المتبقية ، وسوف تضيع فرصة فوز على أحدهم بمشاركة يوسف ! ضحك يوسف لبراءتهم وتلقائيتهم ووافق على شرطهم ... بل وتعمد ألَّا يصيب الثمرة ؛ حتى لا يشقها من قوة ضربته ، متظاهرًا أنه حزن كثيرًا لفشله ، وظل يضرب الأرض بقدمه متظاهرًا بالضيق ، فمال «دونو» عليه قائلًا ، وهو يربت على كتفه :

- لا تحزن ، سوف أتولى تدريبك .

ابتسم يوسف قائلًا :

- ما اسم هذه اللعبة ؟!

أجابه دونو في سرعة : جونزولا .

يوسف مندهشًا :

- وماذا تعني هذه الكلمة؟

رفع «دونو» كتفيه وهزهما ، وهو يدلي شفته السفلى قليلًا :

- لا أعرف ، إنه اسم الثمرة نفسها .

ثم ضحك بصوت عال .. فلم يتمالك يوسف نفسه ، وانفجر ضاحكًا هو الآخر.

انتهى الأطفال من إصابة الثمرات والتهامها جميعًا.. ثم ذهبوا لإحضار غيرها ، على وعد بلقاء يوسف في اليوم التالي لمشاركتهم ، على أن يحضر ثمرته معه ... وذهب يوسف بمفرده إلى البحيرة ؛ متأخرًا عن موعده مع تويا ... التي كانت في انتظاره في المكان ذاته الذي شهد لقاءهما الأول .

* * *

أكثر من سته أشهر حتى الآن ، منذ أن غادر نيروبي لم يحدثني فيها إلا خمس مرات... أربع منها في الشهر الأول والمرة الأخيرة كانت منذ شهرين تقريبًا .. كانت كاترين تتحدث ، وهي شاحبة ، وكأنها وردة ذبلت أو أوشكت على ذلك ، بعد أن فرغ إناؤها من الماء .. فلم تعد ناضرة كما كانت ... كان يخالجها شعور دفين بأنها جرحت في كرامتها ، وطعن كبرياؤها في السويداء ، عندما أعلنت لصديقاتها عن خبر خطبتها ليوسف ، واستعدت لحفل خطبتهما.. ثم فجأة وأد فرحتها ببرقية من ست كلمات فقط (أجلت عودتي ستة أشهر أخرى .. قبلاتي ..) .

ابتسمت في مرارة ، وهي تتذكر كلمات البرقية قائلة في مرارة أشد ، وتعيد تكرار الكلمة الأخيرة منها : قبلاتي ! .. أي نوع من القبلات تلك ؟! ولمن يرسلها ..؟ إنها بلا لون ولا طعم .. ولا حتى إحساس .

قاطعتها السيدة براون التي كانت تجلس على حافة فراشها ، بعد أن حضرت لزيارتها ، محاولة إخراجها من حالة الإحباط المسيطرة عليها :

- لقد كانت مدة الإرسالية تسعة شهور منذ البداية ألا تذكرين ذلك ؟ لم يتبق منها الآن إلا ثلاثة شهور فقط .. صدقيني الأمور ستكون أفضل .. لقد تحدثت مع يوسف هاتفيًّا كثيرًا الفترة الماضية ... في البداية عنفته كثيرًا على طلبه البقاء واستكمال المدة حتى نهايتها .. ولكنه أقنعني بأنه سينجح في التوصل إلى اكتشاف مصل شاف لمرض غريب نادر ، يصيب هؤلاء الأفارقة هناك ، وهو ما سيساعده كثيرًا على إتمام رسالته العلمية بنجاح باهر وتميز عن الآخرين ، ويضمن له مستقبلًا عمليًّا ومشاركة مع البروفيسور جورج راندال أو مع والدك .. ولكن هنا وليس في مصر .. الأحلام باتت على وشك التحقق ، وأعتقد أنه في هذه الحالة سيبقى في ليـڤربول ، أو على الأقل في لندن ، وستتزوجان عندما يأتي دون الحاجة لعقد خطبتكما ، كما كنا نخطط .. يوسف تغير ، ولم يعد يفكر بالطريقة القديمة .. عيادته الطبية في القاهرة ومستشفاه الخاص هناك .. وطموحه المادي .. كل ذلك أصبح لا يشغله كثيرًا .. صدقيني .

ظلت كاترين على حالها لا تؤثر فيها كلمات السيدة براون ، بل لم تحرك فيها ساكنًا .. لم يعد يهمها أمر رجوعه إلى بلده مصر مرة أخرى ، أو بقائه في ليـڤربول .. بل كان همها الأكبر الآن أن يعود يوسف العاشق إليها .. شعور رهيب بفقد يوسف بدأ يعتريها ، وشعور أكبر بجرح كبريائها وطعن كرامتها ، استولى عليها ، وبدأ كل منهما يعتصرانها من ناحية خاصة بعد تأجيل خطبتهما ؛ فطغى الإحساس الأخير على الأول ... صحيح أنها هي من أعلنت عنها بإرادة منفردة في غيابه ، ولكن الحرج البالغ الذي وجدت نفسها فيه ، منذ أجل يوسف عودته ، جعلها لا تقوى على مواجهة مجتمعها .. فاعتزلته ، وكأنها دخلت في بيات شتوي بمنزلها !

عادت السيدة براون تحاول معها مرة أخرى ، دونما يأس ، رغم أن مظهر كاترين ووجهها الشاحب تمامًا بلون الثلج كان يرشحها بجدارة لتحتل موقع الصدارة في متحف الشمع بلندن ، فقالت وهي تربت على كتفها ، في رقة تبدو عملية نوعًا ما :

- لا تشردي هكذا .. لا تستسلمي لأوهام لا وجود لها إلَّا في مخيلتك .. يوسف سيعود في حال أفضل كثيرًا من حاله حين ذهب ... يجب أن تعيشي حياتك بصورة عادية .. حاولي جذبه إليك

مرة أخرى .. اجعليه يتشوق للعودة إليك .. لاتكوني محبطة هكذا فيزهد فيك أكثر .. هيا انهضي .. لتخرجي معنا أنا ووالدتك ؛ لتناول العشاء في جرين هاوس ، وغدًا نتصل به معًا قبل أن يغادر الفندق في الصباح ، فتبدأين يومك على نبرات صوته .. هيا .. هيا .

* * *

الأيام باتت متشابهة تقريبًا بالنسبة ليوسف .. وأحيانًا كثيرة ، كان يخطئ في معرفة اليوم بدقة ؛ فهو يقضي معظم نهاره في المعمل ، ثم يفحص حالات تجلبها تويا بانتظام ويجرب عليها المصل الجديد ، ثم يتابع نتائجه وآثاره الجانبية عليها ، ويتشوق لمعرفة تأثيره النهائي على الآدميين .. أحيانًا يحبط وتارة يراوده الأمل في النجاح لعدم ظهور أعراض جانبية .. وكلما شعر بإحباط يقترب من وجدانه .. كان يتذكر مقولة جورج راندال الأثيرة : تمسك جيدًا بالأمل .. فإذا ما فقدته غدت الحياة طائرًا بلا جناح .

كان كل يومين تقريبًا يلتقي تويا عند ضفاف البحيرة ؛ ليذهبا معًا في جولة سيرًا على الأقدام وسط الأشجار ، يتحدثان في كل شيء وأي شيء حتى أصبحت تويا جزءًا لا يتجزأ من حياته ، وبات يشعر بشوق إليها .. يزيد كلما التقيا !

كان يشعر في كل مرة يلقاها بأنها المرة الأولى من فرط إشراقتها وطلتها الجميلة.. ومع تعدد اللقاءات ، ذهبت كل كلماته التي قالها لسكورت في ثقة عن اختلاف الثقافة والبيئة والهوة السحيقة التي تفصل بينه وبينها.. أدراج الرياح ... فعندما يلقاها ، كانت المسافات تقترب لدرجة التلاصق .

كانا يسيران بالقرب من الضفة اليسرى للبحيرة ، التي شهدت جلستهما الأولى ، ويحتضن أناملها الرقيقة بكف يده العريض الدافئ.. يحتويها ويطمئنها ويطمئن لوجودها بقربه... لم يستطع أن ينسى أبدًا طعم أول قبلة ... يومها لم تبتعد عنه .. لم تحاول أن تصده ، بل أغمضت عينيها .. وكأنها ملاك يخلد للنوم في أحضان السعادة .. ذابت شفتاهما ، فلم يعرفا من يسقي الآخر حبه ، ومن يروي من بمشاعره ... لم يقو أبدًا على مقاومة مشاعره تجاهها... كان يجد متعة أكبر في الاستسلام لأحاسيسه ، وهو يهرع إليها في جزل طفل فرحٍ ، بحضن أمه الدافئ فيستكين إليه .

كان يحب أن يدفن رأسه بين نهديها ، وهي تعبث في خصلات شعره بأناملها .. فتجعله يشعر وكأنه طائر محلق في فضاء رحب ، لا يتعب من الرفرفة ، ولا يريد نهاية لرحلته .. يستمتع بابتعاده عن اليابسة بمسافات.. كان يشعر دومًا بأن تويا تناديه فيستجيب لندائها دون تفكير ، ويشعر في كل لقاء بمتعة أكبر لاستسلامه لمشاعره ، وكأنه يلقي بجسد متعب مرهق في ماء دافئ .

توقفا عن السير وجلسا ليستريحا.. أراح رأسه على فخذيها ، بينما استندت هي إلى جذع ضخم لشجرة موفورة الأوراق .. فأظلتهما في حنان ، وكأنها تبارك حبهما .. كانت تويا تعبث بخصلات شعره ، مثلما اعتاد هو أن يفعل دائمًا لنفسه ..! كانت تدغدغ مشاعره بأناملها ، وهي تتخلل خصلاته الكثيفة في رفق ... نظر إلى عينيها ، وكأنه يروي ظمأه منها قائلًا :

- أحبك .

بادلته النظرة المشبعة بالوله ، بعد أن استبدلت خجلها بشغفها به ، قائلة :

- أحبك .

ظل ينظر إليها وعيناه تلمعان ببريق غريب .. سحبت أناملها برفق من بين خصلات شعره ، ووضعت راحتها على رأسه .. وراحت تمسحها ، في حنان بالغ قائلة :

- هل تنوي أن ترحل بعد ثلاثة أشهر؟ هل ستتركني وحدي ؟ ألن تعود؟

أجابها يوسف في ثقة ، مصدرها مشاعره المفعمة بحبها :

- لن أتركك أبدًا .. سآخذك معي إلى ليفربول.. أنا لن أستطيع أن أعيش دونك ... أنا أحبك .. وسأظل أقولها حتى آخر يوم في حياتي ... أحبك .. أحبك أنت ... أنا أشعر ، وكأنني كتبت حبي لك على صفحات عيني ، لكي تقرأها كل امرأة أخرى تصادفني ، فتعرف أني أحب وأعشق.. أما صورتك فقد رسمتها في قلبي ؛ كي لا تلمحها عيون الآخرين ، فتحسدني على ما أنا فيه من سعادة .. أنا أشعر لأول مرة أنني أحب ، ولن أتنازل عن هذا الشعور ما حييت .

أغمضت تويا عينيها وأرجعت رأسها للوراء قليلًا ؛ حتى ألصقتها بجذع الشجرة ، قائلة في همس دافئ :

- أحبك يا يوسف أكثر من روحي ... أحبك لدرجة الجنون.. ولا أجد سعادة إلا بين يديك ، فأنت من رسم الابتسامة على شفاهي فجعلتها تلتصق بهما للأبد .. هل تعرف أن في غيابك عني تصغر الدنيا في عيني ، وتضيق فلا أرى شيئًا .. تغيب شمس سعادتي ، ويموت فرحي حتى تحييه بوجودك .. بحضورك .. بمشاعرك .. أنا أعشقك لدرجة الأنانية .. وأعشق من بعدك المصادفة التي جمعتني بك ..... أرجوك عدني ألا تتركني أبدًا .

يوسف :

- أعدك ما حييت ألَّا أتركك أبدًا .

قالها وهو يلثم شفتيها بقبلة طويلة حارة ، ألهبت مشاعرهما أكثر وأكثر ، حتى نافسا أشعة الشمس في حرارتها ؛ فبدأت تتوارى خجلا رويدًا رويدًا إيذانًا بغروب يوم ، قبل أن يأتي آخر جديد ، تشرق فيه شمس حب عميق ، لا يجاريه سوى عمق البحيرة ، التي شهدت ضفتاها بدايات غرامهما .

ودعها يوسف وانصرف على وعد بلقاء جديد .. فكانا من بعيد يبدوان كظلين ، يتحركان تحت ضوء القمر الفضي ، الذي تلألأ وسط السماء لينير طريقهما ... ولكنْ كل منهما كان يسير في اتجاه !

* * *

دوى تصفيق في جنبات القاعة ، عندما أعلن البروفيسور جورج راندال على مجلس الأمناء ، الذي يعقد اجتماعه السنوي بمؤسسة راندال الخيرية ، نتائج البحث التي أرسلها يوسف في تقريره أمس ، والتي كانت توحي ببوادر أمل بالنسبة للإنسان ؛ قياسًا على التجارب التي أجريت على القردة ، وهو مايعني أنهم يسيرون في الطريق الصحيح .. وقريبًا سيكون هناك أمل كبير في التوصل للمصل المقاوم للمرض.. فكانت موافقتهم بالإجماع على مد فترة الإرسالية ، عامًا آخر ، أمرًا متوقعًا تلك المرة ، فلم يستغرق الاجتماع مناقشات كثيرة وشدًّا وجذبًا مثل المرات السابقة ، التي كانوا يعانون فيها بعض الإحباط .

التفت جورج إلى مساعده قائلًا :

- لابد أن نحتفل اليوم بهذا الإنجاز .. لاتنس أن تدعو السيدة براون والجميلة كاترين على العشاء للمشاركة في هذا الاحتفال .. على الأقل ستسعدان بقرب عودة يوسف الشهر القادم ، بعد أن خطونا أول خطوة على طريق الأمل !!

* * *

بدأ الظلام يلف أكواخ قبيلة الكيكيويو ويغلفها تمامًا ، وآوى الجميع إلى فراشهم .. لملمت النساء أوانيها الفخارية الكبيرة وأطفئت النيران التي كانت تستعر منذ فترة ، أسفل قدور الطهو في الظهيرة ... تركت بعض الأبقار في الخارج ترعى ، وأدخلت أخريات لتبيت مع أصحابها بالأكواخ الأكبر حجمًا .. انتشر رجال إيراي بأسلحتهم المدببة الحادة للحراسة كالمعتاد .. كان السكون هو عنوان المكان .. والظلام الدامس صفته .

البقعة الوحيدة المضيئة .. كانت كوخ مينجو .. زعيم القبيلة ، الذي جلس فيه يتصبب عرقًا ، لا يليق بهيبته واحترامه كزعيم لقبيلة كبيرة ، استطاع في يوم من الأيام خلع زعيمها الأسبق الحكيم «أداتوا» وتنصيب نفسه بدلًا منه !

كان صاحب الفضل في أن يظل مينجو الضعيف مهابًا من أهل قبيلته ، ويبقى زعيمًا قويًّا هو نيفيل .. العجوز الداهية ، الذي طوَّع جميع الظروف لمصلحته الشخصية .. استغل ضعف شخصية مينجو ، وفشله كمحارب للسيطرة عليه ، بعد تنصيبه زعيمًا .. ومن ناحية أخرى ، عمل نيفيل على نمو شغف وطموح إيراي للسلطة ، ووجود رجاله المسلحين الأشداء لإحكام قبضته على القبيلة كلها ؛ مما مكنه من تحقيق مشروعه الإجرامي بتلك البقعة الجميلة بقلب إفريقيا.. ولولا ذلك لظل مينجو على حاله.. مواطنًا فقيرًا يقرع الطبول ، ويذبح الأبقار في وقت الاحتفال بعيد الشمس ، ويسجد مع الساجدين لأداتوا !

كان توبيخ وتعنيف نيفيل هو الذي تسبب في زيادة إفراز عرق مينجو بغزارة ؛ فبدا وكأنه موظف صغير ارتكب خطأ حسابيًّا في ميزانية الشركة ، التي يعمل بها فكبدها خسائر جسيمة ، وبات ينتظر قرار فصله من صاحبها ... كان نيفيل يحدثه وهو جالس ، واضعًا ساقًا فوق ساق ، في صلف .. يدخن بشراهة ويعبث بشاربه ، ويكيل الاتهامات بالتقصير لمينجو بضراوة وحده ، والذي كان من فرط قصر قامته يبدو جالسًا .. بينما هو في حقيقة الأمر ، قد انتصب بالكامل خوفًا من سطوة نيفيل عليه ... كان يقف خلف مينجو عشرة من رجاله ، وقد تخلوا عن حرابهم احترامًا لوجود نيفيل، أما إيراي فقد كان يقف عن يساره وخلفه ثلاثة من رجاله المقربين بحرابهم ؛ بحجة أنهم الذين يتولون حراسة القبيلة في الليل ... على يسار نيفيل ، وقف جيفري طبيب الإرسالية الطبية في نيروبي ، الذي أوقفه البروفيسور جورج راندال عن العمل ، بناءً على تقرير يوسف الأخير ، الذي اتهمه فيه بخيانة القسم والمشاركة في قتل الأطفال لسرقة أعضائهم الحيوية .. كان جيفري يترجم حديث نيفيل من الإنجليزية إلى اللغة الساحلية ، التي أجادها في السنوات الأخيرة .

كان نيفيل مستاءً من تكاسل رجال مينجو ، وعدم إمداده بأعضاء الأطفال الحيوية ، التي حدد لها أعمارًا معينة.. أما مينجو فكان دفاعه يبدو منطقيًّا ؛ فهو لا يستطيع قتل عشرة أطفال في أعمار متقاربة كل شهر ؛ بحجة تقديمهم قربانًا للأرواح الشريرة وإلَّا انفضح أمره ..خصوصًا أنه في عهد «أداتوا» لم تكن هناك حالات مماثلة ، بل كان البركان وقتها حقيقيًّا حتى تولى نيفيل إخماده ، وإشعال حرائق الجثث بدلًا منه لمداراة جرائمه ضد الإنسانية .. لم يجد مينجو مفرًّا للخروج من

أزمته ، سوى اتهام إيراي بالتخاذل ؛ حتى لا يواجه المسئولية بمفرده ، متحججًا إنه خاف على رجاله من الشرطة ، بعد أن أبلغ يوسف عنهم السلطات الكينية ، فحدث نوع من التراخي ، لا يجب أن يتحمل هو تبعاته بمفرده .

لم يصادف دفاع مينجو قبولًا لدى نيفيل ؛ خصوصًا مع إبداء إيراي استعداده لبذل كل جهد ؛ من أجل زيادة حصيلة الأطفال المطلوبة أعضاؤهم في الفترة المقبلة .. وكأنه يؤكد ولاءه لنيفيل واستعداده لزعامة القبيلة ، التي يحلم بها دومًا .

على مقربة من هذا الاجتماع ، الذي كان يدار من طرف واحد .. يرقد طفل صغير ، ظل يتقلب في فراشه عدة مرات ، حتى أيقظ والدته الراقدة بجواره على حصيرة سميكة .. بدأ الطفل «دونو» يتنبه لأصوات سيارات نيفيل ورجاله ، وهي تقترب من كوخ مينجو فاعتلى ظهر بقرته ، التي تشاركهم كوخهم حتى طال حافة النافذة ، فقفز منها بهدوء على العشب الأخضر الندي ، ثم أحكم وضع قبعة يوسف فوق رأسه .. مضت برهة قصيرة ، حتى التفت عائدًا بسرعة إلى الكوخ ، مستجيبًا لنداء والدته ؛ كي لا يتنبه أحد من رجال إيراي لخروجه على إثر ندائها عليه .

وضع «دونو» أصبعه على فمه حتى ينبهها لخفض صوتها.. استفسرت منه بديهيًّا عن سبب خروجه ، فاقترب من النافذة أكثر ، وهو يقف على أطراف أصابعه هامسًا :

- هؤلاء الرجال .. لابد أنهم يدبرون أمرًا سيئًا لصديقي الطبيب يوسف ، ولابد أيضًا أن أعرفه حتى أتمكن من تنبيهه ، لا تقلقي سأعود فورًا .

لحظات واختفى من أمام عينيها القلقتين ، بعد أن طواه الظلام الدامس... مضى يقترب بحذر شديد من مكان الاجتماع ، وهو يسير كقرد على أربع ؛ حتى لا يراه الحراس المنتشرون حول الكوخ الكبير لمينجو.. استغل ثغرة واسعة بين حارسين ، ومرق منها إلى فناء الكوخ حتى اقترب من إحدى نوافذه ، واعتلى برميلًا بهدوء شديد ؛ حتى استقر عليه فأصبح يراهم أمامه تمامًا ، ولا يفصلهم عنه سوى بضعة أمتار .

لمعت عينا «دونو» واتسعتا من شدة الفزع ، عندما لمح العجوز نيفيل يوبخ مينجو طالبًا منه المزيد من الأطفال .. فجأة اختل توازنه وتحرك البرميل أسفله ؛ فأحدث صوتًا أشبه بالصرير كباب صدئ قديم ، فتح عنوة ، فسقط على الأرض متكومًا .. وقبل أن يتهيأ للنهوض ، أطبقت أياد سوداء كثيرة كلون الليل على كتفيه ، فانتزعته من موضعه ، وألقته بعدها بلحظات تحت قدمي إيراي .. نظر إليهم «دونو» المسكين بعيون شبه مغلقة من شدة إضاءة الكشافات الضخمة ، التي تتصدر أركان كوخ مينجو .. بينما ألقى نيفيل نظرة فاحصة عليه ، يغلفها الكثير من الاحتقار ، ثم رفع عينيه باتجاه إيراي مستفسرًا ، والذي ارتبك قليلًا ثم قال :

- لقد ضبطه الحراس يتلصص علينا من النافذة الغربية و.....

لم يكمل وقبل أن يقرر نيفيل مصير الصبي ، تطوع الطبيب جيفري متدخلًا في الحديث بابتسامة صفراء مقيتة ، لاتخرج إلَّا من شفتي لحاد يسرق جثث الموتى ليبيعها :

- إنه الفتى الذي كان يتلصص أيضًا على المخزن منذ أسابيع ، وتمكن من الهرب يا سيد نيفيل ، ووقتها.....

لم يكمل جيفري حديثه هو الآخر؛ فقد لمعت عينا نيفيل أكثر ، حتى كاد الشرر ينطلق منهما .. وبلهجة حازمة لا تقبل أكثر من تفسير ، قال وهو يشير بأصبعه إلى وجه إيراي ، حتى كاد يخترق إحدى عينيه :

- تخلص منه الآن .

ثم هب فجأة واقفًا بعد أن قرر إنهاء اللقاء بإرادة منفردة لصالحه ، مثلما بدأه ، دون أن يلتفت لطلب مينجو بتأجيل قتل الأطفال هذا الشهر ، لحين استقرار الأوضاع قائلًا في حدة :

- هذه مشكلتك وحدك ، وعليك حلها ، وإلَّا يحل إيراي محلك لإدارة الأمور ...! يجب أن تدبر لي الأعضاء المطلوبة خلال أسبوع من الآن ؛ حتى أتمكن من شحنها ولا تنس أنه لولا أصدقائي في الحكومة ، لما تمكنت أنت من العمل في تجارة العاج على هذا النحو الموسع ، ولا كانوا سيتركونك تعيش وقبيلتك في هذا المكان بحرية ، كما أنتم الآن .

ثم التفت موجها بقية حديثه إلى إيراي :

- أما هذا الطبيب المدعو يوسف الذي أبلغ الشرطة ، فاستغلوا حضوره إلى هنا بشكل منتظم ، واقتلوه في إحداها بالسهام ، على أن يبدو الأمر بطريق الخطأ .

حاول مينجو إطالة مهلة الأسبوع قليلًا ، ولكن نيفيل كان قد توجه إلى باب الكوخ وغادره ، وخلفه إيراي مباشرة الذي بدا بضخامة جسده كجدار أسود عازل ، فقطع على مينجو أية محاولة للاستماع إلى توسلاته .

مضى موكب نيفيل بسياراته الثلاث السوداء ، يشق ظلمات الأحراش ، وهي تطلق أنوارًا متقطعة كل برهة من كشافاتها ، مخلفة وراءها قدرًا لابأس به من الغبار ، ولكنه كان كافيًا ليغطي على وجوه مينجو وإيراي وجيفري ورجالهم ، فتبدو مكفهرة .. بينما ظل أحدهم يقبض على معصم «دونو» بذراعه المفتول ، وكأنه ثعبان ضخم ، أوشك على اعتصار فريسته الرقيقة وتهشيم ضلوعها.

* * *

15
الزيـارة

أكثر من عشرة أيام مضت على اختفاء تويا ... لم تعد تتردد على مقر الإرسالية الطبية ، كما اعتادت في صحبة الحالات المريضة لاستمرار البحث ... بعد يومين من بدء غيابها ، بدأ يوسف يشعر بقلق ؛ خصوصًا وقد ذهب إلى مكان لقائهما المعتاد وانتظرها لساعات فلم تحضر ... عشرة أيام مرت عليه كعشر سنوات .. قلق وهواجس ومشاعر متباينة ، انتابته جميعها حتى كادت تفتك بذهنه المجهد ، فلم يعد به مكان لمتابعة أبحاثه .. قرر في اليوم العاشر أن يتوقف تمامًا عن متابعة نتائج المصل ، بعد أن فقد تركيزه تمامًا ؛ لغياب تويا ، وتنامي إحساسه بأنها في خطر .

كان يجلس في حديقة الإرسالية ، يحتسي بعضًا من القهوة في شرود ، ويتصفح جريدة محلية في ملل .. ويصوب بصره إلى لا شيء كل برهة ... في إحداها ، لمح واحدة من المريضات ، اللاتي كن يترددن على الإرسالية بصحبة تويا ، وانقطعن مع غيابها ؛ مما أدى إلى تأخير أبحاثه أيضًا .. كانت تقف على مقربة من بوابة الإرسالية .. تبدو مترددة ، وتطل برأسها في حذر ، وكأن حدود البوابة خطٌّ أحمر لا تستطيع تجاوزه .

نهض بسرعة وتقدم إليها ... تحدث معها بالإنجليزية .. فلم تفهم منه شيئًا ، وظلت تردد كلمات بسرعة من لغتها الساحلية.. فوقف أمامها هو الآخر عاجزًا تمامًا ... لاحظ أنها تقبض بيدها على قارورة زجاجية صغيرة فارغة .. بسط كفه أمامها فقدمتها له .. تأكد من أنها قارورة المصل .. جذبها من ذراعها برفق ، فاستجابت في توجس ، بعد برهة من الرفض حتى أجلسها في الحديقة .. وذهب إلى المعمل لاستبدال القارورة الفارغة بأخرى مملوءة ، وعندما عاد إليها وجدها قد افترشت العشب واستخدمت المقعد مسندًا لظهرها ... لم يهتم بتوقيع الكشف الطبي عليها تلك المرة ، وإنما ركز على ما كان يشغله أكثر ، فعاد يكرر اسم تويا أمامها ، محاولًا الاستفسار بيديه عن سبب غيابها ، إلَّا أنها لم تحرك ساكنًا ، سوى إعادة ترديد الاسم كصدى الصوت ، ملحقًا بمفردات لغة ساحلية مبهمة تمامًا !!

بات عاجزًا أمامها ، وكأن كل منهما قادم من كوكب آخر .. زفر في ضيق ، وهو يرفع رأسه للسماء ؛لعلها تعينه في معرفة سبب غياب تويا ، وعدم قدرته على الذهاب إليها بمفرده .. فهو لا يعرف الطريق بدقة بعد حتى الآن ، و«دونو» اختفى هو الآخر منذ أيام ... فجأة خطرت في ذهنه فكرة غريبة ، فأشار إلى الفتاة المريضة بأن تنصرف ، وظل يلوح بكفه أمامها مودعًا إياها ، حتى تفهم محاولًا توجيهها نحو البوابة الرئيسة .. وما هي إلا لحظات حتى استدارت الفتاة ، واتجهت إلى طريق البوابة وانحرفت يمينًا ، وفي تلك اللحظة فتح يوسف خطواته الواسعة ليتتبعها في خفية ؛ فهي طوق النجاة الوحيد بالنسبة له الآن ، للوصول إلى تويا .

مضت نحو ثلاثة أرباع ساعة ، وهو يسير خلف الفتاة التي شعرت بوجوده منذ البداية ، وتلفتت إليه عدة مرات على مدار الطريق .. فكان يقف ويحاول الاختباء عن أنظارها ، مستعينًا ببعض الأشجار الضخمة ؛ حتى لا تراه .. إلَّا أنها لم تحاول الحديث إليه مرة أخرى .. كان يوسف واهمًا ، فقد أدركت الفتاة منذ البداية أنه يتتبع خطواتها بحكم غريزتها وفطرتها ، فتعمدت الحفاظ على

المسافة بينها وبينه كي لا يفقدها ؛ بسبب حرصه أحيانًا على تأخير خطواته ، كي لا تلاحظه فساعدته ، دون أن يدري على اقتفاء أثرها !!

لاحت له أخيرًا بعض الأكواخ المتناثرة معلنة عن بدء حدود القبيلة ، وشاهد الأوتاد الخشبية العالية ، التي يفصل بينها سلك شائك لحماية مداخلها من الحيوانات المتطفلة ...! فشعر ببعض الراحة لأول مرة ، رغم أنه في كل مرة كان ينتابه شعور بالقلق من خطر مجهول .. فإنه الآن يشعر بسكينة وطمأنينة .. وكأن أرض الكيكيويو باتت موطنه الأصلي ، الذي عاد إليه بعد غياب !!

لم يتوقف كثيرًا عند هذا الشعور الذي انتابه ، بسبب نظرات أهل القبيلة له ، فقد كان لا يزال مرتديًا معطفه الطبي الأبيض فوق ملابسه ، فبدا غريبًا على غالبيتهم ممن لم يترددوا على الإرسالية من قبل .. بل ولم يغادروا تلك البقعة من العالم يومًا ما..! ظل يسير بين الأكواخ .. يبتسم أحيانًا في بلاهة لمن يصوبون نظراتهم إليه ، وأحيانًا أخرى يتجاهلهم تمامًا ، حتى سمع اسمه يتردد بصوت عال عدة مرات متقطعة .. التفت خلفه .. كانت تويا قادمة نحوه ، وهي تجري وخلفها الفتاة المريضة ، تحاول اللحاق بها دون جدوى ... احتضنها بشدة غير عابئ برد فعل أهل قبيلتها .. لم يكن يصدق أنه يراها أمام عينيه مرة أخرى ..غاصت في حضنه ، وعقدت كفيها خلف ظهره وكأنها تعلن التصاقها به للأبد .. ظلا لدقائق ملتصقين بلا حراك ، وكأنهما يذوبان في بعضهما البعض ، ويعوضان ما فاتهما من أيام غياب ، بلغ الشوق مداه فيها حتى أضناهما .

تنبه يوسف إليها وهي تبكي بحرقة ، وتدفن رأسها عند منتصف صدره .. وضع أصابعه أسفل ذقنها ، وتأمل وجهها الجميل الذي بدا كقمر حزين ، أظلمت معظم جوانبه .. ومع ذلك لا يزال يحتفظ بإشراقة خفيفة .. قبل أن يسألها عن سبب بكائها وغيابها ، قالت وهي تقبض على يده بقوة كأنها طوق نجاة :

- هيا نذهب إلى البحيرة .. لا أريد أن أتحدث هنا .

سار معها والقلق يعتصره .. مرا بجوار كوخ مينجو .. فلفت نظره وجود قبعة ، تشبه قبعته تمامًا ، معلقة على وتد عال بالقرب منه ، ولكنه أقرب لكوخ صغير قريب من كوخ زعيم قبيلتها ... أشار إلى القبعة ، وهو يلفت نظر تويا إليها .. فانفجرت في بكائها مرة أخرى ؛ فعقدت الدهشة لسانه تلك المرة تمامًا ، وسار خلفها في صمت ، بعد أن تجهمت ملامحه وافترسته الظنون السيئة كلها !

لم يكن مصدقًا لما يسمعه من تويا .. شعر بأنه يرى كابوسًا يجري أمامه ، ويجبره على الإحساس بالفزع والألم والحزن مجتمعين وهو مستيقظ ..كان يتعذب مع كل كلمة نطقت بها.. لماذا ذبحوا «دونو» ؟! كيف جرؤوا على ذلك؟ أحس بأن الذي قُتل هو طفله الصغير .. أو شقيقه الذي تمناه .. فقد كان وحيدًا .. جزء منه انفصل عنه بلا رجعة .. تمنى لو استطاع أن يبكيه بدمائه .. كاد يصرخ في جنبات الغابة ضيقًا وألمًا ... اختنق صوته واحتبست ضلوعه أحزانه ، حتى كادت تنفجر من شدة آلامها على فراق «دونو» الصغير الشقي .

لم يعد يرى أمامه ، وهو جالس على البحيرة ، سوى صورة هذا الملاك الصغير ، وهو يقفز في الماء عاريًا ، مثلما رآه في اليوم الأول للقائهما... يكاد يتذكر صوت ضحكاته البريئة العالية ، كلما

قال أمرًا غريبًا أو روى بطولاته الطريفة الزائفة ... مشهده وهو يجري عند رؤيته كل مرة ؛ حتى يتشبث بعنقه في رشاقة وخفة كقرد صغير ، يتسلق شجرة ، يؤلمه أكثر وأكثر ، وهو يتذكره ويجبره على ذرف الدموع بغزارة .. أما تويا فقد أطفئت مصابيح وجهها المشرق ، وانخرطت في النحيب على فقدها «دونو» على يد إيراي ورجاله منذ عشرة أيام .

* * *

طرقتان على باب حجرته للمرة الثانية على التوالي ، وهو لا يريد أن يفتح ، أو حتى يتحرك من فراشه .. لحظات صمت مرت بطيئة ؛ حتى قطعها صوت مفتاح يعمل في مزلاج الباب.. لحظات وشاهد سكورت أمامه ، وبجواره أحد موظفي الفندق الذي أمره سكورت بالانصراف ، بعد ما شاهد يوسف ممددًا على فراشه ، وهو ينظر إليه في لامبالاة غريبة .

اقترب من حافة فراشه وجلس قائلًا في جزع :

- ماذا بك ؟

رد يوسف ببطء :

- لا شيء .

- لا شيء !! إذا كنت تسمي بقاءك في غرفتك منذ الأمس ، حتى مساء اليوم ، قابعًا على فراشك .. لم تحلق ذقنك ، ولم تغير ملابسك التي كنت ترتديها .. لا شيء ؟ فما الشيء إذًا ؟!

يوسف بعينين دامعتين وصوت متحشرج حزين :

- لقد قتلوا «دونو» .

ارتعد سكورت وفتح عينيه على مصراعيها لوهلة طويلة ، ثم ربت على كتف يوسف الأيمن الأقرب إليه .. وقد بدأت دموعه تغالبه هو الآخر ، ولكنها اكتفت فيما يبدو بأن تظل تترقرق في مقلتيه ، دونما انهمار ، فلم تكن علاقته قوية بدونو إلى هذا العمق ...!! لم يتركه سكورت حتى اغتسل ، وغادرا الغرفة المعبأة بدخان سجائره ، على مدار ساعات طويلة أمضاها بها .

ذهبا إلى المطعم حيث اختارا ركنًا هادئًا بعيدًا عن آذان المتطفلين ، بعد أن أقنعه سكورت بضرورة تناول بعض الطعام .. مضى يوسف يتحدث ، وسكورت ينصت له ، وهو يتذوق حساء الطماطم الساخن في تمهل ، وعيناه معلقتان بيوسف ، الذي قال :

- أخبرتني تويا أن «مينجو» أعلن عن غضب الأرواح الشريرة على القبيلة ، وكلف إيراي بمحو غضبها بجمع الأطفال المرضى فورًا لتقديمهم قربانًا لها ؛ حتى ترضى عنهم ولا يقتلهم البركان .. فاختاروا عشرة أطفال مصابين بمرض ، لا شفاء منه كالمعتاد ، من بينهم «دونو» الصغير ، حسبما قرر الطبيب جيفري ، والذي أعطاهم حقنًا مخدرة ، تعتقد تويا وقبيلتها أنها من باب الرحمة ؛ حتى لا يشعروا بآلام نيران البركان فيموتوا في سلام !

قاطعه سكورت قائلًا :

- والحقيقة طبعًا أن هؤلاء المجرمين خدروهم للاستيلاء على أعضائهم ، ثم أحرقوهم على قمة الجبل ، مثلما شاهدنا أنا وأنت من قبل .

أومأ يوسف برأسه بالإيجاب في أسى شديد ، وهو يقول :

- ولكن الغريب أن تويا أخبرتني أن «دونو» كان يقاومهم ، ويرفض حتى أن يخلع قبعتي من على رأسه ، قبل أن يذبحوه حسبما أخبرتها راني زوجة إيراي ، والتي أعطاها «دونو» القبعة وطلب منها أن تسلمها لتويا ، وتعلقها على وتد أمام كوخه .

ثم بكى يوسف ، في صمت ، وهو يتمتم :

- لقد رأيتها هناك أمس في المكان ذاته الذي اختاره .

ربت سكورت على كتفه برفق قائلًا :

- أنا أعلم مدى حبك لهذا الطفل وتعلقك به ، ولكنني قلت لك من قبل تلك عاداتهم وطقوسهم .. وأنت كشفت عن جانب آخر من جرائمهم ، وسيعادونك.. هذا أمر طبيعى.. ولكن ليس بأيدينا أي شيء نفعله .. هذه القارة يمكن أن تتقدم ، ولكن الكثيرين لا يريدون لها ذلك ، وبعض معتقدات أهلها تسهم ، ولو بقدر يسير ، في نجاح مخططهم .. فمن حروب أهلية إلى تجارة سلاح إلى صيد جائر لحيوانات برية ، حتى تعرض كثير منها للإبادة .. إلى استنزاف الموارد الطبيعية ، والآن قتل الأطفال لسرقة أعضائهم .. لا أمل في مساعدة هؤلاء ؛ فالمرض والفقر والجهل من أخطر أعداء تلك القارة ، وحزنك لن يعيد لك «دونو» .. أرجو ألا تعتبرني قاسيًا ، إذا قلت لك من الخير أن ذلك حدث ؛ حتى لا تبقى هنا أكثر من ذلك ... لقد وصلك اليوم تلكس من المؤسسة ، يطلبون فيه منك أن تحدد ميعاد عودتك ؛ حتى يتولوا ترتيبات حجز الطيران ، وإرسال طبيب جديد للإرسالية .. فهم يريدونك بالمركز الرئيسي ، مشرفًا على أبحاث المصل .. هل تحب أن أرد عليهم بأنك ستغادر غدًا .

قال سكورت عبارته الأخيرة في لهفة .

رد يوسف بعد أن وضع أدوات المائدة إلى جوار طبقه ، الذي كان لا يزال ممتلئًا لم يمسه :

- غدًا .. سأكتب أنا إليهم الرد .

جلس يوسف إلى مكتب صغير بغرفته وأمامه أوراق بيضاء ناصعة ، لم يستطع أن يكتب عليها حرفًا ، منذ أن تهيأ لكتابة خطاب آخر إلى السيدة براون ، بعد أن فرغ من كتابة تقريره لجورج راندال ، ولكن بصورة غير رسمية تلك المرة ؛ حتى لا يرسله عن طريق الإرسالية .. كان كلما تذكر والدته وكاترين والحياة في ليـڤربول والقاهرة من قبلها ، ثم أمسك بالقلم ليكتب ، حتى تتسمر يداه تمامًا .. ظل قلمه مثبتًا على بدايات الورقة ، يأبى أن يجري عليها بخطوطه ، وكأنه مملوء بحبر السكون !!

بعد أكثر من ساعة بين التفكير والشرود ، ومحاولات كتابة يعقبها تمزيق ما كتب .. بدأ يدون أول حروف خطابه .. بعد أن وجد وصفًا ملائمًا لحالته ولأحاسيسه ومشاعره ... فكتب :

«لقد وجدت ذاتي هنا .. عرفت قيمة مهنتي وحقيقة رسالتي في هذا الجانب المظلم من العالم .. استيقظت مشاعري من سبات عميق ، ويبدو أن طموحي يسير في مساره الصحيح .. اكتشفت أنني لم أفعل شيئًا حقيقيًّا في حياتي من أجل الآخرين .. كنت أعيش لنفسي فقط ، ولم أكن لأشعر بذلك الشعور الجديد ، إذا كنت قد عدت إلى ليـڤربول قبل اليوم .. الآن وأكثر من أي وقت مضى ، أقولها لك صادقة يا أمي إنني لا أرغب في العودة حتى أضيء جانبًا ، ولو صغيرًا هنا .. حتى أفعل شيئًا من أجل أشخاص أحبوني في حياتهم ، وأشعروني بأنني جزء منها ، دون أن ينتظروا

مني مقابلًا .. ولأنني فقدتهم الآن ، فلن أعود حتى أريحهم في رقدتهم الأخيرة .. وفاء لدين عظيم في رقبتي تجاههم ؛ فهم الذين أناروا وجداني وأحيوا مشاعري الحقيقية .. فعدت أتنفس هواءً نقيًّا جديدًا تمامًا ، ولا أعتقد أنك كأم ، لا تحبين لابنك إلَّا أن يولد من جديد مرة أخرى ...» .

يوسف

للمرة الثالثة أعاد جورج راندال قراءة تقرير يوسف ، وهو يكاد يكون غير مصدق لما تلتهمه عيناه من سطور ، يقف أحيانًا عند بعضها ، وهو يبتسم إعجابًا بهذا الطبيب الشاب ، الذي تغير مائة وثمانين درجة ، قبل أن يكمل عامه الأول في الإرسالية بقليل ... كان البروفيسور جورج يؤمن بأن من رأى ليس كمن سمع .. ومن عاش وسط المرضى وعايش آلامهم وأحس بشعورهم وسط بيئتهم الحقيقية .. لن يكون كمن رآهم لدقائق ، وشخَّص لهم فيها مرضًا ، أو وصف لهم دواءً ؛ باعتبارهم حالة مرضية عابرة .. ومنذ أن كان البروفيسور شابًّا صغيرًا في عمر يوسف ، اختار أن تكون مهنته رسالة .. ومنذ نحو أربعين عامًا أو يزيد ، عندما ذهب إلى مقر الإرسالية ، وأمضى فيها أكثر من نصف عمره .. حتى أسس مؤسسته الخيرية للخدمات الطبية في ليـڤربول ، بعد أن باع الكثير مما ورثه عن والديه ؛ من أجل التمسك برسالته .

لم يكن سعيدًا بقرار يوسف بالبقاء في نيروبي ، بقدر سعادته بالتحول الجذري في شخصيته ، والذي سيعينه على العطاء في أي مكان .. نيروبي أو غيرها .. الآن فقط شعر أنه راهن على الحصان الرابح وكسب الرهان .

- السيدة براون على الهاتف يا بروفيسور ....

قالها المساعد للمرة الثانية ، بعد أن ظل واقفًا للحظات ، قبل أن يتنبه البروفيسور جورج راندال لوجوده .

نظر إليه جورج قليلًا في وجوم ، وكأنه يخشى مواجهة جديدة مع هذه العجوز ، التي لا تيأس أبدًا من استرداد ابنها من الجانب الآخر للعالم الذي استقر فيه .. رفع سماعة الهاتف ووضعها على أذنه ببطء ، مرحبًا بها في عبارة مقتضبة ، وكأنه يعطيها إشارة البدء للهجوم عليه .. إلَّا أن السيدة براون خيبت ظنونه ، عندما فاجأته بنبرة تحمل قدرًا من الرقة والعذوبة ، لم يسمعها منها قبل ذلك ؛ حتى شعر بالخجل وأحمرت وجنتاه كثمرة طماطم ناضجة ... فلم يستطع أن يرفض طلبها بلقائه ، بعد ساعة ، في مطعم جرين هاوس ، رغم انشغال يومه بمواعيد كثيرة .

* * *

أمسك كفها الرقيق في حنان ، ثم طبع عليه قبلة حانية ، ومضى يتأمل عينيها الرائقتين ، بعد أن أفرغت ما فيهما من دموع على مدار أسبوعين ؛ حزنًا على فراق «دونو» قائلًا :

- من اليوم أعاهدك ألَّا نرحل من هنا ، إلَّا بعد اكتشاف المصل الشافي لهذا المرض ، والخلاص من إيراي ونيفيل ... اليوم أستطيع أن أقول لك أمرًا لأول مرة ، فأنت أول من ستسمعين هذا الخبر أن نتائج المصل إيجابية ، وما هي إلَّا شهور حتى نتأكد تمامًا أنه يهاجم فيروس المرض ، ويستطيع القضاء عليه نهائيًّا في مراحله الأولى .

لم يكد ينهي جملته ، حتى تهلل وجه تويا من الفرحة ، ولكن سرعان ما أغرورقت عيناها بالدموع مرة أخرى ، وكأن لديها قدرة فائقة على استدعائها في أي وقت .

مسح يوسف خديها برفق ، وهو يستحلفها ألّا تبكي مرة أخرى ؛ فالقادم أفضل .. كان يتحدث ، ودموعه تغالبه هو الآخر ، عندما أجابته بأنها كانت تأمل أن يعالج «دونو» ، ولا يموت كما مات غيره من الأطفال المرضى .

أجلسها بجواره بهدوء على التل الصغير اللذين كانا قد اتخذاه مكانًا لهما ذلك اليوم ، ومضى يحدثها وهما يطلان على البحيرة بضفتيها من مكانهما المرتفع ... كان من أعماقه يتمنى أن يتسع أفقها لحديثه ، مثلما تتسع مساحة الرؤية أمامهما بلا حدود ..

- اسمعيني جيدًا يا تويا .. دونو لم يكن مريضًا ... إذا كنت تثقين في قدراتي كطبيب ، فتذكري أنني قد فحصته مرتين من قبل ، عندما أصيب في كتفه ، كما أنني شاهدته عشرات المرات بعدها ، ولو كان مريضًا بالجذام لعرفت وعالجته .. أنت نفسك شاهدت حالات مصابة من الفتيات ، اللاتي كنت تصطحبينهن للإرسالية ، ورأيت بعينك علامات المرض على أطفال آخرين ، ولم تكن هناك مثلها على جسم «دونو» يومًا ما ... صدقيني يا تويا ، دونو لم يكن مريضًا ولم تظهر عليه الأعراض أبدًا ، وربما كثيرون غيره ممن أحرقوا فوق الجبل لم يكونوا مرضى أيضًا ... والأمر لا علاقة له بأرواح شريرة أو طيبة.. وإنما هناك أناس أشرار ، مثل نيفيل وإيراي ومينجو ، يتاجرون في الأعضاء البشرية لهؤلاء الأطفال ، ويقتلونهم بعد ذلك ، مثلما يقتلون الأفيال والخراتيت للاستيلاء على أنيابها ، ويحرقون كل ذلك أعلى الجبل .. فيبدو الأمر بركانًا كما تتوهمون !

شردت تويا قليلًا ، وتفحصت وجهه ، ولم تعلق..

فعاد يسألها بنبرة مترددة :

- هل تصدقيني ؟!

نظرت إليه والشك يلاحق نظراتها ولم ترد... وضع يديه على خديها وأعاد سؤاله ...

فأجابت بشفاه ترتجف :

- أريد أن أصدقك .. أنا أحبك وأثق بك ، وأعلم أنك تحاول مساعدة قبيلتي .. ولكن تلك معتقداتي منذ أن ولدت .. لا يمكن أن يكون كل ذلك غير حقيقي .. فمنذ عشرات السنين ، لم يكن هناك إيراي أو نيفيل أو مينجو .. كان «أداتوا» وآخرون من قبله .. وكان هناك البركان والأرواح الشريرة أيضًا وكنا نقدم لهم قربانًا .. ولولا هذه المعتقدات لهلكنا جميعًا .. أرجوك يا يوسف تأكد مما تقول .. أنا أفكر كثيرًا فيما قلته لي منذ أن احتفلنا بك ، ولكنني لا أستطيع أن أصدق .. لا أستطيع يا يوسف .. لا أستطيع مع أن بداخلي إحساسًا قويًّا بأنك صادق .. ولكن ...

ضمته و.. أجهشت تلك المرة بالبكاء ، فاحتواها في حضنه ، وربت على رأسها ، دون أن يتحدث ثانية ... ومضى ينظر إلى قرص الشمس ، وهو ينسحب مفسحًا الطريق لغيام الغروب ؛ كي يغزو السماء في تمهل .

* * *

بعد أن اختار كل من البروفيسور راندال والسيدة براون ، من قائمة الطعام ، طبقهما المفضل .. أشعلت سيجارتها في هدوء قائلة ، وهي تنفث بعض دخانها من بين أسنانها ، التي لا تزال تحتفظ بنصاعتها بمعاونة كبيرة من طبيب الأسنان :

- بالطبع ، أنت علمت أن يوسف سيبقى هناك لفترة غير محددة .

هز البروفيسور رأسه بالإيجاب ، وقبل أن ينطق بأية كلمة .. استرسلت هي مكتفية بإيماءته الإيجابية :

- وعلى ضوء خبرتك .. كم من الوقت يحتاجه ؛ للوصول إلى اكتشاف مصل لعلاج هؤلاء البؤساء ، الذين يعيشون في الأدغال هناك ؟!

لم تعجبه نبرتها المتعالية نوعًا ما ، وهي تتحدث عن الأفارقة المرضى بهذه الأوصاف .. فأجابها بهز كتفيه قليلًا إلى أعلى ، مع مط شفتيه ، واستمر يدخن سيجاره دون تعليق .

أطفأت سيجارتها بعصبية ، لم تستطع مدارتها قائلة :

- إذًا أنت لا تعرف ... ويوسف أيضًا لا يعرف .. ومن غير المنطقي أن يبقى ابني في مكان تابع لمؤسسة إنجليزية طبية ، من المفترض أنها خيرية تحت رئاستك لمدة غير محددة ، وكأنه في معسكر للجيش ، ينتظر قرارًا بإنهاء الحرب حتى يعود لوطنه .

ابتسم لها جورج ابتسامه باهتة ، وهو يرد قائلًا :

- لا يا سيدتي .. الأمر ليس بهذه الصورة ... يوسف استطاع أن يصل إلى نتائج جيدة في وقت قياسي ، وإرسالياته انتهت ، وأنا لم أطلب منه البقاء ، وإنما تلك هي إرادته .. أنا قررت عودته ، وهو اختار الاستمرار ، ولو على نفقته الشخصية .. أعتقد أنه ليس هناك بوسعي شيء أفعله هذه المرة .. لقد عاد إلى نفسه ، بعد أن ذهب إلى هناك ...

لم يكمل البروفىسور حديثه .. فقد قاطعته السيدة براون في حدة قائلة :

- بل يمكنك .

تطلع إليها بنظرة تساؤل ... فأردفت :

- لقد علمت أنك ستسافر في غضون أيام إلى هناك... أريد أن أذهب معك !!

وضع النادل الأطباق أمامهما متمنيًا لهما شهية طيبة .. وللأسف لم تتحقق أمنياته ، فقد ظلا صامتين ، بعد أن وافق البروفيسور جورج راندال ، على مضض ، على اصطحابها معه عند سفره إلى نيروبي ، واكتفيا بتقطيع قطعة اللحم إلى أجزاء صغيرة .. القليل منها هو الذي انتقل إلى فم كل منهما كل برهة ، وكأنهما زهدا الحديث والطعام فجأة .

* * *

أشار سكورت بيده إلى رجل فارع الطول ، يرتدي زيًّا عسكريًّا قائلًا :

هل ترى هذا الرجل الأسمر الطويل الواقف ، بالقرب من مكتب الاستقبال .. إنه ريجي .. رقيب في الشرطة الكينية ، وسوف يكون في حراستك يوميًّا الفترة المقبلة .

تأمله يوسف ثم تساءل في انزعاج : ولماذا؟!

سكورت ، وهو يبدو جادًّا :

- لأن نيفيل لن يتركك .. والخطر يقترب منك الآن ، ولن تستطيع أن تواجهه وحدك .. لا تقلق .. فهذا الرجل مسلح أيضًا ، أنت تعلم أن علاقتي بالشرطة هنا جيدة ، وهم يأتون كثيرًا إلى زيارتي

، وهذا الحارس بزيه الحكومي .. سوف يجعل رجال نيفيل يفكرون كثيرًا قبل أن يقدموا على إيذائك .

بدا يوسف غير مقتنع على الإطلاق ، وإن لم يظهر ذلك لسكورت على الإطلاق ؛ حتى لا يتسبب في إحراجه ، فشكره على اهتمامه به وجهوده لحمايته ، وأضمر في نفسه أمرًا ما ، فقد كان يكره القيود بكل أنواعها .. ولا شك أن أحدها هو ريجي !

* * *

- سنزيد من نسبة عقار الريفامبين قليلًا اعتبارًا من هذا الأسبوع ، ولمدة ثلاثة أسابيع أخرى .. وسنستمر في الجرعة القديمة على الحالات ، التي تتردد علينا ، وسأحدد لك النسبة التي سنزيدها اليوم أو غدًا ... والآن ، أريد جميع التقارير الطبية لكي أراجعها ، قبل قدوم البروفيسور جورج راندال .

كان يوسف يلقي بتعليماته لمساعده الجديد ، الذي يختص بتطوير المصل القديم ، وهو يتأهب لمغادرة مقر الإرسالية .. جذب سترته من خلف مقعده ، شارعًا في ارتدائها ووقف أمام النافذة.. لمح ريجي حارسه الكيني واقفًا أمام البوابة الرئيسية لمقر الإرسالية ... يدخن في هدوء ، بعد أن اتكأ على إحدى ضلفتيها الكبيرتين ... زفر يوسف في ضيق ؛ فلديه موعد مع تويا عند البحيرة ، ويريد أن يتخلص من هذا الظل ، الذي لا يفارقه حتى يأوي إلى فراشه.. وعندما يستيقظ كل يوم ، يجده خلف الواجهة الزجاجية للمطعم ، الذي يتناول إفطاره فيه ؛ ملوحًا له بتحية الصباح ، وكأنه لا ينام أبدًا .

تفتق ذهنه عن حيلة ساذجة ، شاهدها في فيلم فرنسي قديم منذ عدة سنوات ، ولا يعرف لماذا تذكرها الآن ...كان يوسف لا يزال واقفًا خلف نافذة مكتبه محتميًا بستائرها تلك المرة ، وهو يبتسم في هدوء .. بينما كان مساعده يخبر الحارس ريجي بأن يوسف قد غادر المكان في السيارة ، التي خرجت من البوابة منذ قليل ، ونسي أن يصطحبه معه !!

اتسعت ابتسامته ، وهو يتأمل دهشة وغضب وحيرة حارسه ، والتي راحت كل منها تعتري وجهه ، وتكسو ملامحه على التوالي .. كل على حدة ...!! وما إن انصرف الحارس ، حتى كان يوسف يسرع الخطى تجاه البحيرة .

* * *

لم تصبر السيدة براون على لقاء يوسف ، عندما وصلت نيروبي .. فمنذ أن وطئت قدماها فندق ماي فير كورت ، حتى تركت له رسالة ليتسلمها عند عودته من الخارج ، والذي ما إن وقعت عيناه على سطورها ؛ حتى ظل واقفًا أمام موظف الاستقبال ، دون حراك وكأن على رأسه الطير ... شعر بأن الأرض تدور به ، وأنه يكاد يفقد توازنه .

السيدة براون وبصحبتها كاترين .. وصلا اليوم ، وهما على بعد أمتار قليلة منه الآن ... مفاجأة .. بل مفاجأتان ، لم يكن يتوقع حدوث أي منهما على الإطلاق ... دارت في ذهنه عشرات الأسئلة ، عن سبب حضورهما بصحبة جورج راندال .. بالطبع لم يجد أية إجابة .. لم يكن ذهنه قادرًا على استيعاب الموقف ، ولم يشأ أن يجهد نفسه أكثر من ذلك .

دقائق بطيئة مرت عليه ، حتى طرق باب حجرة السيدة براون ... ولحظات أبطأ حتى فتحت له باب حجرتها .. كان لقاء من الصعب على كل منهما أن يصف مشاعره تجاه الآخر فيه.. فبينما اختلطت أحاسيس يوسف بكثير من الدهشة والريبة لهذه الزيارة المفاجئة ، كانت السيدة براون تحتضنه برفق وتتفحص عينيه بدقة ، بينما يغلي بركان الغضب بداخلها ؛ حتى كاد ينفجر من شدة ما كتمته ... جلس أمامها كطفل صغير ، أخطأ ينتظر العقاب ، رغم اقتناعه بأن ما فعله ليس سوى خطيئة من وجهة نظر والدته فقط كأي طفل ..! بينما كانت السيدة براون أذكى كثيرًا من أن تواجهه بمشاعر غضبها في اللحظات الأولى للقائه ، بعد غياب دام شهورًا ، بل تعمدت أن تؤنبه بطريق غير مباشر .. فاستدعت كاترين ، وجلست تتأمله ، وهو يرحب بها وترقب نظرات عينيه واضطرابه ، وكأنها تتلذذ بتعذيبه !

في حين كانت كاترين في أوج برودها ، ولم تفارق نظرات العتاب واللوم عينيها ، حتى وهي تبتسم في وجهه ابتسامة مصطنعة ، تعمدت إظهارها حتى يخرج ما في جعبته .

ظل يوسف دون عمد صامتًا فالمفاجأة ألجمته.. لم يشر من قريب أو من بعيد إلى أسباب ومبررات بقائه .. بل ظل يستفسر منهما عن أحوالهما ، ويعرب عن اشتياقه لهما في عبارات باردة ، ويزيد كثيرًا من عبارات الترحيب ، وكأنه حفظها ، وحان وقت ترديدها على الملأ ؛ فبدا من شدة اضطرابه كممثل فاشل على خشبة مسرح ، ينتظر دومًا مساعدة عاجلة من الملقن ، وتوجيهًا من المخرج القابع خلف الستار .

عندما عاد لحجرته ، كان قد فقد تركيزه وانهارت أعصابه .. لم ينم ، وظل يحملق في سقف غرفته في وجوم ، وهو يحدث نفسه :

- ماذا سأفعل طوال الأيام العشرة ، التي ستمضيانها معي هنا ؟!

كان منذ اقترابه من تويا ، وهو يشعر بأنه قد تحرر من بعض قيوده ، التي كانت تحيط به .. ويبدو أنه لم يكن يدرك وجودها جيدًا ... كان أشبه بعصفور مدلل في قفص من ذهب ، حتى طموحه كان قيدًا على أفكاره لـ «دونو» .. حصره في اتجاه واحد إجباري .. حتى أرغمه على السير فيه .

زفر زفرة طويلة من أعماقه ، ودار بخلده كيف ستكون حاله ، لو كان سار في طريقه إلى نهايته ... لو لم تظهر تويا .. لو لم يكن هناك هذا التحدي مع المرض .. لو لم تحرك آلام المرضى مشاعره ، وتهز كيانه حتى تزلزله .. ثم كان فقده لـ «دونو» الصغير ، الذي دفعه دفعًا لاتخاذ قراره بالبقاء ، حتى انتهاء أبحاثه ؛ حتى ولو كلفه هذا الأمر حياته نفسها .. كيف تحول هكذا ؟! وكيف سيقنع والدته وكاترين بهذا التحول ، وهو يكاد يكون غير مصدق لما هو فيه الآن ، وإن كان يشعر بارتياح لما أقدم عليه .. هل هو مندفع أم عنيد ؟ هل كانت قيوده تضايقه إلى هذا الحد ؟ كيف وهو لم يكن يشعر بإحكام قبضتها على معصمه ..!! أم أن مشاعره هي التي تحركه الآن ، بعد أن غلبت عقله؟ ... وماذا لو كانت مشاعره كاذبة ؟!

لا.. لا .. استبعد هذا الاحتمال ، وهو يهز رأسه مغادرًا فراشه ليشعل سيجارة ... ووقف ينفث دخانها من نافذة غرفته ، وهو يتكئ على حافة شرفتها بمرفقيه .. وعاد إلى تفكيره المضطرب نوعًا ما مرة أخرى ، فلم يكن قد أحسن ترتيب أفكاره ، منذ أن باغتته أمه وكاترين بالزيارة .. هل

لقاؤه بتويا هروب إلى مخدر ، أم إفاقة من غفلة عن حقيقة شخصيته ، التي ألمت به لسنوات مضت ، ولم يكن يشعر بها .. أم هي رغبة صادقة في الاقتراب من إنسان ، يبادله المشاعر الجياشة القوية نفسها ؟! تذكر والده ، ونصائحه له بألَّا ينسى جذوره أبدًا مهما ابتعد عنها .. كان يشعر أنه يحب «تويا» من أعماقه .. ليست فقط كامرأة ، وإنما كحياة كاملة ، وامتداد طبيعي لروحه وعقله ... ومع ذلك كان ينتابه في الوقت ذاته شعور قوي بأنه من المستحيل أن يكمل حياته معها ، لا هنا ولا في أي مكان آخر ..! ولكنه دائمًا ما كان يستسلم لمشاعره الأولى نحوها بلا تدبير للثانية ..! ربما كان يأمل أن تتغلب مشاعره على واقعه .

عاد يقول لنفسه : هيهات.. لم يحدث لي ذلك من قبل ، ولا أحسب أنني قادر على إتيانه !!

عندما تملكه الإحساس باليأس ، وطغى على تفكيره.. نفض عن رأسه أفكاره كلها ، مقررًا تناول جرعة المخدر ، التي تسكن آلامه وتريحه.. فذهب للقاء تويا على ضفاف البحيرة .. مكانه المفضل وملاذه الأخير ، الذي بات يعشق الهروب إليه حتى من نفسه !!

- ألن تقولي له شيئًا ؟ .. منذ أن وصلنا نيروبي ، ونحن نذهب مع هذا المدعو سكورت إلى رحلات مملة ؛ لمشاهدة حيوانات ، أو السهر في الملهى الليلي .. ويوسف يقضي معظم يومه حتى المساء في عمله ، والساعات التي يمضيها معنا يغالب النعاس ، أكثر مما يتحدث معي ... لماذا حضرنا إذًا إلى هنا ؟

كانت كاترين توجه سؤالها هذا إلى السيدة براون ، التي أجابتها ، وهي تراجع وضعية قبعتها على رأسها في المرآة :

- لا تقلقي يا كاترين .. اليوم سأتحدث معه ... كان لابد أن أتركه بعض الوقت ... نحن لم نأت إلى هنا لنتشاجر معه ، وإنما لنقنعه ... يوسف تغير كثيرًا في هذه الفتره القليلة التي أمضاها في هذا البلد ، ولا بد أن نأخذه برفق حتى لا نفقده ... إنه عنيد حتى على نفسه ، وهذا النوع لا ينفع معه التهديد أو الترهيب .. وإنما علينا ترغيبه في العودة ... اتركي لي الأمر و......

قبل أن تكمل جملتها .. قاطعتها كاترين ، بعد أن تملكتها العصبية ، وتراجع برودها للوراء قليلًا قائلة :

- إنه حتى لم يحاول الاقتراب مني ... لم يقبلني .. لم يدعني للرقص معه كما كان يفعل ..لم يحاول حتى أن يمسك يدي .. يتحدث معي ، وكأنني غريبة عنه .. بل حتى لو كنت كذلك ، لكانت حالي أفضل على الأقل .. سيكون لديه فضول لكي يتعرف إلي أكثر ..!! يوسف لم يتغير فقط ..يوسف تبدَّل.. أصبح شخصًا آخر ، كما أن سلوكه أيضًا بات مريبًا للغاية.. هل تعرفين أين يذهب طوال اليوم حتى حلول الظلام ؟!

السيدة براون ، وقد التفتت إليها مندهشة من نبرة السؤال :

- في مقر الإرسالية مع البروفيسور .

كاترين في سخرية :

- هذا ما كنت أظنه ، ولكن العمل هناك ينتهي في الثالثة تمامًا ، والبروفيسور جورج ، وبقية الأطباء يوجدون في الفندق ، بعد عودتهم نحو الرابعة .. أما يوسف فلا يعود إلا قرب الثامنة ، مساء كل يوم .. فأين يذهب إذًا ؟!

السيدة براون في حدة ، وقد ساورها القلق أكثر :

- ماذا تقصدين ؟!

قالت كاترين في زهو المنتصر ، الذي نجح في زراعة بذرة الشك ببراعة ، وهي تهم بمغادرة جناح السيدة براون :

- لا أقصد شيئًا .. الحقيقة لا تتوارى كثيرًا ، وسأعرفها قريبًا وسأغيرها أيضًا !

قالتها وانصرفت .. تاركة السيدة براون في حيرة مما سمعت ..! ولكنها كأم ، وأنثى قبل ذلك ، جعلتها تتساءل في دهشة .. يوسف ؟! وهنا في نيروبي ؟! ولماذا ؟؟ ومن تكون تلك ؟! وكيف تحولت كاترين إلى امرأة غيور شرسة هكذا فجأة ؟! على الأقل بالنسبة للسيدة براون !!

صعدت الأسئلة دفعة واحدة إلى رأسها ، حتى باتت أشبه بسائل يفور بشدة فجأة .. ولم تجد لها إجابة فزادت حيرتها .

* * *

16
المواجهة

عقب الاجتماع المطول الذي عقده البروفيسور ، جورج راندال ، مع طاقم الإرسالية ، والذي استغرق ساعات طويلة .. استعرض معهم فيه إنجازات البحث ؛ للوصول لمصل شاف لمرض الجذام ، من خلال تطوير التركيبة الثلاثية الجديدة ... اجتمع مع يوسف على انفراد .. كان يريد أن يعرف منه حقيقة تغيره .. هل كان يهرب من واقعه ، الذي أحس بأنه يرفضه فجأة ودون مقدمات ، أم هو مقبل على المستقبل الجديد بلا خوف أو تردد ؟ هل لديه أحلام وطموحات صادقة تبحث عن الأمان ؛ حتى تتحقق أم ماذا ؟

كان يوسف متحمسًا جدًّا لوجود البروفيسور جورج في نيروبي ، وعرض نتائج أبحاثه على مدار ساعة بمنتهى الجدية والحماسة لما يقوله.. صحيح أن المشوار لا يزال طويلًا ، ويحتاج إلى تمويل أكبر بمعاونة من شركات الدواء العالمية .. ولكنها خطوة .. بل قفزة إلى الأمام .

سأله البروفيسور راندال سؤالًا مباشرًا :

- هل أنت راض عن نفسك الآن ؟

رد يوسف بسرعة وجدية ، وكأنه كان ينتظر السؤال :

- كان والدي يقول لي لابد أن تحب مهنتك أولًا ، ثم تبحث عن المال بعد ذلك .. وأنا أحببت مهنتي ، وأخلصت في دروسي ، وكنت أحب المال أيضًا .. بل في الحقيقة ربما كنت أضع المال في المرتبة نفسها مع عملي .. ولكن بعد عام هنا في هذا المكان البعيد ، شعرت بتغيير ... هنا فقط رأيت المهنة رسالة.. أما المال فسوف يأتي حتمًا بعد ذلك ، حتى ولو لم يكن وفيرًا ... فقيمة ما أفعله ستخلد اسمي وترضي طموحي ... أنا لا أعرف متى تحديدًا تغيرت ؛ فهؤلاء الأفارقة المرضى الفقراء تعلقت بهم بشدة .. شعرت أنهم في حاجة إلى وجودي معهم ، وشعرت بقيمة ما أفعله باقترابي منهم .. أنا أؤمن بأنني الآن أسير في اتجاه صحيح .. على الأقل يريحني .. قد يكون خطأ من وجهة نظر كثيرين غيري ، وقد يراه البعض الآخر صحيحًا للغاية ، ولكنني أراه مناسبًا لي تمامًا ... على الأقل في الوقت الحالي !

ربت البروفيسور جورج على كتفيه بكلتا يديه ، وهو يتأمله بحنان أب فخور بولده ، وبنجاحه قائلًا :

- ليس لدي ما أقوله لك سوى أنني فخور بك لأقصى درجة ... الآن أستطيع أن أكون مطمئنًا ، إذا ما انتهت حياتي ، إلى أن هناك من سيواصل العمل من بعدي ؛ حتى يتحقق الأمل ... أشكرك .

* * *

كان سكورت قد أعد كل شيء وأشرف بنفسه على كل التفاصيل الصغيرة ؛ ليخرج الحفل في الليلة قبل الأخيرة لائقًا بمكانة البروفيسور جورج راندال ، وكذلك السيدة براون والجميلة كاترين ، التي يبدو أن حشرات نيروبي قد أحبت بشرتها كثيرًا فتركت لها بها أثرًا قد يحتاج لأسابيع ، حتى يزول تمامًا ، ولم يجد دواء يوسف معه نفعًا !

حتى راؤول وريتا كانا ضمن المدعوين .. بل إن نيفيل أيضًا فرض نفسه ، ولم يقو سكورت على مجرد الاعتراض ... مضى الحفل هادئًا لطيفًا ، مثلما خطط له سكورت تمامًا ، حتى جاءت لحظة فارقة ، قلبت الأمور رأسًا على عقب .

عندما اقترحت السيدة براون على يوسف أن يدعو كاترين للرقص فتحجج بآلام في ركبته ، فما كان من كاترين إلَّا أن تهكمت على حجته ، وهي تتجرع كأس الويسكي الرابعة ، فبدت ثملة ، وهي تقول :

- إن ركبتيك تؤلمانك من كثرة جلوسك على العشب مع القرود في الغابة !!

نزلت الجملة على مسامعه ثقيلة ، وكأنها ألقت حجرًا على رأسه .. لم يدر بما يرد على هذه العنصرية ، التي أظهرتها كاترين فجأة بمنتهى الصفاقة .. اتسعت عينا السيدة براون في دهشة ، وامتعض وجه البروفيسور من سوقية الحديث.. نظر يوسف إلى سكورت ، الذي بدا مضطربا وهو يرفع كتفيه إلى أعلى ، وكأن لسان حاله يقول :

- لقد أجبرتني كاترين على اصطحابها إلى البحيرة ، عندما كنت تلتقي توبا اليوم !!

لم يتمالك يوسف أعصابه ، وشعر بأن استمراره في تمضية السهرة قد بات مستحيلًا مع صفاقة كاترين ؛ خصوصًا وقد بدأ شعور آخر ينتابها.. شعور أشبه برغبة أنثى جريحة في الانتقام من ذكرها.. وتريد أن تذيقه مرارة الانكسار ؛ ليتجرعها في حسرة مثلها.. وكان هذا الشعور ينمو ويكبر لديها ، كلما شعرت بأنها تخطو خطوات وخطوات في طريق الفراق ، واليوم أطلقته في وجهه ، بعد أن ضاقت به جوانبها الرقيقة .. فلم تعد تتحمله بداخلها أكثر من ذلك .

قام يوسف فجأة مغادرًا مقعده ، محدثًا جلبة عالية ، أسقطت مقعده أرضًا جراء هبته ، وأطاحت يده عن غير عمد ببعض الكئوس ، التي كانت متراصة أمامه .. فعزف اصطدامها ببعضها البعض سيمفونية مزعجة ؛ جذبت الانتباه ، ثم سرعان ما جلبت التوتر لرواد الملهى الليلي ، الذين لم يتمكنوا من متابعة الشجار عند اندلاعه ، فلم يفهموا تلك النهاية الغريبة !

ظل يوسف واقفًا أمام نافذة جناح السيدة براون ، متشبثًا بستارتها بإحدى يديه ، وواضعًا الأخرى في جيبه ... ينظر في ضيق إلى الأفق الواسع الممتد أمامه .. بينما كلمات أمه تلح على أذنيه إلحاحًا ... كانت السيدة براون حادة في حديثها ، استخدمت كل أسلحتها تلك المرة ، التي ربما تكون الأخيرة ... ابتداء من نبرة صوتها وارتفاع وتيرتها تدريجيًّا ... إلى إيماءات جسدها .. وحركات يديها ، وهي تقف وتلوح وتتوسل إليه في النهاية .. مرورًا بتهديده حتى لجأت لسطوتها عليه .. جربت معه كل شيء .. إلَّا أنه كان صلبًا تلك المرة ، يستمد قوته من توازنه النفسي ، من إحساسه بذاته .. بقيمة عمله في مجتمعه ، وأيضًا اقتناعه بالدرب الذي خطا فيه خطوات كثيرة ، ولم يعد الرجوع يجدي نفعًا بشأنها ، فلن يمحوها من ذاكرته أبدًا .

فجأة غيرت السيدة براون دفة الحديث تمامًا قائلة :

- من هي توبا يا يوسف؟

لم يكن السؤال مباغتًا .. بل على العكس كان يتوقعه ، بل ويريد الإجابة عنه .. فأعاد المفاجأة لأمه بطريقة إجابته ... قائلًا :

- كنت أريدك أن تبدأي الحديث عنها ؛ حتى نوفر كل هذا الوقت والانفعالات ... أنا لم أعد صغيرًا كما تصرين على التعامل معي دائمًا ... تويا هي روحي ، التي لا أستطيع البعد عنها الآن ... لا أريد أن أتركها ، فأعود تمثالاً من شمع بلا روح .. حياتي قبلها كانت أشبه بمن يشاهد الناس ، عبر فاصل زجاجي شفاف ، يكاد لا يرى ، ولكنه بالنسبة لي كان رهيبًا كسد منيع ... صحيح أنه كان يمنع تطفل الآخرين ، ولكنه حرمني من انخراطي معهم ، والإحساس بهم عن قرب ... تويا التي تسألينني عنها ، وتحدثت عنها كاترين بكل وقاحة اليوم .. هي التي حطمت هذا الحاجز ، وجعلتني أعبر من خلاله لموطني الأصلي .. لعالم طبيعي بلا رتوش ... مستقبلي معها ، وغدي سيبدأ بها دومًا ... لن أعود لعالمكم ، ولن أنظر خلفي مرة أخرى .

ذرفت السيدة براون دموعًا شحيحة .. تكاد تعد على أصابع اليد الواحدة ، وهي تقول له :

- هل تعتبرني قيدًا في حياتك .. هل ترى في حب كاترين لك ما يقيدك .. هل تحقق لك هذه السمراء طموحاتك وأحلامك ... هؤلاء ليسوا أهلك ، ولا هم من بيئتك ، ولن تستطيع أن تجذبهم إليك ، بل سيشدوك إلى أسفل ... فتستقر معهم في قاع العالم ، حيث هم يقبعون .

قاطعها يوسف بحدة ، وهو يلتف إليها بنصف جسده :

- هؤلاء يحتاجونني أكثر منكم ، وأنا أحتاج لوجودي معهم أكثر من بقائي بمفردي معكم .. إنجلترا ليست موطني .. هؤلاء هم امتدادي الطبيعي .. أنا أشعر بأنني أخالف قوانين الجاذبية ، إذا ما ابتعدت عنهم..! كان والدي على حق .

السيدة براون :

- والدك مات ... ولكن كاترين باقية .. هل ستتخلى عنها هكذا ببساطة !!

يوسف ، وهو يشعل سيجارة لأول مرة أمامها:

- لم أعدها بشيء .

السيدة براون :

- ولكنها تحبك ومستقبلك معها في ليڤربول .

- وأنا أحب تويا .

كانت المرة الأولى التي يصرح فيه بحبه أمام مخلوق .

جلست السيدة براون على الأريكة الوثيرة ، وهي تتهاوى قليلًا متخلية عن كبريائها إلَّا قليلا .. ودهشتها تنافس إحباطها في شدته قائلة :

- أتحب فتاة حافية نصف عارية كما وصفتها لي كاترين ، ومن قبيلة بدائية ؟ هل تفضلها على كاترين الأرستقراطية ، التي تجري دماء نبلاء أوروبا في عروقها ...؟! الناس ترتقي وتصعد .. لا تهبط مثلما تريد أن تهوي دون أن تدري .. هل جننت ؟!

لمعت عيناه ، وهو يقول سابحًا في وجه تويا الجميل في خياله :

- جنون حبي دليل على سلامة عقلي ... لا أريد أن أتعود رسم ابتسامتي مع كاترين .. أريدها تلقائية نابعة من قلبي مثلما يحدث مع تويا .. مشاعري مع كاترين كانت دائمًا مجمدة لحين إشعار آخر .. أما أحاسيسي تجاه تويا .. فلا يمكنها الانتظار لدقائق ، فهي تتدفق رغمًا عني في أوانها

تمامًا ، وتدفعني دفعًا لأن أكون ذاتي .. أكون يوسف الذي أحببته على يديها .. أما كاترين ، فبيني وبينها جفاء وفراق رائعين ، فهما لا ينحوان للشوق أبدًا .

عادت السيدة براون لمعاودة القتال بآخر أسلحتها كأم تثير مشاعر ابنها نحوها :

- ألن تعود ؟!

صمت يوسف ولم يرد .. فعادت تعيد السؤال على مسامعه وتكرره ، وهو على صمته ، حتى قالت في يأس :

- أسمع في صمتك ضجيج العناد .

ثم استطردت بصوت متحشرج :

- سأستمر في تصديق ما لا أراه .. وسأصدق فقط إحساسي بابني ، الذي ربيته وتعلقت به .. سأنتظرك حتى تتكشف لك الحقيقة في هذه البقعة المظلمة ، وتعود بعدها بإرادتك .

قبلها في جبهتها الضيقة قبلة حانية ، ثم انصرف في هدوء .

كان يوسف قد عقد العزم على المضي في طريقه ، وبات كقطار انطلق ، ومن الصعب إيقافه قبل بلوغه محطته التالية .. حتى كاترين فشلت بكل أسلحتها الأنثوية في أن تفلح بأن تجعله ولو يلتفت للخلف ، أثناء سيره ، ولم يكن في جعبتها أسلحة أخرى .. فلجأت إلى البروفيسور راندال ؛ لمعاونتها فاعتذر بدبلوماسية شديدة ، متعللًا بأنه لا يجيد تلك الأمور ، ويخاف من أن يتسبب تدخله في مزيد من الشقاق بينهما .. أما سكورت فقد كان أقل حكمة من البروفيسور بكثير ، إلَّا أنه خاف على صداقته مع يوسف أن تتقطع أوصالها ؛ بسبب تعاونه مع كاترين ، والذي سيفهمه يوسف على نحو آخر بالطبع .. فاعتذر لها بعبارات مرتبكة ؛ متحججًا بحرج موقفه وتأنيب يوسف له ، عندما اصطحبها إلى ضفاف البحيرة ، يوم أن شاهدته يطارح تويا الغرام.. ذكرها سكورت بأنها لم تتمالك شعورها ، وكادت تفتك بتويا ، لولا أنه أدار السيارة ، وانصرف عائدًا مرة أخرى .

كانت كاترين تعلم أن يوسف قد غاب عن عالمها للأبد .. ولن يعود ، ولكن كبرياءها الجريح وكرامتها المبعثرة ، ما بين ليـڤربول ونيروبي ، دفعاها نحو تأجيج نار الانتقام ، فباتت تشعلها بداخلها أكثر وتزيد سعيرها ؛ حتى كادت تحترق هي من شدتها ، وفي خطوة لا تقل في جنوحها عما فعله يوسف قبلها .. قررت البقاء لمدة أخرى في نيروبي بمفردها ، بعد أن لاقت فكرتها قبولًا واستحسانًا من العجوز ، التي لا تيأس .. السيدة براون .. بعد أن ظهر نيفيل في المشهد بقوة ؛ حتى تصدره منذ بداية تعرفه عليهما في حفل العشاء ، حتى أسبوع مضى التقى بهما فيه مرات عديدة .. فكان يزحف ببطء كثعبان ، يسير وسط حشائش كثيفة نحو الفندق ، بعد أن يغادر يوسف إلى مقر الإرسالية ، ويحرص على المغادرة قبل عودته .

وفي المرة الوحيدة التي التقاه فيها بالمصادفة ، وقف يوسف أمامه في تحد ، وبنظرات يملؤها الشك في أمره .. فقابلها نيفيل ببرود شديد وصفير متقطع بشفتيه ، ثم رفع قبعته لتحيته في حركة مسرحية ، لا تخلو من الاستهزاء ، وتركه غارقًا في ظنونه .. مكتومًا بغيظه .

في يومه الأخير قبل سفره ، عقد البروفيسور راندال اجتماعًا مطولًا مع يوسف ؛ للاتفاق على خطة المرحلة المقبلة بمعاونة اثنين من علماء تطوير المصل ، بعد النتائج الإيجابية الأخيرة .

قبل أن ينصرف راندال ويودع يوسف ، طلب منه أن يتنزها قليلًا بالقرب من الإرسالية . انتهز يوسف الفرصة مفاتحًا إياه في مشكلته مع المعتقدات الغربية ، التي لدى «أداتوا» وتويا وأفراد قبيلتهم ، والتي استغلها نيفيل وإيراي ومينجو في تحقيق جرائمهم ، بعد اتخاذها ستارًا قويًّا لمداراة عمليات القتل التي يقومون بها .

لم يرد البروفيسور راندال عليه مباشرةً .. تركه يسترسل ويتحدث .. لم يكن يريد أن يطفئ جذوة حماسته .. كان يريدها مشتعلة بداخله ، فهي ضمان وجوده وبقائه واستمراره .

- اسمعني جيدًا يا يوسف .. لقد كنت في زيارة لوزارة الصحة هنا أمس ، ومنها خرجت إلى مكتب تابع لمنظمة الأمم المتحدة .. هناك حماسة غير عادية ، وتشجيع حكومي ودولي لما نقوم به من أبحاث ، وفي الوقت ذاته هناك خطر يتهددك ؛ لذا فقد وضعوا حراسة عليك .

قبل أن يقاطعه يوسف ، أشار البروفيسور له بيده لأن يتوقف ، ثم أكمل حديثه :

- لقد حكى لي سكورت كل التفاصيل .. أنا لا ألومك على مشاعرك مع تويا ، ولكنني أشفق عليك .. فهؤلاء الناس من الصعب أن نغير معتقداتهم ، ولكنهم بحاجة لمن يمد لهم يد العون .. لديهم قابلية للتطوير والتقدم ، ولكن يريدون من يقدم لهم المساعدة بيمينه ، دون أن يأخذ مقابلًا لها بيسراه .. أنت أقرب لهم من أي طبيب آخر ، على الأقل بحكم جذورك وتاريخ بلادك معهم .. لن تنجح في القضاء على الخرافات إلَّا بالعلم .. وإذا ما نجحنا في تجاربنا ، ستزيد ثقتهم بنا ، وسنمد جسورًا بيننا وبينهم لن تنقطع أبدًا ... اعمل في جد وصمت واستكمل رسالتك ، ولا تشتت جهودك بين أبحاثك ، وبين نيفيل ورجاله .. فمن مصلحتهم أن تفشل ، وبانشغالك بهم أكثر من عملك .. تحققِ لهم ما يريدون بأقصر الطرق ، وسينالون منك في أقرب فرصة .. أما تويا ، فهذا اختيارك ، حكِّم عقلك وقلبك معًا ، واعمل ما يقولانه لك بعد ذلك ، وأخيرًا استمع إلى نصائح سكورت ، ولا تحاول مغافلة حارسك كما تفعل الآن .

قالها راندال وهو يضحك .

ابتسم يوسف في خجل من تصرفاته الصبيانية مع حارسه .. مضى البروفيسور في طريقه ، بينما وقف يوسف ، وعلى وجهه ابتسامة تفاؤل ورضا .. فجأة توقف البروفيسور راندال عن السير ، والتفت إلى يوسف قائلًا :

- تذكر دائمًا يا بني ما سأقوله لك .. لا تكن أبدًا كالدجاجة ، تحدث جلبة عالية لتبيض بيضة واحدة ، بل كن كالسمكة تبيض آلاف البيض ، الذي يخرج منه الكافيار الأغلى ثمنًا ، وذلك كله في صمت تام .

* * *

17
المؤامرة

بدا مضطربًا نوعًا ما ، وهو يختبر السائل في الأنبوب ، كانت مشادته مع كاترين لا تزال عالقة في ذهنه ، تضايقه وتستفزه ، لم يستطع أن يطردها من مخيلته أبدًا لأسابيع طويلة ، رغم أنه كان منشغلًا أشد الانشغال بتجاربه المعملية ، مع الكيميائي الإنجليزي الذي دعاه البروفيسور راندال من ليڤربول ؛ لإنهاء البحث بعد النتائج الإيجابية الأخيرة ... كان بداخله أمر ما يؤكد له أنه بات على مرمى حجر من اكتشاف الدواء لهذا الداء اللعين . الجذام ، لم يكن يعرف إلى أين تذهب كاترين ، طوال فترة إقامتها في نيروبي ، بعد أن رفضت السفر مع والدته إلى ليڤربول ، طاف بمخيلته شبح نيفيل ، وظل يسأل نفسه بلا إجابة: لماذا دعاه البروفيسور جورج راندال للحفل ؟ ولماذا أطال الحديث مع كاترين ومع والدته ، والذي لم يستطع التقاط معظمه ، فقد كان حديث نيفيل هامسًا كفحيح الأفعى ... ؟ !

ربت مساعده برفق على كتفه ، فالتفت إليه في شرود ، فوجد ابتسامة خجولة ، تطل من وجه المساعد ، وهو يشير له برأسه صوب الأنبوب ، تنبه إلى أن السائل كان قد وصل لمرحلة الفوران ؛ فأعادها برفق إلى موضعها في الحامل الخشبي الداكن ، بجوار مثيلاتها ، وطلب منه أن يستكمل المتابعة .. متعللًا بأنه يشعر ببعض الإجهاد .. ثم غادر المعمل في خطى متثاقلة.

* * *

كان الظلام يلف المكان ، والسكون يضفي عليه أجواءً من الريبة والغموض ... يزيده حفيف الأشجار وصوت الرياح ، التي تهب كل فترة للحظات وحشة ورهبة .

بدا القمر خجلًا متواريًا خلف سحابة داكنة ، وكأنها تحاول حجبه عن الظهور بشتى الطرق ، ومع ذلك تسلل منه بصيص ضئيل ، لم يساعد على الرؤية ، بقدر ما زاد من رهبة المكان ، ورسم الخوف إطارًا له في تلك الأحراش ، التي تتبدل حالها في الليل عن النهار ، وكأن لها وجهًا آخر مخيفًا ، ترتديه عند غروب الشمس .. أنوار متقطعة تشق الظلام من مصابيح ست سيارات سوداء ، أشبه بموكب جنائزي ، دارت نصف دورة ؛ حتى توقفت خلف الهضبة التي يقبع البركان فوقها.

ظهر إيراي وهو ينزل من السيارة الأولى في خفة وسرعة ، ووقف يشير بيديه إلى بقية السيارات ، وكأنه يتعجلهم لتنفيذ أمر مهم .. بدأ الرجال يترجلون من السيارات الأخرى تباعًا ، ويفتحون صناديقها الخلفية ؛ ليسحبوا منها أجولة بيضاء ملطخة ببقع باهتة لدماء أطفال أبرياء ، لقوا حتفهم منذ يوم أو يزيد ، وانتزعت أعضاؤهم بوحشية ، وتُركوا أشلاءً ، تنتظر مصيرها الأخير حرقًا في فوهة بركان خامد منذ سنين ، لا يوقظه إلا جمرات شرور نيفيل ورجاله .

مات الأطفال مرتين كما كان يقول يوسف دائمًا .. فبعد رحيلهم ، لم يجدوا من يبكيهم ؛ فقد كانت قبائلهم إما فرحة برقدتهم الأخيرة في سلام لإنهاء آلامهم ، وفداءً لقبيلتهم من الأرواح الشريرة ، حسبما أوهموهم ، وإما لم يكترثوا لاختفائهم إثر اختطافهم .. فظنوا أن الحيوانات الطليقة بالأحراش قد افترستهم ، وكأنه حادث سير عادي وقع لطفل ، في شوارع دولة فقيرة .

بدأ الرجال في حمل الأكفان الصغيرة البيضاء التي تقطر رقة ، مخلوطة بدماء نقية زكية ، لم تعرف التلوث بعد ، ويصعدون بها قمة الجبل بسرعة مذهلة ، وكأنه أمر معتاد من كثرة ما اعتادوها ، بينما وقف إيراي يطلق صيحات متقطعة ، كل برهة ؛ ليحثهم على مواصلة العمل بالهمة والحماسة نفسيهما .. انخفض زجاج النافذة الخلفية للسيارة ، التي يقف إيراي بجوارها ، فظهر وجه العجوز نيفيل بعينيه الحمراوين الدامعتين قليلًا ، والتي تستند كل منهما على وسادة دهنية سميكة ، منتفخة قليلًا أسفلها جراء إفراطه في الشراب وتقدمه في العمر، بدا كشيطان يتأكد من قيام زبانيته بدورهم ، الذي رسمه لهم بكل دقة .

أشعل سيجاره الكوبي بهدوء ، ثم نظر إلى إيراي قائلًا :

- أريد أن تستمر النار مشتعلة لأطول فترة ممكنة .. أريد أن تشعر قبيلتك بأن البركان غاضب لا ..لا.. بل ثائر هذه المرة ... حتى نتمكن من الحصول على قرابين أخرى ، يقدمونها طواعية.

أومأ إيراي بالإيجاب ، بينما قسمات وجهه لا تتخلى عن صرامتها أبدًا .. ثم عاد يطلق صيحاته لرجاله ، وكأنه يؤكد لنيفيل مدى إخلاصه وتفانيه في عمله ...ابتسم نيفيل ابتسامته الشيطانية المجتزئة ، وهو يجز بأسنانه الأمامية على سيجاره ، ويشير بأصبعه لسائقه ، والذي كان يصوب بصره إليه عبر مرآة السيارة ، فأدار محركها على الفور ، وسرعان ما انطلقت ، تشق الظلام كوحش يركض في أحراش بكر ، بينما يظهر زجاج النافذة الخلفية ، وهو يُرفع لأعلى ببطء ، وإيراي يتابعها بنصف دورة من خصره حتى ابتلعها الظلام .

- إن ساقي تؤلمني من كثرة الرقود .

قالتها راني ، وهي تمسك بيدي تويا ، وتتكئ عليها لتعتدل في مرقدها بحفرة غير عميقة ، كانت تتصبب عرقًا فضغطت تويا على كفيها مرتين حتى تطمئنها .. ثم لمعت أسنانها البيضاء في الظلام ، وهي تقول :

- لا تخافي يا راني ، فإيراي لا يمكنه أن يرانا هنا ، ورجاله مشغولون بما يفعلونه ، وحتى لو حدث .. فلن يقتلنا فأنت زوجته ... وأنا ......

تمتمت راني خلفها :

- وأنت حبيبته .. لا عليك .. فأنا أعرف كل شيء وأعرف أنه تزوجني عندما رفضته .

عادت تويا تربت على رأسها برفق قائلة :

- اهدأي .. أرجوك ، هذا ليس وقت الحديث .. فإن ما رأيناه اليوم سيخلصك من إيراي للأبد .. لا تقلقي.. كانت راني لا تزال تنتفض ... خوفًا من إيراي وبطشه إذا ما علم أنها تلصصت عليه ، حتى كشفت سره ومن هول المفاجأة مما رأته ... لقد شاهدت عشرات من جثث الأطفال المرضى ، تلقى بالبركان مع جلود حيوانات وجذوع أشجار جافة .. وسرعان ما علت النيران من فوهة البركان ... بينما كانت تويا تجلس على ركبتيها ، غير عابئة بأن يراها أحد ، بعد أن هزها المشهد بعنف ، وشعرت أنها تشاهد كابوسًا ، يجري أمامها ببطء ، ولا تستطيع أن تستيقظ منه لتنفضه عن مخيلتها .

* * *

- هل تعرف أين توجد السفارة البريطانية في نيروبي ؟

نظر سكورت إلى يوسف في دهشةٍ من سؤاله ، وترك الأوراق التي كان يرتبها .. مبعثرة مرة أخرى على مكتبه ، سائلًا بدوره :

- لماذا ؟ ما الذي يدور برأسك الآن ؟

كان سكورت يسأله في ترقب ، وكأنه ينتظر منه قنبلة يلقيها ، مثلما يفعل معه كل مرة ... ولم يخب ظنه عندما دفع إليه يوسف بورقة بيضاء صغيرة ، التقطها سكورت في نهم ، وكأنها عظمة تلقى لكلب جائع ، فأطبق عليها بفكيه قبل أن تلامس الأرض .. قلب سكورت الورقة وقرأ فيها .. المستندات المطلوبة لإتمام مراسم زواج مدني ، بين مواطن إنجليزي ومواطنة كينية ، ولدت تحت الحماية البريطانية قبل عام 1964..! وقبل أن يرفع سكورت نظره عن الورقة ، كان يوسف يقول في ثقة واعتزاز :

- نعم ، لقد قررت أن أتزوجها .

عقدت المفاجأة لسان سكورت .. فجلس على أقرب مقعد ، وكأنه يتهاوى كبناء قديم ، تم تفجيره من أسفل ، فصار كومًا من تراب في لحظات ، وإن كانت هذه اللحظات تمر بطيئة كأنها تكاد تتوقف .

بعينين محملقتين ، في ذهول ، كادتا أن تخرجا من مقلتيهما ، قال :

- تتزوجها ؟ لماذا ؟ وأين ستقيم ؟ وماذا ستقول للسيدة براون ؟ وماذا أنت فاعل مع قبيلتها ؟!

امتلأت الحجرة بعلامات الاستفهام .

إلا أن يوسف أجابه بهدوء الواثق الممزوج ، بقليل من البرود الإنجليزي الموروث عن والدته ، وهو يشعل سيجارته قرب نافذة المكتب ، ويلقي منها عود الثقاب :

- لقد تكاسل المسئولون بالقنصلية المصرية .. خافوا فيما يبدو من بطش قبيلتها ؛ خصوصًا أنها ولدت تحت الحماية البريطانية ، والآن تعيش مع الكيكيويو ، ويبدو أنهم استطلعوا رأي القاهرة فجاء بالتسويف.. بينما لو كانت تويا أمريكية ، لكانوا أقاموا لنا مراسم الاحتفال على نفقتهم ، داخل مبنى السفارة ، فقررت أن ألجأ لسفارة بريطانيا ، فأنا أحمل الجنسية البريطانية عن أمي .. ومن المؤكد أنهم سيساعدونني ؛ خصوصًا أن الكنيسة لن تقبل زواجي هنا ؛ فتويا لا تدين بأي ديانة كما تعلم ... فالعقد المدني إذًا هو الحل الوحيد أمامي للاحتفاظ بتويا للأبد ، وتقديمها لمجتمعي بصورة أفضل... هذا عن سؤالك بكيف ... أما عن سؤالك بلماذا ؛ فببساطة لأنني أحبها وأعشقها عشقًا ... أشعر أنها تحمل روحي ، بل هي بالفعل تحمل روحًا بداخلها.. إنها تحمل طفلًا مني في شهره الثالث الآن .

كاد سكورت يسقط مغشيا عليه من هول المفاجأة الثانية ، فتراجع في مقعده ، واتكأ بيديه على مسندي المقعد ، وكأنه يخشى السقوط على الأرض ، رغم استقراره بالمقعد الوثير .. ثم فغر فاه أكثر وأكثر في دهشة أعظم ، وظل على حاله لوهلة ، وكأنه نسي حروف الكلام ، ولم يخرجه من تلك الحالة إلا اقتراب يوسف منه قائلًا :

- هيا لنذهب لسفارة بريطانيا ، فقد نحتاج لمعاونتك هناك .

مضى سكورت في هدوء واستسلام تام ، فبدا وكأنه شخص يسير أثناء النوم .. فقد كانت المفاجأة أكبر من أن يستوعبها عقله ، وظل يردد له بهمس ، رغم عدم وجود سائق بصحبتهما في السيارة :

- هل تعرف ما الذي يمكن أن يحدث لك ، إذا علمت قبيلتها بأنها تحمل طفلًا منك ؟!
ابتسم يوسف ، وهو يقود سيارة سكورت قائلا في ثقة :
- سيباركون زواجي منها .. إنهم ليسوا مثلنا ، وإنما على طبيعتهم لم يتلوثوا بعد ... تمامًا كالبيئة التي يعيشون فيها يا سكورت .

* * *

كانت ملامح «أداتوا» صارمة ، يكاد الغضب يشقها نصفين ، وهو يقول :
- ستكونين في حمايتي يا راني .. لا تخافي أبدًا من إيراي أو غيره .. أما تويا فعلينا أن نقنعها بالبقاء هنا في مسكني ، والتوقف عن التردد على الإرسالية الطبية ؛ لحمايتها وحماية الطبيب المصري الذي تساعده.
تكلمت راني بصوت ضعيف ، يطل الخوف من بين حروفه ، وهي تجلس أمامه متكئة على ركبتيها :
- إنها تحمل طفلًا من هذا الطبيب ، واتفقا على الزواج ، وذهبت معه الآن لإتمام زواجهما في نيروبي .
خفض أداتوا عينيه قليلًا ، وهو يتمتم بمرارة :
- كنت أتوقع ذلك وأخشى حدوثه .. منذ متى ، وهي تحمل طفلًا منه ؟
ردت راني :
- أكملت ثلاثة شهور ، منذ أن ظهرت عليها الأعراض ، وأكد لها ذلك الطبيب المصري .. لقد كنت معها في الإرسالية ، عندما تأكد من وجود طفل في أحشائها.
نظر أداتوا إلى الفراغ المحيط بكوخه عبر النافذة الواسعة ، وكأنه يستشرف المستقبل ، من خلال مساحات خضراء شاسعة بلا نهاية ، وبدا على ملامحه قليل من الأمل ، ظل يتراجع رويدًا رويدًا أمام زحف التوجس والقلق ، وهو يتمتم بالصوت الخفيض ذاته :
- لقد دبت الروح إذًا في هذا الطفل .. لابد وأن يخرج للحياة .. من يدري ربما يولد الأمل من رحم الألم .

* * *

جلس يوسف وتويا أمام رود فيليب ماك ، سكرتير ثان السفارة البريطانية بنيروبي ، بينما ظل سكورت واقفًا لا يقوى على الجلوس ، يستند بإحدى كتفيه إلى النافذة الطويلة .. فسقف الغرفة يرتفع لنحو خمسة أمتار ونصف المتر ، في بناية قديمة ذات لون رمادي ، أشبه بضباب لندن في قلب العاصمة الكينية ... ظل سكورت يجول ببصره بين تويا ويوسف ، وهما يتبادلان حديثًا وديًّا مع رود فيليب ، الذي رحَّب كثيرًا بهما ، وتذكر بعضًا من ذكرياته على السفينة مع يوسف ، الذي بادله الحديث في ود ؛ حتى يضفي شعورًا بالألفة لدى تويا ، التي رغم ترددها - لسنوات طويلة - على مقر الإرسالية الطبية ، القريبة نوعًا ما من الفندق .. فإنها لا تزال تخشى المدينة ، وكانت تلك هي المرة الأولى ، التي تطأ قدماها شوارع العاصمة ، بل وتتوغل فيها إلى هذا الحد .

بدأ رود فيليب ماك يعد الأوراق ويرتبها بعد مراجعتها ؛ تمهيدًا للتصديق عليها .. بينما استرخى يوسف في جلسته قليلًا ، بعد حديثه مع سكرتير السفارة الشاب ، وكانت قسمات وجه يوسف تحمل كثيرًا من الارتياح والتفاؤل والأمل .. قبض بيده اليسرى على كف تويا في حنان بالغ ، بينما كانت هي خجلة نوعًا ما ، تحاول إخفاء اضطرابها بالضغط على كف يده بأناملها الرقيقة ، وكأنها تتشبث به أكثر ، ولسان حالها يكاد ينطق :

- لا تتركني أبدًا ، فأنا أحبك ، وأحتاجك أكثر من أي شيء آخر في هذا العالم ، وأكثر من أي وقت مضى .

بدا يوسف ، وكأنه ألتقط خيط مشاعرها .. فاحتضنها بعينيه ، ووضع يده الأخرى على ظهر كفها ، فاحتوى أحاسيسها أكثر .. فأشرقت عيناها مع ابتسامتها الساحرة ، وتهلل وجهها بإشراقة أمل وحب لا حدود لهما ... بينما كان سكورت يراقب المشهد وعيناه تبرقان بدمعة حائرة ، بين الانهمار انفعالًا والاحتباس خجلًا ؛ لكي لا يفسد ودهما المتصل ... وتاهت أحاسيسه بين خوفه على صديقه ، وفرحته لفرحه .. فلم يعرف كيف يعبر عما يجول بداخله ، حتى هداه تفكيره إلى إقحام رود ماك في المشهد ، فاقترب منه ، حتى يلفت نظره ويبدأ حديثًا معه بصوت عالٍ .. إلَّا أن الأخير فاجأه قائلا :

- أرجوك يا سيد سكورت أن توقع على تلك الأوراق .. تهانينا يا دكتور يوسف وللجميلة تويا .. لقد أصبحتما الآن زوجين رسميًّا .

* * *

طرقتان خفيفتان ، ثم دلف رجل ضخم الجثة ، بصورة مبالغ فيها ، إلى حجرة المكتب الواسعة ، ذات الطراز الكلاسيكي العتيق ... اقترب بهدوء من الناحية اليسرى للجالس إلى المكتب ، ثم مال بجزعه قليلا قائلًا بصوت هامس :

- لقد وصلت يا سيدي ، وتنتظر بالخارج منذ خمس عشرة دقيقة حسبما أمرت .

أومأ نيفيل برأسه بإشارة تعني قبوله لقاءها الآن ... فاستأذن الرجل الذي كان يجلس أمامه ، وبدأ يلملم عينات الماس ، التي عُثر عليها بأحد المناجم القريبة من جبل البركان ، ويسيطر عليها نيفيل ورجاله بصورة شبه كاملة ، بعيدًا عن أي تدخل حكومي رسمي ... أشار نيفيل للرجل بأطراف أصابعه ، بما يفيد موافقته على انصرافه ، دون أن تنفرج ملامحه الصارمة ... إلا أنه أردف بصوت حاد ، والرجل لا يزال في منتصف الغرفة الفسيحة:

- انتظرني في الصالون ربما أتذكر أمرًا آخر .

انحنى الرجل مرتين في أدب جم ، ثم غادر في هدوء وسرعة .

بدت كاترين كزهرة ذابلة حزينة ، بدأت أوراقها في الانحناء تمهيدًا للانكماش ثم الانقباض ، بعد أن جف رحيقها... دلفت إلى المكتب في خطى مترددة .. تفحصها نيفيل بعين باردة ، واكتفى بالاعتدال في جلسته مشيرًا لها بالجلوس إلى يمين المكتب ، وبدا أنه يتعمد عدم الترحيب بها لكي يزيد من رهبة لقائها به.

لم يطل تردد كاترين ، فأشعلت سيجارة لتعاونها على تخطي حاجز الدخول المباشر في موضوعها ؛ خصوصًا أن نظرات نيفيل الحادة وقسمات وجهه المتجهمة تزيد من سمك هذا

الحاجز الوهمي ، وقالت وهي تنفث دخانها بعصبية ظاهرة :

- أريدك أن تساعدني ... لقد أخبرتني السيدة براون بأنها قد قصت عليك تفاصيل علاقتي بيوسف ، ولقد علمت من رود ماك سكرتير ثان سفارتنا هنا أن يوسف تزوج تويا بعقد مدني منذ أيام ... وأنا أعلم مدى نفوذك هنا ، وأنك الوحيد الذي يمكنه إنهاء هذا الأمر ، وأنا على استعداد لأن أفعل أي شيء لكي يعود يوسف لي مرة أخرى.

بالابتسامة ذاتها التي لا تكتمل أبدًا ، باغتها نيفيل بالسؤال :

- هل تحبينه إلى هذه الدرجة ؟!

أجابته كاترين دون تفكير ، وفي حدة :

- لا أعرف .. ولكنه أهانني ، وأريد أن أستعيد كرامتي دون أن أؤذيه ... أريده أن يعود ..أن يكون كما كان من قبل ، حتى ولو لم أتزوجه ... فقط لا أريده أن يرتبط بتويا ويتزوجها ويعيش هنا ... أريده تحت بصري دائمًا ... تحت سيطرتي .. يسبح في مجالي أنا فقط ، ولا يخرج عنه أبدًا... هل تفهمني ؟!

أطفأ نيفيل سيجاره ببطء وتمهل ، وكأنه يغمس ريشته في ألوانه ؛ ليرسم خيوط مؤامرة جديدة :

- نعم أفهمك .. بل إن شئت الدقة أتفهم دوافعك... أنت تشعرين بأنه ملكك ... بدأ بك .. ولابد أن ينتهي عندك... هذا النوع من الدوافع ... أقصد المشاعر أتفهمه جيدًا ، بل وأقدره وأعمل على ترسيخه ، دائمًا مع من يعملون لدي ... فمن كانت مصالحي معه لا أتركه أبدًا يفكر ، مجرد التفكير ، في شريك آخر ؛ حتى ولو ابتعد عني... فمن ليس معي فهو ضدي ... أليس كذلك يا فتاتي الجميلة ؟

لمعت أسنانه الصفراء مع نصف الابتسامة ، التي طلت في خبث شديد من جانبي شفتيه... فأومأت كاترين برأسها بالإيجاب تصديقًا على تحليله ، الذي أصاب كبد الحقيقة بداخلها ... كان وجهها جامد الملامح شاحبًا .. تحب يوسف بعقلها ، لا بقلبها .. لم تتعمد ذلك ، ولكنها لم تكن ترتاح إلى المشاعر الفياضة أبدًا في حياتها ... دائما كانت عملية ، تبحث عما يناسبها ، ويحقق طموحاتها وأطماعها أحيانًا .. وكان يوسف هو الرجل المناسب تمامًا لذلك ، فلم تشعر أبدًا بعناء في ترويضه رغم تمرده ، أو هكذا كانت تظن .. فقد كان مقبلًا عليها بما يرضي غرورها ، ولم تكن تريد منه أكثر من ذلك.. والآن يبتعد عنها ، ويقترب من الرسو على شاطئ آخر بعيد عنها تمامًا ... وستضرب جذوره فيه ، ومع الوقت سيكون من الصعب اقتلاعه منه .

كان نيفيل قد اقترب منها بهدوء ، وهو يردد تلك العبارة الأخيرة ، وكأنه يقرأ أفكارها من كتاب مفتوح أمامه .. فرجفت قليلا من المباغتة .. وحين انحنى بجذعه للأمام كزاوية تسعين درجة ، صار وجهه في مواجهتها تمامًا ، فشعرت بأنفاسه المعبأة بدخان سيجاره في أنفها ، فامتعضت قليلًا ، وعندما تلاقت نظراتهما كست الرهبة وجدانها ، حتى انكسر جفناها قليلا خضوعًا لنظراته الحادة ، وانتبهت أذناها ، وهو يردد على مسامعها:

- مصالحنا مشتركة ، فاعتبري هذا الموضوع قد انتهى ، وارجعي إلى بلدك وطمئني السيدة براون ، فلن تمضي أسابيع قليلة حتى يعود إليك هذا الطبيب المندفع، أما اذا استمر زواجه منها فترة طويلة ، سيكون الجهد المبذول لتفريقهما أكبر بكثير ؛ لأن جذورهما ستكبر ، وستضرب في

الأرض بثقة مع الزمن ... فما نستطيع أن نفعله الآن بيسر وسهولة ، لا ينبغي أن نؤجله للغد أبدًا .

* * *

18
الكوخ

توقفت تويا فجأة ثم قفزت بخفة ، حتى صارت في مواجهة يوسف تمامًا ، وأخرجت من حقيبتها القشية الملونة قطعة من القماش خضراء ، فاقع لونها ، ثم بدأت تطويها ، وهي تنظر ليوسف مبتسمة في خبث .. فتراجع خطوتين للوراء ، عندما همت بالاقتراب منه ، وهو يقول ضاحكًا :

- ماذا تفعلين أيتها المجنونة السمراء الجميلة؟!

وضعت أصبعها على شفتيه لكي يصمت ، فباغتها بقبلة حانية لثمت اثنين من أناملها ، فابتسمت في خجل قائلة :

- توقف واترك نفسك لي اليوم تمامًا ... أنا أعددت لك مفاجأة ، وأريدك أن تراها فجأة أمامك .

أغمض عينيه مبتسمًا في استسلام ، وكأنه طفل يستجيب لأمه .. بينما راحت هي تعصب عينيه بإحكام بقماشتها الخضراء ؛ حتى اطمأنت تمامًا من أنه لا يرى شيئًا ، ثم طلبت منه أن يعدها بألا يحاول رفع العصابة من عينيه ، حتى تسمح له بذلك ، فوافق قائلًا :

- ألا تثقين بي أبدًا !!

ردت وهي تجذبه من يده ، بعد أن وضعت آلته السينمائية في حقيبتها الواسعة :

- نعم .. في هذه الأمور لا أثق بك أبدًا ، فأنت دائمًا تتحايل على قيودك ... هل نسيت ما تفعله في حارسك ريجي ؟!

سار بجوارها ، وهي تمسك بيده كي تدله على الطريق ، وتعالت ضحكاتهما على ما يفعله في حارسه الإفريقي الضخم ، الذي باتت مهمته الأولى أن يتفادى مقالب يوسف ، لا أن يحميه .

توقفا مرتين ، اختلس في كل مرة من شفتيها قبلة طويلة .. كان يحبها بجنون ، ويشعر بافتقادها ، طالما هي بعيدة عن ذراعيه ... انسحبت تويا برفق منهما أثناء القبلة الثانية قائلة :

- هيا سنتأخر هكذا.. أريدك أن ترى المفاجاة في ضوء الشمس ... لا تعطلنا كالأطفال كل برهة ..

واصلا السير ضاحكين مسرعين ؛ حتى وصلا إلى مكان لقائهما الأول ، والمعتاد على ضفاف البحيرة ، والذي شهد لحظات غرامهما الأولى ، ثم تطورت مراحله على مدار شهور طويلة ... حتى اكتمل إلَّا قليلا..!!

وقفت خلفه وبدأت تُعمل أناملها الرقيقة في العصابة حتى فكتها ، فتركتها تنساب على كتفيه بهدوء .. ظل يوسف ساكنا تمامًا ، ثم بدأ يفتح عينيه ببطء ، ثم سرعان ما غزت الابتسامة وجهه ، وتسارعت نبضات قلبه ، وظلت ابتسامته تتسع ، وعيناه تلمعان .. كان لا يصدق مايراه أمامه .. كوخ صغير لم يكتمل بناؤه بعد ، ومع ذلك يبدو رائعًا ... رقيقًا ... رومانسيًّا يطل على البحيرة مباشرة... يستقر في ثقة على ربوة متوسطة الارتفاع ، وتحيط به شجرتان كبيرتان ، وكأنهما تحتضنانه برفق كوليد حتى يكبر... غمرته الفرحة تمامًا .. التفت إليها ، وهو يصيح باسمها ، معلنًا عن حبه لها ؛ فدوى صوته في أرجاء الغابة ... احتضنها بقوة وضمها إلى صدره ، كانت تويا

فرحة كالأطفال ، وإن بدت عيناها دامعتين لامعتين ، تترقرق في كل منهما دمعة حائرة بين السكون والانسياب من وطأة الانفعال... همست له وهي تلامس خديه بكفيها :

- كنت أخشى ألَّا يعجبك .

أجابها بقبلة طويلة ، ثم همس :

- أنا لا يعجبني في هذا الكون سوى أنت .

ثم حملها بين ذراعيه ، وهي تهز ساقيها في جزل كطفلة ، وظل يعدو بها حتى دلف بها إلى الكوخ .. توقف في منتصفه تمامًا ، ثم اتكأ على ركبتيه ، وأنزلها برفق ، وكأنها تنساب منه كينبوع ماء عذب من وسط الصخور .. استقرت على العشب الأخضر الندي ، وهي تثبت نظرها إلى عينيه ، وكأن بينهما خيطًا لا ينقطع .. مال يوسف بجزعه حتى صار نصف جسده العلوي ، في مواجهة صدرها تمامًا ، بينما ظلت هي مستلقية في دلال ، تبتسم له ابتسامة أنثى ، تنتظر أن يقتحم رجلها عالمها الخاص ... أعادت ذراعاها خلف رأسها قليلًا ، وبسطت كفيها فاقترب منها أكثر .. وتطابقت كفاهما وشفتاهما في آن واحد ، حتى ذابا معًا في قبلة رائعة ، وتلامسا ثم تشبثا ببعضهما البعض ، كأنما كانا ينتظران هذه اللحظة طوال حياتهما ، وكأن العالم قد توقف تمامًا ، ولم يسمعا إلا دقات قلبيهما ، وقد تحولت من ضربات منتظمة إلى نداء خافت ، يكسر الصمت ويعزف أنغام العشق والهوى ، وهمس يوسف في أذنها :

- أحبك .

ثم ضمها أكثر ، فصار كل منهما من شدة اشتياقه للآخر ، يناديه بجسده وحواسه ، صارخًا بصوت مكتوم :

- لن أبتعد عنك أبدًا .

* * *

ارتكن يوسف بظهره على جذع الشجرة العجوز.. كان نصفه العلوي عاريًا تمامًا ، فرد ساقيه أمامه كخطين مستقيمين .. وبدأ في تجهيز آلته السينمائية ، ومضى يسجل لقطات للكوخ ، الذي لم يكتمل بعد من كل الزوايا .. كانت له ثلاثة أضلع فقط من جذوع أشجار وألواح خشبية قديمة ، فلم تكمل تويا بناءه بعد .. لفت انتباهه صوتها ، وهي تسبح بالبحيرة ، محدثة ضجة فانتظر برهة ؛ حتى بدأت تستعد للخروج ، ثم وجه عدسته صوبها فجأة .. عادت تجري إلى الماء مرة أخرى ، وهي تضحك حتى ألقت بجسدها العاري فيه .. كانت لا تحب أن يصورها بهذه الآلة الغريبة عليها.. ظلت بالماء تبتسم ، وهي تتذكر ذلك اليوم ، الذي التقته فيه .. وكان يصورها من الضفة الأخرى للبحيرة .. اقترب يوسف منها ، وهو يصوب الكاميرا عليها .. ظلت تهدده بنثر المياه صوبه ليبتعد وهي تضحك ، وتتمتم بعبارات غير مفهومة بلغتها المحلية ، والتي فشل تمامًا في أن يتعلمها .. تراجع في قفزتين للخلف ، ووضع الكاميرا على العشب بعناية ، ثم تجرد من ملابسه تمامًا ، وقفز إليها .. وما هي إلا لحظات حتى كانا يبدوان من بعيد كشخص واحد ، أشبه بكائن خرافي ذي رأسين من شدة التصاقهما.. بدت صفحة البحيرة رائقة تمامًا ، وهما يتوسطانها ، وغلف الهدوء المكان إلا من زقزقة طيور برية متقطعة ، وكأنها تعزف لحنًا شجيًّا من ناي صغير

، ثم انكسرت أشعة الشمس قليلًا ، وكأنها تتوارى خجلًا منهما.. بينما تفتحت الزهور الملونة أكثر لتبعث شذاها إليهما ، فبدت الطبيعة كلها وقد توحدت لتشاركهما الغرام .

* * *

- إذًا أنا في انتظارك صباح الغد .. لا تتأخري عن العاشرة أرجوك .

وضعت السيدة براون سماعة الهاتف ، وهي تزفر في ضيق ؛ فلم تعجبها نبرة كاترين في الحديث .. نبرة حزينة ممزوجة بألم ، ولكن بها كثيرًا من التشفي في الوقت ذاته .. خشيت السيدة براون أن يصاب يوسف بمكروه ، من جراء اتفاق كاترين ونيفيل .. لامت نفسها على أنها اقترحت عليها الاستعانة بنيفيل ؛ للخلاص من عشق يوسف لتويا ، وإصراره على البقاء في نيروبي .. فقد كانت ترى أنه كمن أدمن المخدر ، ولابد من جذبه بعيدًا عنه بطريقة قسرية ؛ حتى يسترد وعيه .

كانت السيدة براون قد تعرفت على نيفيل أثناء إقامتها في نيروبي ، وشعرت بأنه رجل قوي ، له نفوذ واتصالات واسعة بالدوائر الحكومية ؛ فضلًا عن عمله مع القبائل الإفريقية ، فقررت أن يكون هو وسيلتها في تحقيق غايتها .. لم تنم تلك الليلة جيدًا .. استيقظت مبكرة صباح اليوم التالي ، قبل موعد لقائها مع كاترين بساعات طويلة .. أمضت بعضًا منها في تنسيق زهور حديقتها لقتل الوقت .. ولكن تمكن منها القلق ؛ حتى سيطر عليها تمامًا ، فبدت مضطربة .. رائحة .. غادية بين المنزل والحديقة في أشواط متتابعة ؛ حتى أُنهكت تمامًا ، وخارت قواها النفسية فارتمت على أقرب أريكة ، وأراحت ظهرها قليلًا إلى الوراء ، وكأنها تستريح من عناء أيام طويلة من الشقاء.

لم تمض دقائق حتى حضرت كاترين .. فوجئت بها تقف أمامها بابتسامتها الصفراء الباهتة.. تبادلا التحية والعناق في برود ، ثم أجلستها السيدة براون في مواجهتها تمامًا ، فبدت كمحقق يستعد لاستجواب متهم في حدث جلل.. أشعلت كاترين سيجارة رفيعة ، ثم نفثت دخانها لأعلى في ضيق ؛ حتى عبّأت الحجرة بسحابة كثيفة ، ثم قالت في غرور :

- لقد وعدني نيفيل بإنهاء الأمر خلال أسابيع ، ولم يحدد لي ماذا سيفعل تحديدًا .. ولكنه أكد لي أن يوسف سيعود .. ولن يبقى مع هذه السمراء طويلًا .

بادرتها السيدة براون قائلة :

- إني أخشى أن يتعرض يوسف لضرر أو يقاوم أو ...

قاطعتها كاترين بسرعة قائلة :

- لا .. لا تقلقي .. فمصالحنا مشتركة أنا ونيفيل ، وهو لن يضر يوسف على الإطلاق بالعكس .. فمن مصلحته أن يرحل يوسف في هدوء.. وهو باتصالاته يستطيع أن يفعل ذلك ، ولقد قبض ثمن هذه المهمة .. والمال يفعل المستحيل... عمومًا .. هذا ليس الأمر المهم ، الذي يستحق القلق .. هناك ما هو أهم .

نظرت إليها السيدة براون في دهشة ، بعد أن زال قلقها على يوسف ، إلا أنه عاد يطل من جديد ، إثر هذه الاجابة من كاترين :

- وما هو الأمر الأهم إذًا ؟

بدت كاترين شاردة ، وكأنها تنظر إلى لا شيء ، وهي ترد :

- الأهم هو كيف ستكون حال يوسف معنا بعد عودته من هنا ؟!

كان السؤال منطقيًّا .. ولكن الإجابة عنه بدت شبه مستحيلة مع شخص ، بات من الصعوبة بمكان توقع رد فعله ، بعد أن تبدلت حاله .. فلزمت السيدة براون الصمت ، ولاذت به تمامًا.

* * *

- لماذا تصمت هكذا ؟!

قالتها تويا باندهاش ، ثم أردفت :

- لقد تصورت أنني عندما أروي لك ما فعله إيراي .. سوف تكون سعيدًا بأنني الآن أصدق كل حرف قلته لي عنه من قبل .

ابتسم يوسف في حنان ، وهو يربت على رأسها قائلًا :

- أنا سعيد بالفعل لذلك ؛ ولكنني خائف عليك .. لن يتركك نيفيل وإيراي بعد ما كشفت سرهما .

تويا ، وقد بدت صاحبة منطق وحجة :

- لم يعرفا أنني رأيتهما .. ولم يشاهدنا أحد من رجاله .

أفلتت من يوسف ابتسامة استنكار ، وهو يستعد للنهوض ، ويرتدي قميصه قائلًا :

- أنتِ واهمة .. لابد أن راني ستخبر «أداتوا» إن لم تكن قد أخبرته بالفعل ، وما هي إلَّا أيام حتى ينتشر الخبر ؛ فهو لن يسكت على هذه الجريمة البشعة أبدًا .. لا تنسي أن «راني» تكره إيراي ، وسوف تتعامل معه بجفاء أكثر ، بعد ما كشفت وحشيته .. وبالطبع سيلاحظ تغيرها وسيسألها ويجعلها تتكلم .

قالت تويا وهي تلملم حاجياتهما :

- ولكنها تخاف منه أيضًا .

ثم هزت رأسها ، وهي تتمتم :

- لا .. لا .. أظن ذلك .

قالت جملتها الأخيرة ، وهي شاردة ، وكأنها غير واثقة مما تقول !!

احتضنها يوسف ، وهما يسيران في طريق العودة وطبع قبلة على رأسها قائلًا :

- لدي أمل كبير في الوصول إلى نتيجة إيجابية بشأن المصل بعد أسابيع .. وقد أغيب وقتها عنك شهورًا في إنجلترا لهذا الغرض ؛ حتى نجري التجارب النهائية في المعامل هناك .. فهي أكثر تطورًا ، ولا تنسي اتفاقنا بأن تذهبي إلى مقر الإرسالية صباح كل سبت ؛ حتى أستطيع الاطمئنان عليك من مساعدي .. فأنا لا أعرف موعدًا لعودتي حتى الآن .

لفت ذراعيها حول خصره ، ومسحت رأسها في صدره ، واكتفت بكلمة واحدة فقط :

- سأفتقدك .

عاد يوسف يسترسل :

- أعتقد أننا سننجح في علاج هذا المرض اللعين قريبًا ، ووقتها سنكشف جرائم نيفيل وإيراي ومن وراءهما ، وسيكون مصيرهم السجن .. فلن تكون لهم حجة في عدم شفاء الأطفال والمرضى البؤساء ، الذين يقتلون ويلقون بالبركان ، بعد أن تُنتزع أعضاؤهم عنوة .

قاطعته تويا :

- لقد كان مشهدًا مخيفًا .. عشرات الجثث من الأطفال والشباب ، تلقى كجذوع أشجار في فوهة البركان ؛ لتزيده اشتعالًا .

قالتها وانكمشت قليلًا إلى صدره .. ضمها بحنان ، فدفنت رأسها بين ضلوعه ، وكأنها تحتمي به كطفلة خائفة التصقت بأبيها ؛ كي تختبئ بين ذراعيه .

* * *

أشار إيراي إلى أحد رجاله ، فبدأ الرجل في إنزال جسد راني المعلقة من قدميها ، مشدودة إلى رافعة صدئة قديمة ، داخل كوخ فسيح بالقرب من الجبل .. أدار الرجل الأسود البدين الرافعة إلى الأمام فأصدرت صريرًا مزعجًا ، بدأ على إثره جسد راني الضئيل العاري تمامًا يدنو لأسفل، وهي تصرخ فزعًا وألمًا عند اقتراب رأسها من كومة حطب مشتعلة.. لفحت السخونة وجهها وذراعيها ، وهي تحاول إخفاء وجهها ، وإنقاذ شعرها من ألسنة اللهب المستعرة .. أشار إيراي بيده للرجل البدين فتوقف .. اقترب إيراي منها ، والشرر الذي يتطاير من عينيه ، يكاد ينافس ما ينطلق من الحطب في شدته قائلًا :

- لن تقنعيني أنك فعلت ذلك بمفردك .. أجيبي ، وإلَّا سأحرقك ، وألقي بك في البركان .. من كان معك ؟ الطبيب المصري يوسف .. أليس كذلك ؟

أصدرت راني صرخات مكتومة ممزوجة بالدموع ، ولم تجب فأشار إيراي للرجل البدين ، الذي ابتسم في شراسة لمحتها راني جيِّدًا في عينيه ، وهو يتأهب لإدارة الرافعة مرة أخرى .

فصرخت والنيران تكاد تمسها :

- تويا .. تويا .

كررها إيراي خلفها كصدى صوت ، وهو غير مصدق ، وسرعان ما تبدلت ملامحه .. وكأن الشر قد غادرها منذ زمن بعيد ، وغرق في ذهول .. خرج من الكوخ منكس الرأس ، بعد أن أمر الرجل البدين بإنزال راني من الرافعة .

* * *

19
الأمل

علا رنين الهاتف في حجرة يوسف للمرة الثالثة ... خرج مهرولًا ممسكًا بمنشفة ، تشبه جلود الزرافات في ألوانها.. التقط سماعة الهاتف ، وقبل أن ينطق .. كان صوت سكورت يخترق مسامعه في فرحة :

- لقد نجحتم .. البروفيسور راندال أرسل تيليكس الآن ... جميع التجارب إيجابية على المصل بالنسبة للآدميين .

اعترت يوسف مشاعر متباينة منذ اللحظة ، التي سمع فيها هذا الخبر ، حتى وصوله إلى مكتب سكورت.... خليط من الفرحة والزهو والنشوة والاضطراب .. حلم طاف بخياله بعد قدومه إلى هنا بفترة ؛ حتى تمكن منه ، وها هو الآن يكاد يقبض عليه بكلتا يديه بعد أن صار واقعًا ... شعور لا يضاهيه شعور آخر .. إنه الإحساس باكتشاف الذات ، والنجاح في تحقيق هدف إنساني ، سيعود بالفائدة على المئات ، بل الآلاف من المرضى وعائلاتهم ... لديه الآن ما يفتخر به ، وما سيحكيه لطفله المقبل ... لديه ما يخلد اسمه للأبد .. لقد فعلها ، ولسوف ترويها الأجيال من بعده .

أكمل إغلاق أزرار قميصه ، وهو يهرول .. وقفز درجات السلم قفزًا مصطدمًا في طريقه ببعض النزلاء ... أمسك بالبرقية التي أرسلها البروفيسور راندال ، وقرأها ثلاث مرات ، ثم احتضن سكورت ، وهما يقفزان كالقرود جنبًا إلى جنب ؛ فبدوا وكأنهما يؤديان رقصة إفريقية ، لو كان لها اسم فبالتأكيد سيكون « المس حلمك بيديك» .

* * *

مضت أسابيع طويلة ، حتى قاربت الشهور الأربعة على الاكتمال ، منذ أن عاد يوسف إلى ليڤربول ؛ لمتابعة نتائج المصل وتطبيقاته ، والإعلان عن نتيجة البحث العلمي عالميًّا .. كانت تويا خلالها تقيم بكوخ «أداتوا» بعد أن أخبرتها راني بما حدث مع إيراي ؛ فتجنبت الذهاب إلى البحيرة ، فلم يكتمل بناء الكوخ ، الذي حلمت أن يراه يوسف مكتملًا عند عودته ، حتى يبيتا فيه كلما ذهبا إلى ضفاف البحيرة ، وكان ذلك أمرًا يقض مضجعها يوميًّا ، ولا تمل من تكرار الحديث فيه مع راني كل ليلة .. أما إيراي ، فقد بدا وكأنه لا يخطط لأمر ما .. كان يغيب لأيام طويلة عن القبيلة ، ثم يعود ليقضي ليلة أو اثنتين لا يتحدث فيهما مع راني فيما حدث ، وكأنه أمر لم يحدث .. حتى البركان هدأ ، وكأن نيفيل ورجاله قد توقفوا فجأة عن شرورهم .. بدا المشهد هادئًا في تلك الأحراش غرب نيروبي ... ولكنه كان الهدوء الذي يسبق العاصفة .

* * *

فتح الحافظة الجلدية البنية الداكنة بهدوء ، وتلمس أوراقها ، ثم قال :

« اليوم أيها السادة والسيدات .. نحتفل بنجاحين باهرين ، لا أكاد أصدق أنني كنت سأرى حتى واحدًا منهما في حياتي .. نجاح الطبيب المصري الأصل البريطاني الجنسية.. الرجل العظيم الدكتور يوسف نجيب في اكتشاف هذا المصل المذهل ؛ لعلاج مرض الجذام في طوره الأول ..

وهو سبق علمي وكشف غير مسبوق في تاريخ الإنسانية .. والنجاح الثاني ، هو اكتشاف هذا الطبيب لذاته ولقدراته ، بعد سنوات طويلة من الاغتراب وفقدان الهوية .. إنني اليوم لا أستطيع أن أصف لكم مشاعري .. فمهما قلت ، فإن ما تحقق يفوق قدراتي... ثم أردف بل قدرات شكسبير ذاته .. لو كان قدر له أن يعيش ، ويكون بيننا اليوم» .. علت ضحكات غير منتظمة إثر عبارته الأخيرة ... ثم ضجت القاعة بالتصفيق في حماسة ، بعد أن اختتم الكلمة بشكر الحاضرين ، بمقر منظمة الصحة العالمية بمدينة جنيف بسويسرا .. انتحى البروفيسور راندال جانبًا ، وابتعد قليلًا عن المنصة الخشبية ، التي كان يلقي كلمته من خلفها ؛ لكي يحيي الحضور بانحناءة بسيطة من جذعه الضخم ، ويضم كفيه إلى صدره في تواضع العلماء ، وتوردت وجنتيه خجلًا من شدة التصفيق واستمراره لدقائق ، ثم اعتدل في وقفته ، وبسط ذراعه اليمنى عن آخرها .. فاتجهت أبصار الحاضرين إلى حيث أشار .

كان يوسف نجيب يرتقي درجتي السلم الصغير في رشاقة ؛ ليقف بجوار البروفيسور ، ثم عانقه بحرارة ووقف بعدها يتطلع إلى مئات الحضور ، الذين وقف غالبيتهم ، وهم يصفقون له في حرارة أكثر ، حتى كادت أيديهم تلتهب من شدة التصفيق .. كانت الابتسامة لا تفارق وجهه ، ويبدو كنجوم السينما في حفلات جوائز الأوسكار الشهيرة ، يرتدي ملابس سهرة كاملة وابتسامته الواسعة ، تزيد وجهه إشراقًا ، وتسيطر على وجنتيه تمامًا فتظهر جاذبيته أكثر.. تلقى التحية واقفًا في شموخ وزهو ، ملوحًا بيده في انتصار .. طلب منه راندال إلقاء كلمة ، فارتجل عبارات قليلة عن مشواره ونجاحه ، ودور البروفيسور في حياته .. ولم ينس والده .. ثم صمت لوهلة ؛ حتى يجذب انتباه الحاضرين أكثر ، ويشدهم نحو ما سيقول ، فكانوا كمن على رأسه الطير .. لمعت عيناه بشدة ، عندما قفزت صورتها لمخيلته ، ثم قال بصوت لا يخلو من شجن :

- نحن مدينون لها بالفضل ، فيما وصلنا إليه اليوم ، ولولاها ما كنت هنا الآن بينكم .. فشكرًا لها .

لم يكمل كلمته ، فقد خاف أن تغلبه دموعه ، وتنهمر أمام الحضور ؛ فشكر الجميع وتهيأ للانصراف ، وسط تصفيق حاد .. عند خروجه في صحبة البروفيسور من مقر المنظمة العالمية للصحة بالمدينة السويسرية الجميلة .. استوقفه بعض الصحفيين والمراسلين وعدسات الكاميرات ، تدور حولهما ، وسأله أحدهم بصوت عال :

- من هي صاحبة الفضل يا دكتور نجيب ؟

أجابه يوسف بعد شرود للحظات بكلمة واحدة :

- إفريقيا !

* * *

- هل تشبهني أم تشبه أباها ؟

قالتها تويا وهي تبتسم في حنان ، وتحتضن طفلتها الصغيرة ، التي وضعتها منذ أسابيع قليلة بكوخ «أداتوا» ؛ حيث تقيم منذ غادر يوسف إلى إنجلترا .

أجابتها راني ، وهي تجلس القرفصاء بجوارها ، وتتفحص وجه الطفلة بتمعن ، وكأنها تراها لأول مرة :

- لا أعرف .. شكلها يبدو أقرب إليك ، ولكن بشرتها أقرب إلى أبيها منك ... لا.. لا .. أعتقد أنها تشبه أباها من هذه الزاوية أكثر .

قالتها راني ، وهي تميل بجذعها قليلًا إلى الأمام وتقترب من الطفلة أكثر ، التي أزعجها اقتراب راني منها فبكت .. سرعان ما هدهدتها تويا برفق ، وهي تمتم لها بأغانٍ ساحلية بصوت خفيض ، وهي تبتسم ، فارتاحت قسمات وجه الصغيرة قليلًا ؛ حتى هدأت تمامًا ، ثم أسلمت تويا ثديها لها ، فالتقمته في نهم :

- كانت جائعة تلك المسكينة .

قالتها راني وهي تهب واقفة .

- راني .. أنا أشعر أنني أفضل حالًا : هل تساعديني في تلبية رغبة لديّ ؟

أومأت راني بالإيجاب على الفور .

- إنني أريد الذهاب إلى ضفاف البحيرة حيث الكوخ .. أريد أن أستكمله .. أحد حراس «أداتوا» أتى لي بكثير من جذوع الأشجار الجافة والقش ، وسوف يساعدنا في إتمامه .. أريد أن يكون جاهزًا عندما يحضر يوسف .

اتسعت حدقتا راني قليلًا ، وهي تقول :

- أليس من الأفضل تأجيل هذا الأمر .. إيراي ورجاله قد يفتكون بك .. إنهم يعلمون أنك تقيمين هنا ، ولابد أنهم يراقبون المكان ، وإذا ما شعروا أنك بعيدة عن حماية «أداتوا» ، سيكون من السهل أن ...

سكتت راني ، ولم تستطع أن تكمل حديثها ؛ فقد كانت تخشى أن يصيب تويا أي مكروه ، ولا تريد حتى أن تفترض أمرًا سيئًا ..

- لا تخشي شيئًا .. لقد هدأ الأمر كثيرًا ، وهم منشغلون بأمور أخرى ، حسبما علمت من «أداتوا» أن نيفيل يركز نشاطه على مناجم الماس أكثر من تجارة الأعضاء البشرية ، بعد أن ضيقت الشرطة عليهم كثيرًا ، ولو لاحظت فالبركان خامد تمامًا منذ أن رحل يوسف تقريبًا .. صدقيني لم يعد الموضوع يعنيهم كثيرًا .

- لا بأس إذا كان الحارس سيأتي معنا .. ولكن .. هل ستتركين الصغيرة دون اسم هكذا ؟

- لن يسميها أحد إلَّا يوسف .. اعتبري هذا الموضوع وصيتي لك ، إذا ما حدث لي مكروه قبل قدومه .

انزعجت راني قليلًا من جملتها الأخيرة .. إلَّا أنها سرعان ما غيرت دفة الحديث بملاطفة الطفلة الصغيرة ، التي توقفت عن الرضاعة ، وظلت تجول ببصرها بين تويا وراني ، وكأنها تتعجب من حديثهما.. فضحكتا من ملامح الدهشة والحيرة التي بدت عليها .

* * *

عندما خرجت راني في صحبة «أداتوا» من مكتب سكورت بفندق ماي فير ، كان الأخير قد غرق في ذهول عميق ، ووضع رأسه بين كفيه لدقائق .. ثم فوجئ بدموعه لأول مرة تسيل ، في هدوء وتنساب برفق على خديه ؛ حتى استقرت على طاولة مكتبه واحدة تلو الأخرى .. لم يكن

ليتخيل يومًا تلك النهاية الوحشية للرقيقة تويا ...علم من أداتوا وراني ما حدث ، وكيف أن نيفيل كلف إيراي بقتلها وحرقها بالبركان ؛ بحجة أنها أغضبت الأرواح الشريرة ؛ حتى لا يتجرأ أحد عليهم من أهل القبيلة مرة أخرى ، ويتلصص على أمورهم .. وحكوا له كيف أن إيراي رفض ؛ فقد كان يحب تويا ولا يقوى على إيذائها .. بل إن أهل القبيلة يعلمون أنه تزوج من راني ، لكونها أقرب صديقاتها إلى قلبها وشقيقتها في الدم .

كان سكورت ينتفض وهو يسمع منهما ، كيف قام مينجو ورجاله بانتهاز الفرصة الوحيدة ، التي سنحت لهم عندما خالفت تويا تعليمات «أداتوا» وخرجت إلى ضفاف البحيرة ؛ لكي ترى الكوخ وتضيف إليه الجانب الأخير حتى يكتمل قبل عودة يوسف .. قص عليه أداتوا كيف أنهم اختطفوها من هناك ، وألقوا بها حية في فوهة البركان في حضور نيفيل ورجاله ، الذين فرضوا على القبيلة حصارًا لأيام طويلة ؛ حتى لا يتمرد عليهم أحد .. ثم روت له راني أن تويا قد أنجبت طفلة صغيرة من يوسف ؛ وأن «أداتوا» تكفل بتربيتها ، ولم يطلقوا عليها اسمًا حتى يعود أبوها ، فتلك كانت وصية تويا الأخيرة .

سكورت بصوت متحشرج :

- كيف قتلت ؟

أجابه «أداتوا» وهو يطرق إلى الأرض حزنًا ، بينما انسابت دموع صامتة ساخنة من عيني راني :

- ذهبت مع راني بالقرب من البحيرة ؛ حيث كانت تبني كوخًا من جذوع الأشجار ، واصطحبهم أحد حراسي ، إلَّا أن إيراي ومينجو أرسلوا وراءهم أكثر من عشرة رجال فتمكنوا منهم بسهولة ويسر ، واقتادوا تويا إلى الجبل ؛ حيث أوثقوها وألقوا بها إلى فوهة البركان ، ثم أشعلوا النار واعتبرها مينجو فداءً لبنات ونساء القبيلة بجسدها ..

ثم صمت قليلًا وأردف :

- ولكنها أوصت راني أن يرى يوسف طفلته ، ويطلق عليها الاسم الذي يحب أن يناديها به .

ظلت مشاعر سكورت المتباينة ، تتنقل بين الخوف والفزع .. مرورًا بالألم والحزن ، وكأنها لاعب سيرك ، يقفز من حبل إلى آخر في رشاقة وخفة ، بينما جمهوره تحتبس أنفاسه دهشةً وخوفًا عليه ، وهو لا يشعر بهم .. فلا يمكنه أن ينظر إليهم حتى لا ينشغل بهم ويفقد توازنه ... ظل يرتجف مع كل إحساس يتملكه ، فيهتز جسده بشدة ، ثم يسكن لبرهة .. وكأن الروح قد غادرته ، ثم يعاود الكرة مرة أخرى .

كان يفزع كلما تذكر حجم الشرور ، التي يبثها نيفيل وأمثاله في هذه البلاد الجميلة .. لم يستطع ذهنه أن يستوعب كيف يتلاعب هؤلاء الأشرار بمصير هذه الأراضي البكر .. وكيف لم يكتفوا بما يقومون به من استنزاف ونهب لخيراتها ومواردها ، دون أن تأخذهم بها أو بسكانها شفقة ولا رحمة .. حتى باتت كشاة هزيلة ، جف ضرعها ، لا تقوى على الوقوف ولا الحركة ؛ فلم يكتفوا بذلك ، بل قاموا بذبحها وسلخها وحرقوا عظامها .

تورمت عيناه من شدة البكاء ، وتصدعت رأسه من الأفكار ، التي كانت تغلي وتفور بداخلها ؛ حتى التقط بادرة أمل وحيدة شاردة من وسط ركام الأحزان .. الطفلة الصغيرة التي تركتها تويا ،

ابنة صديقه الحميم يوسف نجيب ، فابتسم ابتسامة مبتسرة في مرارة شديدة .

* * *

20
الجذور

- هل مازلت مصممًا على ترك جذورك ؟

نظر يوسف إلى السيدة براون ، ثم انتقل ببصره إلى كاترين الواقفة بجوارها ، وكأنها تحتمي بها في مواجهته ، ثم قال مستنكرًا :

- جذوري ؟ ! جذوري .. لم تكن أبدًا هنا ، ولكن هناك وفي بلدي مصر .. نعم أنا مصمم على العودة إليها .

خطت السيدة براون خطوتين للأمام ، حتى اقتربت منه أكثر :

- لا تخطئ مثلما فعل والدك منذ عشرين عامًا ، عندما اتجه جنوبًا بعقله ... وقلبه أيضًا .. لا تكرر الخطأ نفسه .. المستقبل هنا والنجاح هنا .. كل هذا أمامك الآن ، وبين يديك .. يمكنك أن تحقق هنا كل ما تريد في مهنتك و.....

ثم نظرت إلى كاترين بطرف عينيها ، وهي تسترسل :

- وفي حياتك وأطفالك ، الذين سيحملون اسمك ولقب عائلتك وعائلة أمهم ... سيكملون مسيرتك من بعدك يا يوسف .

قبل أن يجيبها ، تدخلت كاترين في الحديث بنبرة باردة كعادتها ، وإن كانت قد أضفت عليها مزيدًا من التحدي :

-هل تعتقد حقًّا أن هذه البلاد الفقيرة سوف ترضي طموحك، إن أحلامك لن تتحقق هناك أبدًا .. إنك تعيش وهم الانتصار الزائف، سكرة نزوة عابرة وعلاقة خيالية ، أقمتها في غفلة من الزمن مع من تعتقد أنها حورية ، جاءت من عالم مختلف ... سوف تصحو ذات يوم ؛ لتجد نفسك وحيدًا .. ستفتقد حياتك التي اعتدتها ... سيارتك الفاخرة ، النادي العريق الذي تمارس فيه الرياضة، المجتمع الراقي، الحفلات والكوكتيلات ... الشهرة والثراء ..

ثم مطت شفتيها وواصلت كلامها :

- قل لي ما الذي سوف تفعله ، بعد أن تعتاد المكان والناس ، وبعد أن تخبو جذوة الانتصار ، وتنطفئ شعلة الإنجاز البطولي الذي حققته .. بعد أن يتوقف اهتمام الإعلام بك، كيف ستشعر بالسعادة في تلك البلاد الفقيرة ، التي يغلفها المرض والجهل .. هل ستستطيع أن تغفل اختلاف الثقافات ، وتتجاهل حقيقة أن نجاحك جذوره بريطانية ، وأن من ساعدك ووقف بجانبك في أبحاثك ومسيرتك ودراستك هم جميعًا من البريطانيين .. هل ستتنكر أن النجاح مكانه هنا بشهادة حكام تلك البلاد أنفسهم ... انظر كيف اتجهوا هم جميعًا نحو الغرب ، وكيف أنهم لا يفكرون بعقليتك ... لا تخدع نفسك بأوهام ، تظنها أحلامًا تحققت .. كن واقعيًّا ، وضع قدميك على الأرض حتى تتمكن من السير ... أعمل عقلك ، كما اعتدت .. أما مشاعرك فلا تخرجها إلا لما اختاره عقلك .

انتظر يوسف حتى أكملت كلامها كله ، ثم نظر إليها مليًّا ، وكأنه يراها لأول مرة.. لا يعرف لماذا تذكر مقولة سقراط الشهيرة في تلك اللحظة .. «تكلم حتى أراك جيدًا» .. ارتسمت على وجهه أمارات التحدي ، وأطل الكبرياء من بين جفنيه في زهو ، وهو يقول :

- لا أجد نفسي إلَّا هناك .. ولن أعمل إلَّا من أجل هؤلاء ، الذين يحتاجون جهدي وعقلي .. وقلبي أيضًا .. هذا هو اختياري بمشاعري وبعقلي وبوجداني .. لقد وجدت ذاتي هناك ، وحققت حلمي معهم.. ليس مهمًّا جنسية من ساعدني . فقد وجدت بين هؤلاء الأفارقة من كانوا أكثر إنسانيةً من آخرين ، يتحدثون عنها كثيرًا ولا يعرفون معناها .. هؤلاء الناس في الجنوب هم بشر مثلنا تمامًا ، وربما نحتاج إليهم كما يحتاجون إلينا ؛ فمصالحنا مشتركة ومخاوفنا واحدة وطموحاتنا متقاربة .. قوتنا في اقترابنا منهم .. لا في استنزافهم.. أنتم تحتكرونهم لصالحكم وتحتقرونهم ، رغم أنهم أصحاب الفضل عليكم ، فيما وصلتم إليه.. لقد اخترت طريقي ، وسأمضي فيه حتى النهاية ، وتذكري جيدًا يا كاترين أن الرصاصة إذا انطلقت لا تعود أبدًا .

ردت عليه كاترين ببرود أكثر ، وابتسامة صفراء ، تحمل قدرًا كبيرًا من اللامبالاة بحديثه :

- ولكنك لا تعرف أبدًا من ستصيب تلك الرصاصة أولًا ...!!

* * *

كان الطبيب جيفري يبدو مضطربًا جدًّا ، وهو يقطع غرفة الانتظار بمكتب نيفيل جيئةً وذهابًا عدة مرات ، ولا يتوقف عن التدخين ، حتى أنه كان يشعل سيجارته التالية من التي سبقتها.. اقترب من مكتب السكرتيرة ليحثها على السماح له بالدخول ، فلم يكن يطيق الانتظار أكثر من ذلك .. رفعت هي رأسها من الأوراق المتناثرة أمامها ، وبادلته نظرة باردة ، وهي تقول :

- لابد أن يخرج الضيف أولًا يا سيد جيفري .. هذه هي التعليمات ، و ..

لم تكمل حديثها ، فقد فتح الباب فجأة ، وظهر نيفيل بطوله الفارع ، وهو يحيي ضيفه بحرارة ، ثم رمق جيفري بنظرة أكثر برودة ، من تلك التي صوبتها له السكرتيرة ، منذ برهة ودعاه للدخول .

- إذا كان ما تقوله صحيحًا ، وأنها مجرد زوبعة في فنجان ، فلماذا تصر الشرطة هنا على ترحيلي من نيروبي .. لقد تلقيت إنذارًا ثانيًا اليوم على مقر الإرسالية ، وهم لا يعلمون أنني أختبئ عندك .

أجابه نيفيل ؛ بالبرود ذاته :

- ولهذا السبب لابد أن ترحل مؤقتًا حتى لا نثير مشكلات مع السلطات الكينية ؛ خصوصًا الحكومة الجديدة ، التي تشكلت الشهر الماضي ؛ فلنا فيها ثلاثة أصدقاء ، لا نريد أن نخسرهم ، بل نريد أن نوسع دائرتنا لتشمل أكبر عدد منهم .. لقد وافقوا اليوم على أن نحتكر تصدير إنتاج مناجم الماس ، وضيفي الذي غادر منذ قليل ، وأنت تعرف منصبه الرسمي المهم ، قد نبهني إلى ضرورة التوقف حاليًا عن تجارة الأعضاء البشرية ، فموقفهم الدولي أمام منظمة الصحة العالمية بات حرجًا .. والحياة لن تتوقف خارج نيروبي يا جيفري .. هناك دائمًا فرصة لأمثالك في إفريقيا .

- أنا أخشى أن يقبضوا عليّ أو أتعرض للأذى .. أنت تعلم أن كل مشكلة لها كبش فداء و..

هب نيفيل واقفًا ، وهو يهم بمغادرة مكتبه :

- ستغادر يا جيفري في أمان .. أنا أعرف كيف أوفر حماية لرجالي .. واعتبر نفسك في إجازة طويلة .

ثم أردف بابتسامته المجتزئة الباهتة :

- .... ومدفوعة الأجر أيضًا .

ثم تركه غارقا في مخاوفه وانصرف .

* * *

رفع يوسف يده قليلًا إلى أعلى ، بعد أن تقدمهما بخطواته ؛ لكي يتوقف سكورت والشرطي الخاص ريجي عن السير خلفه .. فاحترما رغبته ، ووقفا منكسي الرأس في أسى وحزن عميق ؛ رثاءً لحاله ، عندما علم بمقتل توبا بعد وصوله نيروبي بساعات قليلة .. ظلا يتابعانه ببصرهما ، وهو يسير في الممر ، الذي يخترق حديقة الفندق في صمت رهيب مهيب ، وخطى متثاقلة بطيئة ، وكأنه يشيعها في مخيلته إلى مثواها الأخير .

قادته قدماه إلى ضفاف البحيرة .. وقف طويلًا أمام الكوخ غير المكتمل ، وكأنه يكشف له الآن عن سره ، ويكاد الكوخ ينطق بالحقيقة : لن تعيش معها بداخلي أبدًا .. ترك دموعه تنساب بلا حساب كفيضان ، ارتفع فجأة ، فغمر وجهه حتى كاد يطمس ملامحه .. فقد السيطرة على اتزانه فتهاوى على العشب .. جلس في المكان ذاته وحيدًا بائسًا... تلمس الأرض بجواره وتحسسها بيده ، وكأنه يبحث عنها .. همست شفتاه بعبارات غير مفهومة وكأنه يناجيها .

شعر لوهلة بأنه يراها قادمة من ناحية البحيرة كعادتها .. ضاق صدره ألـمًا حتى كادت ضلوعه تخرج منه محطمة ، بدأ يردد اسمها في حزن وشجن بصوت عالٍ متناغم ، وكأنه يتلو ترانيم لتحفظ روحها.. نظر إلى السماء مليًّا ، ثم راح يصرخ صراخًا مكتومًا لم يطاوعه صوته ، وكأن الأخير لا يريد لها أن تسمع في مرقدها صوت أحزانه فتتألم أكثر ، شعر بقلبه ينقبض ، بعد أن كان ينبض بشدة في المكان ذاته ، الذي شهد مولد غرامه بها وعشقه لها .. حاول النهوض فترنح .. عاود الصراخ كعويل ذئب جريح ، فقد أنثاه .. ظلت صرخاته تضرب أرجاء المكان ، وكانت هناك جدران تضخم صوته .. كان يبكيها بجوارحه كلها .. سار على غير هدى يتخبط ويسقط ، ويعاود النهوض كجريح ، يحاول النجاة أملًا في حياة جديدة ، إذا ما تم إنقاذه .. تحركت السحب باتجاه قرص الشمس ، فحجبته ، وهبت رياح خفيفة ، أطارت أوراق الشجر الجافة في وجهه .. مضى يصرخ متألما وينادي عليها ، ولا يسمع من مجيب حتى غابت الشمس ، وبدا يوسف كشبح بعيد يترنح وسط أشجار ، سقطت أوراقها عنها ، وكأن الطبيعة عادت لتشاركه .. ولكن تلك المرة في أحزانه وآلامه .

* * *

-ألن تعيد التفكير في هذا القرار ؟

- لا .

قالها يوسف بحسم ، ثم أغلق إحدى حقائبه بإحكام ، ونظر إلى سكورت قائلًا :

- لقد اتخذت هذا القرار بعد تفكير طويل .. لقد مضى عام منذ أن رحلت عنا توبا ، ولم أتمكن حتى الآن من رؤية طفلتي منها ؛ بسبب نيـڤيل ورجاله وخوف أداتوا وراني من إيراي .. أنا

راضٍ بما حققته هنا حتى الآن ، على الأقل .. لقد توقفت عمليات قتل الأطفال وتجارة الأعضاء .. والآن أهل الكيكيويو يستجيبون للعلاج .. أما كوخ تويا الذي حلمت أن تكمل بناءه من أجلنا ، وخسرت حياتها من أجله ؛ فقد أصبح نبعًا للشفاء ورحمًا لميلاد الحياة من جديد ، بعد أن أقامت الحكومة في مكانه ذاته مركزا طبيًّا صغيرًا لعلاج مرضى الجذام .

ربما لا أكون قد نجحت في القضاء على نيـڤيل وإيراي ، ومينجو نهائيًّا ، ولكنني على الأقل أجبرتهم على تغيير نشاطهم ، وقد يأتي غيري ويقضي عليهم يومًا ما .. أو يفيق أهل هذه البلدة من غفوتهم ، ويعرفون الحقيقة .. وعندها سوف يتخلصون منهم ، ويعتمدون على أنفسهم ، وحينها ستكون لحظة النصر التي آمل أن أحضرها .. سأعود إلى إنجلترا كما جئت.. ومنها إلى بلدي مصر .. سأستكمل مسيرة والدي ، وسأزور نيروبي كل عام لمتابعة العمل بمؤسسة راندال الخيرية هنا ... أشعر الآن أنني أحتاج إلى فترة ، أستعيد فيها توازني وأعيد حساباتي ؛ لذا اخترت أن أسافر بالبحر .

صمت قليلا ثم أردف :

- يبدو أن الانطباعات الأولى تدوم دائمًا .

قالها وهو يبتسم ابتسامة حزينة .. ثم استرسل :

- سأفتقدك كثيرًا حتى ألقاك في القاهرة ، كما وعدتني .

هز سكورت رأسه بالإيجاب ، وهو يبتسم في شجن قائلًا :

- هل أنت نادم على تجربتك ؟

- لا .. على الإطلاق ، بالعكس .. كنت سأندم إن لم أخضها لنهايتها .

ثم نقل بصره إلى نافذة الغرفة ، ناظرًا إلى الأحراش المترامية الأطراف أمامه ، وأردف ، وهو شبه شارد :

- الآن فقط شعرت بقيمة المقولة التي كان أبي يرددها كثيرًا : لا يمكن أن يشعر الطائر بمتعة تحليقه في الفضاء إذا ما كانت اليابسة قريبة منه .. الأمر الوحيد الذي يؤلمني يا سكورت .. هو أنني لم أتمكن من رؤية ابنتي من تويا ، ولا أعرف إن كانت على قيد الحياة أم أنها ....

ولم يقو على إكمال عبارته .

ربت سكورت على كتفه برفق .. فاسترسل يوسف قائلًا :

- لقد حاولت كثيرًا أن أراها ، ولكن إيراي منعني ، والشرطة لا تتدخل في أمور القبيلة .. بل ولا تجرؤ حتى على الذهاب إلى هناك .

أطرق برأسه وعاد ليستكمل حزم حقائبه .

قال سكورت :

- هل ما زلت مصممًا على الرحيل بعد غد.. ألا يمكنك أن تؤجل سفرك يومًا واحدًا فقط .. لو كنت قد أخبرتني بهذا الموعد سابقًا .. لكنت أجلته قليلًا .

أجابه يوسف في دهشة :

- ولماذا التأجيل؟

رد سكورت متلعثمًا :

- لا شيء .. كنت أريد فقط الاحتفال بك ودعوة الجميع و......

قاطعه يوسف :

- لا داعي لكل ذلك ، سوف أعود قريبًا ... من المؤكد أنني سأعود .

ودعه سكورت وداعًا حارًّا ، ثم صمم على أن يصطحبه في رحلته إلى مومباسا ؛ ليستقل السفينة ، عائدا إلى ميناء ليڤربول .. ولكن تلك المرة لم تكن بالقطار .. وإنما بالسيارة .

طوال الطريق من نيروبي إلى مومباسا ، لم ينطق يوسف بكلمة واحدة .. سبع ساعات كاملة ، كان فيها مغمض العينين ، عاقدًا ذراعيه أسفل صدره حتى ظنه سكورت نائمًا .. بينما كان يوسف غارقًا في ذكرياته مع حبيبته تويا .. لم يكن يرى طوال الرحلة سوى وجهها ، وهي تبتسم ابتسامتها الساحرة .. حتى اكتست ملامحه بالسكينة والهدوء ، فبدا كطفل نائم .

وضع يوسف أمتعته في قمرته ، ثم خلع سترته ، وهو يستمع لصفارة السفينة الطويلة .. كانت الأولى ، والتي تتعجل الركاب لدخولها عبورًا من رصيف الميناء إلى سطحها .. أخرج من حقيبته فرخ الورق ، الذي طواه بعناية ، ثم فرده وتأمل صورته التي كانت تويا قد رسمتها له بالفحم منذ عامين .. تذكر كلماتها وقتها ، عندما قالت : أردت أن أترك لك ذكرى جميلة عن بلادي وأيامك معنا فيها ، فرسمت صورتك .

كم كُنتِ رقيقة يا تويا !!

ترقرقت دموعه قليلًا .. ألقى نظرة على رصيف الميناء .. شاهد سكورت لا يزال واقفًا مكانه ، يتأفف وينظر في ساعته .. اندهش ، وقال لنفسه :

- ماذا يظن هذا المخبول .. هل يعتقد أنني سأعود معه مرة أخرى .

دقائق مرت بطيئة وهو يخلع ملابسه .. ثم سمع طرقًا سريعا على باب قمرته ، ومع ذلك تحرك في تكاسل .. وجد أمامه أحد البحارة يبلغه بضرورة الحضور لمقدمة السفينة ؛ للقاء القبطان فورًا لأمر مهم وعاجل .. التقط يوسف سترته بيسراه ، وجذب باب القمرة بيمناه في هدوء... اعتقد أن هناك مريضًا على السفينة ويريدون منه إسعافه .

وعندما اقترب من مقدمة السفينة ، لمح سكورت من بعيد ، وبجواره ريجي الشرطي الكيني ، الذي كان يتولى حراسته في العامين الأخيرين فاندهش بشدة أكثر .. بدأ يسرع الخطى ، ثم شاهد القبطان واقفًا بين اثنين ، لم يتخيل رؤيتهما مرة أخرى في حياته .. فدق قلبه بعنف حتى كاد يقفز من بين ضلوعه لرؤيتهما ... أسرع في خطواته أكثر ، وقلبه يلاحقه بضربات سريعة .. لقد كانوا ثلاثة وليسا اثنين فقط .. هكذا تمتم بصوت عال للبحار ، الذي هرول بجواره ، وهو لا يدري سبب ذلك كله ، فنظر إليه بدهشة بالغة هو الآخر .

كان أداتوا وبجواره راني تحمل طفلة صغيرة بين يديها ، لا يزيد عمرها على عامين على أكثر تقدير .. اختلطت مشاعر الشجن عنده لرؤيته طفلته بأحاسيس الفراق لأمها.. وقف يتأملها وهو مضطرب ، فلم يرحب بأداتوا أو راني .. أما سكورت ، فقد وقف مبتسمًا يربت على كتف يوسف .

نظر إليهما بلهفة من يريد أن يسمع إجابة محددة ينتظرها :

- هل هذه الطفلة ابنتي ؟

أجابه أداتوا بثقة :

- نعم .

بينما راحت راني تهز رأسها بالإيجاب ، بعد أن فهمت سؤاله بفطرتها .

أما سكورت .. فقد كان يبتسم في زهو كقائد منتصر ، وهو يربت على كتف الشرطي ريجي قائلًا :

- لقد عرفت متأخرًا أن ريجي ينتمي لقبيلة الكيكيويو ، وتعاطف معنا تمامًا ، وساعدني كثيرًا لكي نستطيع تهريب طفلتك من هناك ، دون أن يدري إيراي ورجاله .. كان أمرًا شاقًّا جدًّا ..لقد فعلت المستحيل لتعطيل السفينة حتى يصلا .. إنها أول مرة ، يغادران فيها الأحراش إلى المدينة !

وأشار بيده إلى راني وأداتوا .

ظل وجه راني متهللًا بالفرح ، وهي تتأمل يوسف يداعب طفلته ، في حنان بالغ ، مرددًا بصوت عالٍ :

- إنها تشبه أمها كثيرًا .

أخرجه القبطان من شجونه وأفراحه قائلًا بحسم :

- هذا الرجل يقول إن تلك الطفلة ابنتك .. فهل ترغب في تسلمها وسفرها معك ؟

لم يجب يوسف ، وإنما ظل ينظر إلى الطفلة في بلاهة ، ثم هز رأسه بالإيجاب .

فأردف القبطان :

- إذا وافقت .. فعليك التوقيع على هذه الورقة أمامي الآن ؛ حتى نسمح لها بالسفر معك .

أمسك يوسف بالقلم ، ووقع دون تفكير ، ثم عاد يحتضن طفلته في أبوة حانية .

عاد القبطان يدون بعض البيانات بالورقة ، ثم باغت يوسف سائلًا إياه :

- ما اسم الطفلة ؟

نظر يوسف إلى سكورت ؛ فرفع كتفيه إلى أعلى قليلًا ، ومطَّ شفتيه للأمام .

حول يوسف بصره إلى أداتوا وراني ، وسألهما :

- هل أطلقتما عليها اسمًا ؟

أجابه أداتوا في هدوء :

- لا .. لقد رفضت تويا أن يسميها أحد غيرك ، وأوصتنا بذلك حتى اللحظة الأخيرة ..

دمعت عينا يوسف ، وارتعشت يده قليلًا .. وهو يمسك بالقلم ، ونظر في وجه القبطان لبرهة .. ثم دون بخانة اسم الطفل كلمة واحدة فقط ... **«تـــــــــــــــــويا»** .

«تمت»

القاهرة في 17 مايو 2012

أشــرف العشـماوي

قالوا عن أعمال أشرف العشماوي :

رواية زمن الضباع

عندما قرأت رواية زمن الضباع لأشرف العشماوي تذكرت أسلوب الكاتب العظيم يوسف السباعي ؛ فكل منهما يحكي زمنه ومرحلته .. سعادتي كبيرة بالعمل الأول للعشماوي لأنه تأكيد لحقيقة أن مصر لن تصاب بالعقم الإبداعي يومًا ما .

الصحفية/آمال إبراهيم - جريدة النهار اللبنانية

فبراير 2012

* * *

إما الثورة وإما الانتحار.. خياران لا ثالث لهما عندما تعيش زمن الضباع، عندما يسود الضبع ويحكم، فهذه هي النهاية، وهذا هو فصل الختام.. هذا ما قرأته بين سطور «زمن الضباع» تلك الرواية النبوءة التي كتبها المستشار أشرف العشماوي قبل ثورة يناير بسنوات.. الرواية مكتوبة بالرمز عن غابة، على غرار رمزية «كليلة ودمنة»، وقلقي على مثل تلك الأعمال الفنية المهمة هو اختزالها في معادلات رياضية أوتوماتيكية ساذجة لفك الرموز، مثلما فعل البعض مع رواية «أولاد حارتنا» أو مع فيلم «المهاجر»، لابد أن تبتعد عن المشهد مسافة وتلتقط أنفاسك، كي تفك التفاصيل وتعيد ترتيبها، وستحبس أنفاسك حين تشتعل المعركة بين الثعلب والضبع في نهاية الرواية، وأنت تخمن من سينتصر في النهاية؟ وهل يُعد منتصرًا من فاز على خصمه والغابة تحت قدميه أطلال وأشلاء؟! هل ترضى بأن تعيش زمن الضباع؟.. اقرأ الرواية ستعرف الإجابة.

الدكتور / خالد منتصر – جريدة المصري اليوم

يونيو 2011

* * *

رواية زمن الضباع لأشرف العشماوي متميزة على مستوى سرد الأحداث وترابطها، ورسم الشخصيات. و يبقى هذا العمل الأول لكاتبه على قدر من التميز من حيث سرعة الإيقاع والاحتفاظ بخط سردي واضح للأحداث ، ودقة رسم المشاهد التي يرقى كثير منها إلى دقة المشاهد السينمائية. أضف إلى ذلك اللغة التي تكتسب جماليات شاعرية في كثير من المواضع.

(عزة مازن صحفية ومدونة- مجلة الإذاعة والتليفزيون -

23 يوليو 2011)

* * *

بدأ الكاتب أحداث روايته زمن الضباع في الغابة وانتهى بها في الصحراء وربما قصد بذلك توضيح المتناقضات الموجودة في الحياة والاختلافات التي قد يواجهها الإنسان ؛ ليتكيف ويعيش سواء في الغابة أو الصحراء أو ربما يكون تعبيرا منه عن الجفاء الذي ينتظر البطل في المراحل المختلفة التي تمر عليه أو الخواء العاطفي والنفسي ، الذي قد يشعر به الإنسان إذا رحل الوفاء وغاب المثل الأعلى وانهارت القيم وحل الضبع محل الأسد في جميع مناحي الحياة لتتراكم إرهاصات الثورة وتجلياتها التي رأيناها في يناير 2011 .

جريدة الأهرام – صفحة الأدب –

يوليو 2011

* * *

رواية «زمن الضباع» ذات إيقاع سريع يكشف لنا صراع جماعات القوى والمصالح في الغابة لتحقيق السيطرة عليها .

أغاريد مصطفى – جريدة الرأي

أغسطس 2011

* * *

رواية زمن الضباع شرح للسياسة على طريقة كليلة ودمنة و تتناول بشكل صريح أوضاع وأحوال الحياة السياسية في إحدى الدول من صعود جماعة لسلم السلطة بطرق غير مشروعة ؛ حتى تتمكن في النهاية من السيطرة على مقاليد الأمور .

جريدة روز اليوسف

يونيو 2011
محمد عبد الخالق

* * *

يحمِّل العشماوي عمله الأول برؤى وآراء سياسية، إن رواية «زمن الضباع» تدور حول فكرة أساسية هي غياب الإيمان بالقوة داخلنا ؛ مما أدى إلى تدهور أحوالنا في كل المجالات، وبالتالي كان الانهيار هو النتيجة الحتمية .

أسامة فاروق – جريدة أخبار الأدب

يناير 2012

* * *

أشرف العشماوي كان مبدعا حقيقيًّا في روايته الأولى «زمن الضباع» ، التي تشرح بصدق وبأسلوب أدبي راق ورائع وشديد الجاذبية ظاهرة نهش الأوطان في عالمنا العربي المعاصر ، من خلال قصة رمزية جميلة .

الكاتبة الصحفية والأديبة سلمى قاسم جودة – مجلة آخر ساعة .

أغسطس 2011

* * *

كتاب سرقات مشروعة

كتاب سرقات مشروعة لأشرف العشماوي يختلف تماما في بنائه وموضوعه عن الكتب التي تعالج الموضوعات المشابهة، والتي صدرت بعد الثورة، تتهم مسئولين بالنظام السابق في تجارة آثار وغيرها، فهو أقرب إلى أن يكون وثائقيا وتاريخيا ولكن بأسلوب أدبي قصصي مشوق .

جريدة الشروق –

مايو 2012

* * *

يعكس كتاب سرقات مشروعة تحول المجتمع المصري على مدار 200 عام منذ بداية حكم محمد علي باشا لمصر ، وحتى ثورة يناير ، ولا يقف الكتاب عند هذا الحد فهو يسرد تجارب كاتبه الشخصية في مجال استرداد الآثار ، وهي تجارب سمح له عمله في وزارة الآثار ، ليس فقط أن يكون شاهدا عليها بل أن يكون كذلك عضوا فعالا و إيجابيا فيها.
وكالة أنباء الشرق الأوسط

مايو 2012

* * *

إشفاقا مني على القارئ العزيز. أوصيه عند قراءة كتاب سرقات مشروعة أن يتحلى بضبط النفس والسيطرة على أعصابه ؛ حتى يمكن أن يستوعب هذه المهزلة القومية في السرقات الأثرية على مدار أربعة فصول ممتعة للغاية ، إن حصول مصر على كنوزها المسروقة لن يقل عظمة وأهمية عن عبورها قناة السويس في أكتوبر 73. وهذا كتاب يحكي من خلال موقع كاتبه المستشار أشرف العشماوي كمسئول عن ملف استرداد الآثار المهربة بوزارة الدولة للآثار ، التفاصيل المذهلة لرحلة خروج هذه الكنوز. وأيضا رحلة استردادها.

رياض توفيق – جريدة الأهرام

أغسطس 2012

* * *

لم يخطئ المستشار العشماوي عندما أطلق على كتابه المهم عنوان سرقات مشروعة فأكثر من نصف آثار مصر قد خرج بالقانون ولم يعد ، ويتعرض الكاتب للعديد من القصص عن خروج القطع المهمة والنادرة واستردادها مثل استرداد آثار مصر

من إسرائيل، وخروج رأس نفرتيتي وحجر رشيد وجداريات متحف اللو□ر، كذلك لسرقة مجوهرات أسرة محمد علي ، وحكايات خروج معابد بأكملها من مصر وعرضها فى بلاد أوروبا حتى سرقة المتحف المصري واحتراق المجمع العلمي في عام 2011 .
الصحفية/دينا عبد العليم - جريدة اليوم السابع

* * *

سرقات مشروعة كتاب مهم للمستشار أشرف العشماوي ، يرصد كيفية خروج الآثار المصرية على مدار 200 عام بالوثائق والصور .
وكالة رويترز
مايو 2012

* * *

يعتبر كتاب سرقات مشروعة لأشرف العشماوي من أهم الكتب الوثائقية التي تستعرض صفحات مجهولة من تاريخ سرقة ونهب وتهريب آثار مصر وتراثها في القرنين الأخيرين ؛ مما أدى إلى وجود أكثر من نصف الآثار المصرية في الخارج .
موقع الجزيرة نت الإخباري/ بدر محمد بدر

* * *

سرقات .. ومشروعة ؟ هذا هو السؤال الذي يطرحه هذا الكتاب ويحاول الإجابة عنه. وهو ما يثير لدى الكثير من الآلام والحيرة التي استعدتها مع هذا الكتاب الذي صدر أخيرا للقاضي أشرف العشماوي ، بعنوان سرقات مشروعة ، ويكشف فيه صاحبه أسرارا كثيرة عن خروج آثارنا من مصر بسبب القوانين واللوائح ، وهو محاولة ترينا كيف يكون القانون هو الحامي والجاني معا؟ وكيف يتحايل الإنسان ليسرق نفسه أويترك غيره ليسرقه، ويكافح لتصبح السرقة مشروعة؟!
الصحفي/ مصطفى عبد الغني – جريدة الأهرام

* * *

كتاب سرقات مشروعة للعشماوي ، هو ملخص 200 عام من سرقة آثار مصر ونهبها بالقانون .
نبيل سيف – جريدة الفجر
مايو 2012

* * *

رواية تويا

في ثاني عمل روائي له يسجل المستشار أشرف العشماوي انتصارًا سرديًّا فائقاً بإصداره رواية ، يمكن أن توصف بأنها كلاسيكية تحمل اسما فرعونيا «تويا»، وتأتي هذه الصفة لها من اعتمادها على الراوي الذي يحيط علما بكل الشخصيات والبواطن، وعنايتها بالحبكة الدرامية التي تربط جميع الخيوط المتناثرة ، وتجيب عن كل الأسئلة دون أن تترك شيئا يذكر كما تفعل الروايات الحداثية.
الدكتور صلاح فضل – جريدة الأهرام

* * *

تويا رواية أدبية رائعة عن صراع الهوية ، ومنذ الإهداء نجد أنفسنا أمام هذه الثنائية الفردية التي يجعلها المؤلف مرتكزًا لفهم عالمه : «إلى من يظن أنه يتخذ جميع قراراته بعقله فقط، تأكد أن قلبك يخطو الخطوة الأولى في أحيان كثيرة، فتكامل ثنائية العقل والقلب وليس انفصالها، ينسحب على مجمل رؤيته فى هذه الرواية».
الصحفي بلال رمضان- اليوم السابع

* * *

رواية تويا .. حين تكون النفس حائرة بين الحلم والواقع تظهر الجذور الإنسانية العميقة لبطل هذه الرواية .
إيهاب مسعد – جريدة العرب القطرية

* * *

تويا عمل أدبي ممتع للعشماوي ، فمنذ البداية يضع المؤلف بطله في تناقض بين نفسه ومجتمعه ، بين حلمه وواقعه ، فتتغير ملامحه النفسية .. بطل تراجيدي إغريقي ينتقل من موقع السلب إلى موقع الإيجاب.
نادية البنا – جريدة أخبار اليوم

* * *

في رواية « تـويا» يغادر أشرف العشماوي مجازاته الكبرى ،التي أقامها في روايته الأولى«زمن الضباع» فلم يتخفَّ وراء الرموز والاستعارات قاطعًا بذلك وشائجه مع تراث كبير في هذا السياق، بعد أن جربه مرة واحدة، وهو الإبلاغ على لسان الطير والحيوان، كما في كليلة ودمنة، ومنطق الطير ؛ ليقول ما يريد دون خوف هذه المرة، فيدخل إلى عوالم حقيقية وواقعية ممتعة ، راصدًا بخبرته الإنسانية الكبيرة ، دوافع أبطاله وطموحاتهم وانكساراتهم .

جريدة أخبار الأدب – مصر

* * *

لقد حملنا أشرف العشماوي معه على أجنحة روايته « تـويا» التي نسجها على إيقاع ناعم لنتابع قصة حب رقيقة، راقية .

جريدة الوطن – البحرين

* * *

«تويا» رواية عن العودة إلى الجذور الإفريقية وصراع الهوية بين الغرب والشرق، عمل أدبي ممتع ورائع ، ويحوي قصة رومانسية رقيقة تعود بنا إلى زمن الرواية الجميل .

موقع محيط الإخباري

* * *

الرواية الثانية لأشرف العشماوي «تويا» رواية اجتماعية رائعة بتصميم مدهش لغلافها رسمه الفنان «عمرو الكفراوي» ، حتى إن الغلاف صار جزءًا من موضوعها ولوحة فنية رائعة ودقيقة تكتنز المعنى العام للرواية، عبر وجه أنثى مصري، عربي إفريقي، يظهر الجذور الإنسانية العميقة لبطل العمل الباحث عن ذاته .

هيثم عبد الشافي – مؤسسة المشهد للصحافة والنشر

* * *